الدكتور وجدي الفيشاوي

جورج برنارد شو

حياته بقلمه

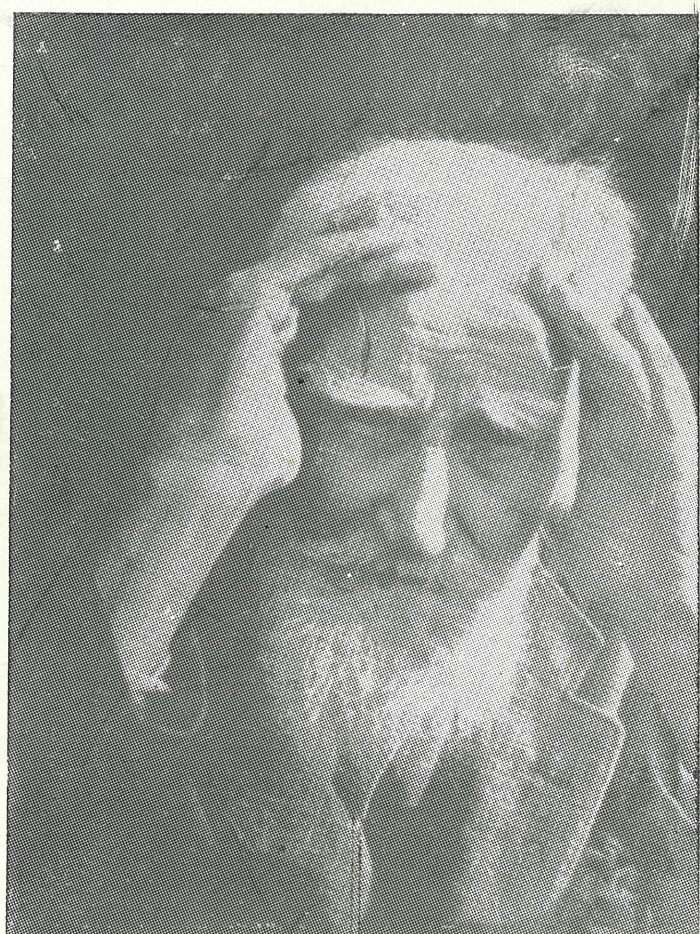

جورج برنارد شو

حياته بقلمه

ترجمة

الدكتور وجدي الفيشاوي

دار الثقافة للنشر والتوزيع
القاهرة - ت : ٩٠٤٦٩٦

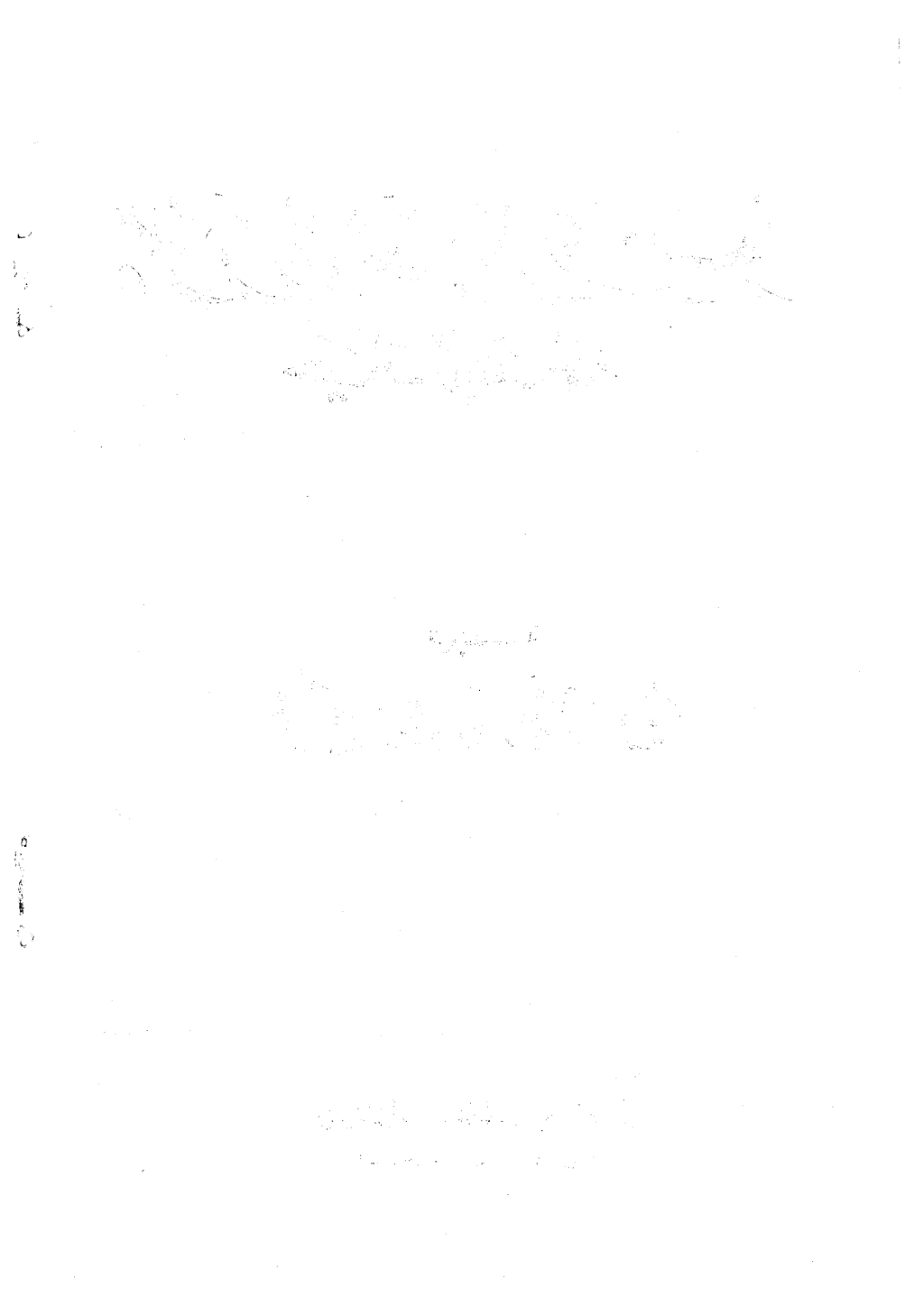

(١)

أول من ترجم احياتى

كان أبى جورج كارشو George Carr Shaw أول من ترجم لحياتى فى صورة خطابات كان يرسلها الى أمى • كان يكتب من مكتبه الكائن فى ٧٦ شارع جرفيس Jervis بمدينة دبلن حيث توجد مؤسسة كليبورن Clibborn وشو لتجارة الحبوب • لم تكن الشركة ناجحة فقد كان كليبورن خبيرا فى تجارة المنسوجات ولم يحذق أبى مهنة التجارة لأنه كان موظفا حكوميا سابقا فى أحد أقسام قصر العدالة ، وقد ألغى القسم الذى كان يعمل فيه وأحيل موظفوه الى المعاش وانضم أبى ، برأس المال الذى استبدل به معاشه الى كليبورن فى العمل الذى لم يكن لكليهما دراية به • ومع ذلك بدت لهما المؤسسة مشروعا مثمراً ناجحا بمكاتبها ومخزنها فى شارع جرفيس والطاحونة فى رتلاند أفنيو Rutland Avenue ، وهى ضاحية جميلة لا تبعد كثيرا عن ضاحية دولفن بارن Dolphin Barn • وتزوج أبى فى كهولته معتمدا على الآمال التى عقدها على نجاح المشروع وأثمر هذا الزواج ثلاثة أطفال : أكبرهم لوسنيدا فرانسيس

Lucinda Francis (لوسى) ، ثم الينور آجنز Elinor Agnes (أجى) ، وأخيرا طفل أطلق عليه اسم جورج برنارد (سونى) وباختصار لم يكن ذلك الطفل ســـواى •

وفى يوليو عام ١٨٥٧ ـــ ولم أكن بعد قد تخطيت العام الأول من حياتى ـــ غادرت أمى منزلنا القائم بشارع سينج لزيارة أبيها ولتر باجينال جيرلى Walter Bagenal Gurly ، وهو سيد ريفى من عائلة كارلو يقيم فى أوترارد بمقاطعة جالواى ، بالرغم من أنه فى تلك الآونة كان يعيش فى كينلو بمقاطعة ليترم • وهكذا ذهبت أمى الى كينلو مصطحبة معها لوسى وتركتنى وأختى آجى فى رعاية أبينا •

وتبـــدأ ترجمة حياتى بالخطابات المتبادلة بينهما • ومن الصعب أن أحقق الترجمة أو أن أؤكد صحة ما جاء بها اذ أننى لا أكاد أذكر متى بدأت تعلم المشى أو متى أطلقو على اسم بوب Bob • وعلى أية حال فهذا هو نص خطابات أبى •

١٧ يوليو ١٨٥٧

أصيب الصغير بألم فى معدته فى الواحدة بعد منتصف الليل لكنه استرد نشاطه فى الصباح وهو الآن على ما يرام ، وقد عزت المربية المرض الى ما كان قد أكل من حبات الزبيب •

٧/٢٠

أصبح الصغير عنيفا بدرجة ملحوظة • تركته هذا الصباح وهو يصيح وينفخ كالثـــور وأكبر ظنى انه سيسرع الى عرض الطريق لاستقبالك عندما تعودين •

٧/٢٢

تحاول المربية بحماس أن تدرب الصغير على المشى ليصبح قادرا على استقبالكم عند عودتكم وأعتقد أنها تفعل ذلك أيضا لتقى نفسها مشقة حمله وفى هذا راحة أكثر لها • ولقد قام بوب صباح اليوم بمحاولة جريئة للمشى • وكان المفروض أن يذهب الجميع الى منزل عمتك (العمة الن ويتكرفت) Ellen Whitcroft •

٧/٢٤

مزق بوب قبعته بالأمس وتقول المربية انه من الضرورى أن أبتاع له قبعة جديدة ولقد طلبت منها أن تقوم بشراء القبعة على أن أدفع لها الثمن ، ولذا أعتقد أننى سوف أدفع الكثير •••• تقول المربية أن بوب مشى بطريقة رائعة أمام عمتك •

٧/٢٧

تناولت المربية وســـارة Sarah (الخادمة) والصغيران وجبة طيبة فى الحديقة بعـــد رجوعهما من الكنيســـة • ابتاعت المربية قبعة لبوب وكانت ســـعيدة جـــدا ، واضطررت الى أن أعطيها عشر شلنات ، هو مبلغ كبير لكنى لن أقول شـــيئا فاليوم

عيد ميلاده ••• بالأمس وقع بوب وآجى على رأسيهما من فوق السرير ، ولم يصب أى منهما رغم أن ذلك كان محتملا •

٧/٢٨

أسعدنى بوبـــزا Bobza بصحبته ، ولقد قمنا معا بمباريات فى المشى لم تتعد انتصاراته فيها أكثر من ياردتين يقطعهما مترنحا ذهابا وايابا بينى وبين المربية أو بينها وبين كارولين برابا زون Coroline Brabazon (الأم الروحية لجورج برناردشو) التى تحضر كثيرا هـــذه الأيام • ان قبعة بوب رائعة ولكنى أعتقد أن المربية عنـــد عودتك ســـتلح فى طلب بعض النقـــود لشراء ريش لتجميلها •

(بدون تاريخ) صباح الأحد • الحادية عشرة والنصف كالمعتـــاد •

قضى بوب هذا الصباح بعضا من الوقت فى فراشى ، كما تناول معى طعام الفطور •••• لقد انكفأ على وجهه منذ لحظة وتعالى صراخه لكنه يضحك الآن •

٧/٣٠

خرجت للنزهة صباح أمس مصطحبا الصـــغيرين فى عربة الأطفـــال ، كان فى ذلك متعة لى ولهما • يكثر بوب من التذمر والعناد لكن عليـــه أن يحترس والا ذريته بالمذراة وقد اقترب موسم درس القمح •

٨/٣

تصيبنى خيبة آمل كل صباح لا أجد فيه خطابا منك فى يـد بوب وهو يندفع الى بخطاه المتعثرة ، ثم يتعارك معى وأنا أحاول فى يأس أن انتزع منه الخطاب • لقد مزق الشقى الجريدة هذا الصباح • بالأمس خرجت المربية مع الطفلين كى تقضى النهـار فى كنجستون Kingstown ، لكنها قابلت مس مالون Malone فى محل بشارع كنج King مما وضع (للأسف) نهاية للرحلة التى رئى تأجيلها حتى يوم الاثنين القادم •

٨/٦

قضيت نصف ساعة ظهر اليوم فى مداعبة آجى وبوب • جـاءت سيسيليـا Cecilia (عمـة ج • ب • شـو) لرؤية الطفلين •

٨/٧

قالت لى المربية صباح اليوم أن بوب يكاد يحطم أعصابها ، وهو فى الواقع ولد متعب ويحتاج الى أكثر من فرد للعناية به •

٨/٨

وزعت قبلاتك على يوب وبوب لكنى خالفت تعليماتك : لقد اختلست لنفسى بعض القبلات ، وأنت تعلمين كم هو حلو ان يختلس الانسان قبلة •

٨/١١

نجا بوب بمعجزة صباح الثلاثاء . كان جالسا فوق مائدة المطبخ فى رعاية المربيـــة التى ما كادت ـــ كما تقـــول ـــ تنحنى لتلتقط شيئا من الأرض حتى وقع بوب على ظهره وارتطم رأسه باللوح الزجاجى وقائم الحديد الخارجى ، وأقول ان عدم اصابته بخدش يعتبر ضربا من ضروب المعجزات ولو وقع بوجهه على لوح الزجاج لكانت كارثة . فى ذلك الوقت كنت فى غرفتى أتهيأ للخروج ، وعندما سمعت الصوت هرعت كى أجد المربية متسمرة فى مكانها وقد شلها الخوف لدرجة أنها لم تقو على رفع المسكين . لا أعرف كيف نجا الشقى من هـــذا الحادث الذى لا يبدو أنه آله على وجه الاطلاق .

٨/١٥

بدأت أسنان بوب تسبب له شيئا من الألم ولذلك فهو شديد الاضطراب ليلا ونهارا .

(٢)

المبررات التى دفعتنى لكتابة هذه السيرة

يسألنى النـــاس لماذا أحجم عن كتابة ســـيرتى الذاتية • وأجيب على ذلك بقولى ان تاريخ حياتى يخلو من أى عنصر من عناصر التشويق ، فأنا لم أرتكب جريمة قتل فى يوم ما ، ولم يحدث لى ما هو غريب غير مألوف • لقد أدهشنى أحد العرافين ، وهو يفحص يدى لأول مرة عنـــدما أخبرنى بتاريخ حيـــاتى ، أو بأكثره قدر ما سمح له الوقت بذلك ، وكان من الواضح أنه عرف أشياء لم أكن أخبرت بها أحدا على وجه الاطلاق • وبعد عدة أيام ذكرت فى حديث لى مع أحد الأصدقاء (وليم أرشر) William Archer أننى اتخذت قراءة الكف هواية لى ، وفى الحال مد يده متحديا أن أخبره بشىء عن حياته لم أعرفه منه • وقلت له عن نفســـه وبالحرف الواحـــد كل ما قاله لى العراف عن نفسى •

وأصابته الدهشة تماما كما اصابتنى من قبل ، اذ كان كل منا يعتقـــد أن تجاربه فريدة فى نوعها فى حين تشابهت تجاربنا بنسبة تسع وتسعين وتسع من عشرة فى المائة وعن هذا الواحد من

عشرة فى المـــائة لم يذكر العراف شـــيئا • وبدا الأمر كما لو كنا قردين آمن كل منهما بتميز هيكله العظمى • وقد يكونان محقين فى حدود عظمة أو عظمتين ، ذلك لأنه من النادر أن يوجد هيكلان متشابهان تمام التشابه • وعلى ذلك فمن حق الفرد أن يعرض عظمته أو عظمتيه الفريدتين كشىء نادر ، أما ما تبقى من هيكله فعليه أن يطرحه كشىء غير ذى بال ، عليـــه أن يحتفظ به لنفسه ولا يعرضه على الآخرين حتى لا يثير به فى نفوسهم مللا قـــد لا يطاق •

من هنا تبرز مشكلتى ككاتب ســـيرة ذاتية • كيف لى أن أتخير وأصف تلك الخمس من عشرة فى المـــائة التى تميزنى عن أناس أكثر أو أقل منى حظا ؟ أى فائدة ترجى من وصف تفصيلى يكتب عن ميلاد الشهير سميث فى المنزل رقم ٦ بشارع هاى ، فى حين أن المغمورين من أمثـــال براون Brown وجونز Jones وروبنسون Robinson الذين ولدوا بالمنـــازل رقم ٧ ، ٨ ، ٩ قد مروا بنفس مراحل النمو والتغذية والافراز والملبس والســـكون والحركة ؟ وكى يكون هنـــاك مبرر لكتابة تاريخ حياة سميث ، لا بد أن يكون سميث هـــذا قد مر بأخطار جسيمة وواجه مواقف وأحداثا غير عادية •

والآن • أنا لست صاحب بطولات ولم تصادفنى أحداث بل على العكس أنا الذى صادفت الأحداث وكل أحداث حياتى تظهر فى كتبى ومسرحياتى • اقرأوها أو شاهدوها ومنها تعرفون

قصتى بأكملها ، ولا يتبقى بعد ذلك سوى الافطار والغذاء والعشاء والنوم والاستيقاظ والاغتسال ، فطريقة حياتى لا تختلف عن طريقة حياة أى انسان عادى • لقد استطاع فولتير Voltaire أن يقص فى صفحتين كل ما يراد معرفته عن حياة موليير Moliére الخاصة ، ولو كتبها فى مائة ألف صفحة ما تحملها أحد •

أضف الى ذلك تلك الصعوبة الناشئة عن اشتراك أكثر من شخص فى أية مغامرة عند حدوثها ، وهذا معناه أن حقك فى أن تحكى قصتك لا يعطيك الحق فى أن تحكى قصة الآخرين ، فاذا ما انتهكت هذا الحق وكان هذا الشخص لا يزال على قيد الحياة فمن المؤكد أنه سيعارضك باستياء ، اذ يندر أن يتذكر شخصان نفس الواقعة وبنفس الطريقة ، وقلة قليلة جدا من الناس هى التى تستطيع أن تعرف واقع ما حدث لها وأن تصفه بطريقة فنية • واذا أريد لأى سيرة ذاتية أن تقرأ فلابد وأن تبرز فى صورة فنية •

ان معظم السير الذاتية اعترافات ، لكن اذا كان الانسان كاتبا متعمقا فى فنه فان كل أعماله تصبح اعترافات • لقد كان جيته Goethe واحدا من أعظم عظماء الرجال الذين حاولوا كتابة سيرهم الذاتية • ولقد كانت محاولاته للتهرب من موضوعه مثيرة للرثاء خصوصا بعد كتابة الجزء الخاص بطفولته وهو الجزء الذى يمكن قراءته فى أى سيرة ذاتية مهما بلغت رداءتها ،

ولذا تراه يلجأ للكتابة عمن عرفهم أيام شبابه من أمثال توم وديك وهارى وهم أشخاص لا يستحقون الذكر مما يدعو الى الملل وعدم الرغبة فى الرجوع الى قراءته مرة أخرى . انني أحد القلائل الذين قرأوا اعترافات روسو Rousseau حتى نهايتها وأستطيع أن أجزم بأن حياة روسو منذ تلك اللحظة التى يتوقف فيها عن العربدة والمغامرة كى يصبح روسو العظيم قد تتشابه مع الحياة اليومية لأى شخص آخر .

ان ذكرى مدام دى وارينز التى اتصل بها روسو وهو فى السادسة عشرة من عمره تعيش حية فى مخيلتى ، أما مدام دى أوديتو التى تعرف عليها روسو وهو فى الخامسة والأربعين فلم تترك فى نفسى أى أثر يذكر ، كل ما أذكره هو الاسم فقط . ان هذه الاعترافات باختصار لا تزودنا بشىء ذى بال عن حياة روسو فى مرحلة النضج ، بينما تحكى لنا أعماله كل ما نحن فى حاجة الى معرفته . ولو ازيح الستار عن حياة شكسبير اليومية وعرضت منذ ميلاده حتى مماته فى نفس الوقت الذى يسدل فيه الستار على هاملت Hamlet ومركيو شيو Mercutio لبدا ذلك كاحلال شخص عادى جدا محل شخص غاية فى الأهمية وفيما يختص بديكنز Dickens فان ما يعرف عنه كثير ، ولكن هذا الكثير محتمل الحدوث لأى شخص آخر . لقد أظهره كتاب السيرة فى صورة مطموسة لكل من لم يقرأ

كتاباته ، أما الذين قرأوا له فان الصورة تبدو لهم مشوهة الى حد مؤلم .

وعلى ذلك فان اللمحات التى أقدمها عن نفسى وأملأ بها هذا الكتاب لا يمكن أن تكون تصويرا ذاتيا دقيقا ذلك أننى لا أعى ذاتى أو أحس بها تماما كما لا أحس بمذاق الماء لأنه دائما فى فمى . انها فى غالبيتها تزودك بما أسىء فهمه أو بما لم يهتم به الآخرون . لقد أشرت على سبيل المثال الى أن الصبى الذى يلم بروائع الموسيقى الحديثة يكون فى الواقع أكثر ثقافة من صنوه الذى لا يعرف سوى روائع الأدب الاغريقى أو اللاتينى القديم ، كما صورت الجانب التعس من مجتمعنا كما يتمثل فيمن أطلق عليهم اسم الصبية السادة من سلالة أبناء الطبقة العتية الذين لم يؤل اليهم ميراث ، هؤلاء الصبية الذين لم يستطيعوا الوصول الى مرحلة التعلم الجامعى بسبب ضيق مورد الآباء . وعلى ذلك فهم يشبون سادة حسب التقاليد دون أن يكون لديهم من العلم أو المال ما يؤهلهم لأن يكونوا كذلك ، وما سيادتهم فى هذه الحالة الا سيادة الغطرسة والافلاس . ولقد رأيت أنه من المستحسن أن أحذر الصغار من الخطر الكامن فى التعمق أكثر من اللازم فى آفاق المعرفة ومن الانزلاق الخطر الى قاع الجهل ، ونصحت بالتوسط فى الخير والشر مشيرا الى أن الطريق المأمون هو طريق المعرفة والعقيدة والعمل المتعارف عليه بين الناس .

لا أذكر هذه الأشياء بسبب اضطهاد عانيت منه أو اتهام

وجـــه الى ، ولكن أذكرها لأنها تهم الطبقة الدنيـــا التى أنتمى اليها ، فلربما ساعد التغيير الذكى والفهم الصادق لهذه الأمور على اذكاء وعى طبقى يقود الى مستقبل أفضـــل ، وعلى ذلك فان منهجى التعليمى الصرف يدفعنى الى انتهاك القوانين التى سننتها فى بداية الكتاب ، اذ أننى لن أحكى عن نفسى الا القليل مما قد لا يحدث لألف « شـــو » أو لمليون « سميث » وربما يستنبط علماء النفس من تلك المـــادة غير المشوقة بعض الدلائل التى فاتتنى أدراكها .

ولكى أبعد الملل عن نفس القارىء سأروى عن أقـــاربى بعض الاقاصيص التى لابد أن تقرأ على أنها أدب قصصى عادى حيث أن عائلة « شو » الأيرلندية قد تكون أكثر امتاعا من عائلة « روبنسون » السويسرية ، كما أنها قد لا تقل من ناحية الافادة والتنوير عن هؤلاء الذين يملكون مقدرة الافادة والتنوير .

أما عن نفسى فان أعمالى كلها معروضة فى المكتبات وعلى خشبة المسرح ، لقد اعطيت ما أمكنى العطاء على امتداد حياة طويلة . قد لا أستطيع القول بأنه لم يمر فى حياتى يوم لم أسطر فيه سطرا ، الا أننى حاولت رغم ذلك أن أقترب بها من نموذج الكمال عند الرومان قدر ما أمكننى الاقتراب فى حـــدود قدرة وامكانيات البشر .

أيوت سانت لورنس

Ayot Saint Lawrence

١٥ يناير ١٩٣٩ روجع فى ١٩٤٧

(٣)

أمى وأقاربهـــــا

كانت أمى ابنة سيد ريفى • ولقد تولت عمة امها تنشئتها وتربيتها على شمائل وفضائل سيدات ذلك العصر • وأذكر منذ طفولتى أن تلك العمة كانت عجوزا محدودبة الظهر ، ولكنها كانت تتمتع بجمال فى قسمات وجهها • وبدا احديداب ظهرها طريفا ومناسبا للصورة التى تخيلتها عليها وهى صورة جنية خيره • ولو عرفت كم تأثرت بشخصيتها وسحرت بها لتركت لى كـــل ممتلكاتها • واعتقد الآن أنهم قد أخذونى اليها على أمل أن أجذب انتباهها فتفعل ذلك ، لكننى فشلت • ولقد حاولت عمتى أن تربى أمى بطريقة تؤهلها للحصول على زوج لائق ، مما قد يمكنها من ازالة تلك الشائنة التى علقت بنسبها وسلالتها • فبالرغم من أن نسبهـــا الى أبويها لم يكن مشـــكوكا فيه ، الا أن شرعية مولد جدها كان يكتنفها الكثير من الغموض ، ولقد استطاع هذا الجد تحت ستار اسم موظف يدعى « كالى » أن يكون ثروة عن طريق محل رهونات افتتحه فى حى من أفقر احياء « دبلن » وفى تلك الأثناء تمكن من مصاهرة عائلة ذات حسب ونسب بعد أن حصل على أحد المقاعد فى مجلس مدينة دبلن وأصبح ينتمى الى طبقة السادة •

ومع ذلك فقد احتفظ بحانوت الرهونات كما احتفظ الحانوت به ، وعليه فقد استقر رأى العمة « الن » على أن تجعل من أمى سيدة ذات شأن • وهكذا تميزت أمى بشجاعة وجلد لم يفارقاها حتى الممات وكانت المصائب والكوارث التى تكفى لسحق عشر نساء غير مدربات تتحطم وتتبدد وهى ترتطم بها كما تتحطم الأمواج وهى ترتطم بصخور الجرانيت • لكن طبيعة الاشياء التى حاولت العمة أن تغيرها استعادت وضعها ثم حطمت كل مشروعات العمة العجوز • عندما كبرت أمى تلقت دروسا فى الموسيقى على يد الموسيقار جوهان برنارلوجير Johann Bernhard Logier وتعلمت من الفرنسية مايمكنها من أن تقص بعض حكايات لافونتين La Fontaine بلهجة سليمة • ولقد كان اعتزازها بنفسها كبيرا لدرجة أنه كان من الممكن أن تقوم بجمع النفايات من عرض الطريق دون أن تفقد ايمانها الكامل بأنها سيدة متميزة • لكنها كانت لا تستطيع أن تدير منزلا بدخل صغير ، ولم يكن لديها أى فكرة عن قيمة المال • ولقد كرهت عمتها ونظرت الى كل ماتعلمته منها من دين ونظام على أنه عبودية وطغيان • وكان من نتيجة ذلك بالاضافة الى طبيعتها العطوف أن تركت أطفالها على سجيتهم فى حالة فوضى كاملة • ولقد تصادف أن كان أبى أيضا من النوع الذى لايؤمن مطلقا بالقسر • وهكذا كان كلا أبوى فى منتهى التساهل وعدم الاكتراث •

عندما بلغت أمى سن الزواج خرجت الى مجتمع دبلن علها

تجد زوجا مناسبا وكان من بين من التقت بهم جورج كارشو — رجل فى الاربعين من عمره احول العين لطيف المعشر تبهجه الانتقالة المفاجئة من النقيض الى النقيض سواء أكان ذلك فى الحدث أو الحديث ، هذا بالاضافة الى ميله الى الفكاهة التى كان من الممكن أن تجعل منه مستمعـــا واعيا متفهمـــا لأديب كتشارلز لامب Charles Lamb • كان أحد أفراد عائلة كبيرة تطلق على نفسها لقب « آل شو » وكثيرا ما كان يدعى الى بوشى بارك ، مقر سير روبرت شو رغم أن القرابة بينهما لم تكن مباشرة • ولم يكن فى صحبة جورج كارشو الأمى ما يضيرها اذ لم يطرأ على بال أحد أنه يملك من الجرأة أو المقدرة ما يمكنه من الاقدام على الزواج من أية امرأة ، حتى ولو فرض جزافا أن فى حوله وكبر سنه ما يستميل أنثى طيبة النشأة كالآنسة لوسيندا اليزابيث جيرلى Lucinda Elizabeth Gurly • وهذا ما دعا أقاربها التحدث عنه كشخص جدير بأن تتعرف عليه اجتماعيا على ألا تقيم معه علاقة خاصة • لكنهم نسوا أنها قد تقدم على الزواج من أى مغامر دون أن تدرى خطر ما هى مقدمة عليه ذلك لأنهـــا لم تجرب الافلاس ولم تعرف تماما ما يعنيه الزواج •

وحدثت مأساتها نتيجة ضغط خـــارجى ماكان لأحـــد أن يستطيع التنبؤ به فعلى حين غرة تزوج أبوها الأرمـــل للمرة الثانية لكنه تزوج هذه المرة من فتاة معدمة : ابنة صديق قديم كان قد ضمن ديونه التى تسببت فى كارثة فيما بعد • ولم يرض

هذا الزواج عائلة زوجته الأولى وخصوصا أخو زوجته وهو أحد أعيان مقاطعة كيلكنى ، وكان أبو والدتى مدينا له ببعض المال ولهذا أخفى عنه نية زواجه للمرة الثانية •

ولسوء الحظ أحاطت أمى خالها بكل براءة بسر زواج أبى وكان من نتيجة ذلك أن قبض على جدى عندما خرج صباح اليوم المحدد للزواج كى يشترى زوجا من القفازات لهذه المناسبة • ولا يستطيع المرء أن يلومه على غضبه ولكن هذا الغضب الثائر تعدى حدود المعقول اذ اعتقد أن أمى قد خانته عن عمد كى توقف زواجه بالقبض عليه • وكان على أمى التى كانت فى زيارة بعض الأقارب فى دبلن أن تختار بين أمرين : اما أن تعود الى بيت زوجة أبيها وأبيها الثائرة عليها أو الى بيت عمتها التى قاست فيه الكثير من العبودية والاستبداد •

وفى هذا الوقت أوعز شيطان ما ــ ربما بعثته الأقدار كى أجىء أنا الى هذا العالم ــ الى أبى أن يتزوج الآنسة بيسى جيرلى Bessie Gurly التى تشبثت بهذا الأمــل وكانت قد علمت أن له معاشا يبلغ الستين جنيها فى السنة وبدا لها هذا المبلغ كبيرا وأكثر من كاف ، ذلك لأنها لم تكن تعرف شيئا عما تتكلفه ادارة بيت ، ولم يكن يسمح لها بأكثر من مصروف الجيب • ومن ثم فقد أعلنت خطبتها بهدوء وعدم اكتراث •

وعندما استحال على أهلها أن يبصروها بخطورة الموقف

المالى أو أن يقنعوها بالعدول عن الخطبة على هذا الأســـاس وجدوا أنه لابد من اقناعها بطريقة أخرى • وبنـــاء عليه فقد أخبروها بأن جورج كارشو انسان سكير مدمن ، لكنها رفضت باستياء أن تصدقهم مذكرة اياهم أنهم لم يعترضوا عليه بتاتا من قبل • وعندما صمموا على رأيهم ذهبت اليه مباشرة وسألته عن مدى ما يزعمون • وكان أن أكد لها بكل وقار أنه عن اقتناع لم يشرب الخمر طوال حياته • وصـــدقته ثم تزوجته • لكن الحقيقة هى ما قالوه عنه : كان مدمن خمر •

ودون أن أحاول الدفاع عن أبى لتورطه فى هذه الأكذوبة ، يجب على أن أوضح أنه كان مقتنعـــا من ناحية المبدأ بضرورة الامتناع عن شرب الخمر • لكن هذا الاقتناع ، الذى لم يستطع لتعاسته أن يضعه موضع التنفيذ ، كان نتيجة الرعب الصادر عن تجربته الشخصية كانسان أصابه داء الادمان •

وأستطيع الآن فقط أن أتصور مقدار العذاب الذى عانته أمى وهى تحيا حياة ضنك فى كنف زوج سكير • لقد أخبرتنى أحد الأيام أنها فتحت دولاب عريسها أثناء قضائهما شهر العسل فى ليفربول فوجدته مليئا بزجاجات خمر فارغة • ومن هول الصدمة أسرعت الى الميناء فى طلب وظيفة كرئيسة للخدم على احدى السفن حتى تستطيع مغادرة البلدة كلها • ولكن حدث أن تحرش بها فى غلظة مجموعة من عمال الميناء مما جعلها تسرع بالعودة الى المنزل •

لقد سجلت من قبل كيف اصطحبنى أبى ذات يوم للنزهة ثم حاول أن يلقى بى فى ماء القناة • ورغم أنه كان يتظاهر بمداعبتى الا أنه كاد أن يغرقنى بالفعل • وعندما عدت قلت لأمى وكأنى أكشف لها عن سر رهيب : « ماما ، أعتقد أن أبى مخمور » •

فأجابت : « ومتى لا يكون كذلك ؟ » •

لا أقول اننى منذ تلك اللحظة قد فقدت ايمانى بكل الأشياء ، فتلك مبالغة بلاغية • لكنى أقول ان ما اعترانى من تغير نفسى كان مفاجئا وعنيفا ، فبعد أن كنت أومن بكل براءة الأطفال أن أبى مثل للمقدرة والكمال ، اذ بى أكتشف انه سكير منافق • ولقد ترك ذلك فى نفسى أثرا من الصعب أن يمحى •

وبعد زواج أمى قطعت عمتها فى قسوة كل صلة بهـا غير مكترثة بى كطفل لطيف جذاب • ولم يزد ما أعطته الأمى عن مجرد مجموعة من الكمبيالات التى وقعها جدى بعد أن اقترض من العمة بعض حاجته من المال • وبلغت السذاجة بأمى أن أعطت الكمبيالات لأبيها وسألته عما يجب أن تفعله بها • وجاءها الجواب سريعا : لقد القى بها فى النار • وعلى أية حال لم يكن هذا الفعل بأمر ذى بال اذ لم يكن فى نيته دفع قيمتها • لكنه لم يقف عند هذا الحد بل حاول أن يستخدم سلطته فى تنفيذ وصية جدها (صاحب محل الرهونات) كى يحرمها من الميراث المقدر للاحفاد • ورغم أن محامى عائلة جيرلى استطاع أن يستخلص لها أربعين جنيها سنويا وذلك بمعارضته المطلقة لما كان ينتويه الأب من شر ، الا أن هذا

الحدث كان قد أوصل أمى الى حد الاقتناع بأن أباها رجل حقود وبلا ضمير فيما يختص بأمور المال •

وبعد ذلك يجىء دور أخيها : خالى وولتر Walter وهو انسان عربيد أساء اليها ذات مرة بمنتهى القسوة والوحشية فى لحظة من لحظات الهياج والغضب • ولقد سار غير مبال على نهج أبيه فى مسائل المال والميراث • وهكذا لم تجد أمى فى كل من حولها الا خيبة الأمل والخيانة والتسلط •

ولم تتأثر بتاتا بكل ذلك بل ولم تشك قط • لم تحاول أن تثأر وتنتقم ، ولم تفقد سيطرتها على نفسها أو شعورها بالاستعلاء فوق الضغينة والغضب • لكن هذا لا يعنى أنها كانت ضعيفة خنوعة • فاذا كانت لم تنتقم بتاتا فهى لم تصفح أبدا • لم يكن فى حياتها منازعات وبالتالى لم تكن هناك مصالحات • اذا أخطأ أحد فى حقها وضعته فى مصاف الخطائين المسيئين وتحملته ما وسعها التحمل ، فاذا ما أثارها أكثر من اللازم قاطعته نهائيا بحيث يصبح من المستحيل عليه أن يستعيد مكانته لديها • لقد قلت وأنا أسن مبادىء للثوار : « حذار ممن لا يرد الاساءة » • ولقد تعلمت من أمى أن الغضب السريع أقل تأثيرا وأيلاما من الغضب الناتج عن التفكير والتروى •

لكنها رغم كل الظروف لم تكن تكره أطفالها • لم تكن تكره أحدا ولم تكن أيضا تحب أحدا • ولم تثر عاطفة الأمومة فيها

الا عندما ماتت أختى الصغرى وهى فى العشرين من عمرها وحتى حينذاك لم يكن حزنها ملحوظا • ولم تكترث أمى بنا كثيرا اذ لم تكن تعرف أن الأمومة علم وأن طعام وشراب الأطفال شيئان يستحقان الاهتمام • لقد تركت هذه المهمة لخادمات جاهلات لم تكن مرتباتهن لتزيد عن ثمانية جنيهات فى العام • ولم تدرك أمى قيمة ما تعلمته فى صغرها ولربما اعتبرته مجرد موهبة طبيعية ، لكنها لم تنس قط كم كانت تلك الأيام قاسية • وكان علينا أن نرعى أنفسنا بأنفسنا دون مساعدة أو ارشاد • ولقد واجهنا مصاعب الحياة واصطدمنا بها مستخلصين منها كل ما يمكن استخلاصه من عبر وعظات ولم يكن ذلك بالهين اليسير • وعلى العموم لقد اعتبرت أمى هذا الأسلوب فى التربية أسهل وأرحم بكثير من الأسلوب الذى اتبعته عمتها : ولقد كان فى الواقع كذلك وان لم يكن الى الحد الذى تصورته أمى ، اذ أن اطلاق سراح عجل صغير كى يرتع حيثما شاء محطما ماشاء ليس بالبديل الوحيد لربطه نخسه بمهاز • وباختصار ومن وجهة النظر العلمية للعاملين فى مجال الاصلاح الحديث ، لم تكن أمى أما أو زوجة ، بل كانت ملخوقا بوهيميا فوضويا رغم ما يبدو عليها من كياسة فى الطبع والسلوك •

كان أبى مفلسا وفاشلا ولم يكن باستطاعته أن يقوم بأى شىء يثير انتباه أمى ، كما أنه لم يتمكن من الاقلاع عن عادته التعسة المزرية فى ادمان الخمر (أقلع فى نهاية الأمر) حتى أنه

لم يعد هناك أمل فى تحسن العلاقة بينهما الى ما هو أفضل • ولولا شىء من الخيال ، والمثالية وسحر الموسيقى وجمال البحر ومنظر الغروب بالاضافة الى ما كنا نتمتع به من طيبة ورقة — لولا كل هذا لأصبح من العسير أن نتصور مقدار ما كنا سننحدر اليه من همجية كافرة بكل ما هو طيب فى طبيعة البشر •

ولقد وجدت أمى فى الموسيقى طريق الخلاص • كان لها صوت من طبقة السبرانو المعتدل الارتفاع ذو نبرة صافية فى نقاء غير عادى • ولتحافظ على نقاء صوتها وصقله بدأت تدرس على يد الموسيقى « جورج جون فاندالبرلى » الذى ذاع صيته فى دبلن كقائد للأوركسترا ومنظم لحفلات الكونشرتو وأستاذ غناء يتميز بالاصالة المبدعة • لقد اعتمد فى حفلاته على الهواة الذين دربهم بنفسه مما أثار عليه حفيظة منافسيه الذين هاجمهم بدوره موجها اليهم تهمة خنق الأصوات الجميلة ، ولقد كان هـذا فى الواقع هو ما يفعلونه فى أغلب الحالات • ولقد امتد نقده حتى شمل الأطباء • ومما أثار دهشتنا أنه كان يتناول الخبز الأسمر بدلا من الخبز الأبيض وكان ينام ونافذة الحجرة مفتوحة • ولقد أخذت عنه هاتين العادتين وما زلت أمارسها حتى الآن • وكان من نتيجة انتشار نفوذه فى بيتنا ، وقد أصبح أخيرا فردا من أفراده ، ان تولد فى نفسى شك فى كل ما هو أكاديمى تقليدى وما زال هذا الشك يعترينى حتى الآن •

ويلاحظ الذين قرأوا مسرحيتى **زواج غيرموفق** Misalliance

والتى كان للمحب فيها ثلاثة آباء ، أنه كان لى أنا أيضا أب طبيعى وآخران ثانويان ولقد كان ثلاثتهم مجالا لدراستى • وكان من شأن ذلك أن يوسع من أفق نظرتى للأشياء • وينبغى على الآباء أن يأخذوا فى اعتبارهم أنه كلما كثرت الشخصيات الثانوية البديلة فى حياة الابناء سواء كان ذلك فى المدرسة أو فى أى مكان آخر كلما تفتحت مداركهم واتسعت آفاقهم وعليهم أن يدركوا أيضا أنه بالرغم من أن فساد الأبناء قد يرجع فى غالبية الأحيان الى فساد الآباء طبيعين كانوا أو ثانويين ، الا أن الآباء الطبيعيين قد يكونون أكثرهم فسادا — وعشرة فى المائة منهم فاسدون بالفعل •

ثم يأتى دور خالى وولتر Walter الذى كان يعمل جراحا أثناء صباه على ظهر السفينة « اينمان » وكان يزورنا فى فترة ما بين الرحلات • لقد تعلم فى كلية كلكنى : Kilkenny التى كانت تعتبر فى زمنه بمثابة « ايتون » أيرلنده • كان أصغر طلبة الكلية حجما وكان من السهل عليه أن يخرج متسللا من تحت البوابة الرئيسية وهذا ما دعى بعض زملائه من الطلبة الكبار الى تكليفه بالخروج ليلا كى يرتب لهم مواعيد لقاء مع بعض النساء الساقطات • وكانوا يكافئونه على ذلك باعطائه من الويسكى ما يكفيه لكى يفقد وعيه تماما • وبهذه المناسبة أقول ان خالى كان يدهش ويرتعد لمجرد التفكير فى العلاقات الجنسية الشاذة التى كانت تتم بين جدران المدارس الانجليزية العامة

وكان يرى أن وجود نساء على مقربة من المدارس أفضل بكثير من هذا الانحراف • وكان عليه ان ينسحب من كلية « ترينتى » بدبلن حتى يتم شفاؤه مما ألم به نتيجة انغماسه فى الدعارة • كان أبوه دائما فى حـــالة ضيق مادى يسبب ضمـــانه لديون أصدقائه ورهنه لبعض ممتلكاته ، لذا كان على خالى ألا يأمل كثيرا فى مساعدة أبيه • ومن ثم فقد أهل نفسه للعمل كجراح وبعدها استطاع أن يحصل على عمل على ظهر السفينة « اينمان » • لقـــد استطاع أن يدرس وينجح بسهولة وكان من الواضح أنه طبيب مدرب وكفء •

كان خالى مرحا يحب الفكاهة اذ أنه مثل أمى ــ رغم ما ينقصه من كبريائها واعتزازها بنفسها ــ كان يتمتع بحيوية وشباب لم يتأثر كثيرا بنزواته المنحرفة • كان فاحش الحديث غزير الدنس ، ولم أكن أكن له الكثير من الاحترام حتى وأنا صغير • ولقد أضاف الى الاناشيد التى تعلمتها من أمى بعض الخماسيات الفكاهية البذيئة • كانت روحه المعنوية مرتفعة دائما ورغم أن مرحه كان شرسا معيبا لدرجة الانحلال ، الا أن أسلوبه كان يقترب فى جزالته من أسلوب الكتاب المقدس وفى خصوبته من أسلوب شكسبير • ولتشبعه بأسلوب الانجيل كان كثيرا ما يستخدم أقوال المسيح فى أحاديثه بطريقة هزلية مضحكة • وكان ينظر الى روايات انتونى ترولوب Anthony Trollope على أنها الوحيدة التى تستحق القراءة (وكانت روايات ترولوب

فى تلك الايام تعتبر جريئة فى تعرضهـا للكنيسة) • كمـا أن الاوبرا المفضلة لديه كانت أوبرا فرا دياڤلوا لأوبر Auber • وكان من الممكن لو نميت مواهبه فنيا فى طفولته أن يصبح رجلا متسما بالكثير من سمو الاحاسيس ، ولربما استطاع أن يفعل شيئا فى مجال الآدب • وبما أن هذا لم يحدث فقد غدا ساخرا متحررا ، حيث أنه لم يجد ولم يوجه الى ما هو أفضل مما جبل عليه • ورغم افراطه فى الملذات التى كان ينغمس فيها من حين الى حين كلما رست السفينة على شاطىء ، كان خالى رجلا صحيح الجسم سليم البنية • واستمر على تلك الحال حتى تزوج فى أمريكا من أرملة انجليزية ثم استمر كطبيب ممارس فى ليتون بمقاطعة اسكس والتى أصبحت فيما بعد أحد الاحياء المطلة على غابة ابنج Epping • ولقد حاولت زوجته أن تجعله يغير من سلوكه بحيث يصبح متمشيا مع السلوك العام : أن يذهب الى الكنيسة ، وأن يكف عن السخرية والحط من شأن الآخرين ، أو على الأقل أن يحد من عبثه بكل ما هو مقدس • ولم يسفر احتجاجها عن نتيجة سوى أن جعله يمعن فى دنسه وتجديفه • ورغم ذلك فقد احتفظ بشخصيته فى مجتمع ليتون ذلك لأنه كان خفيف الظل ميسور الحال •

ولم يستمر الحال هكذا مدة طويلة ، اذ سرعان ما امتدت لندن شرقا وابتلعت ليتون ، وأزيلت منازل القرية التى كان يسكنها مرضاه وحلت محلها صفوف من المنازل المبنية بالطوب

الأحمر يسكنها كتبة يرتدون قبعات عالية ويعيشون على دخل أسبوعى يبلغ الخمسة عشر شلنا • وحطم التغيير خالى فماتت زوجته فى يأس واشمئزاز تاركة كل أملاكها لأقارب زوجها السابق، وبيع حصان خالى ورهنت ساعته ، وتدهور به الحال الى حد أن أصبحت ملابسه رثة مهلهلة • وعندما مات وخلف لى تركته وجدت أن أجر الخادم الوحيد الذى لازمه خلال كل ما حدث له لم يدفع منذ سبعة عشر عاما ، وكان أبوه قد رهن أملاكه كلها منذ زمن طويل • وما كنت الا نابذا هذا الميراث لو آل الى قبل ذلك بعدة سنين • لكننى كنت فى الواقع قادرا على أن أسدد كل الرهونات وأن أعيد بناء المنازل المهدمة وأن أعول الاقارب الفقراء وأن أسترد كل ما ضاع من ممتلكات ثم أخضعها لنظام المجلس البلدى بعد أن حصلت من (برلمان) أير Eire على قرار يمكننى أنا وغيرى من أن نفعل ذلك •

غالبا ما يحدث رد فعل عند أبناء البوهيميين الفوضويين ضد تربيتهم لدرجة أن يصبحوا أشد تمسكا بالتقاليد • والسؤال الصعب الذى يواجه الآباء فى تربية أبنائهم هو : متى والى أى حد يمكن ترك الأطفال فى زفق وأمان كى يرعوا أنفسهم بأنفسهم ، والى أى حد يمكن ارشادهم وتوجيه الأوامر اليهم • لقد قال الأمير بيتر كربتكن وهو مفكر فطن ذكى : « دع الأطفال وشأنهم • تفرج فقط » ولو أعطت أمى هذه المسألة أقل قدر من تفكيرها لقالت : « افعل ما تشاء ودع الأطفال بدورهم

يفعلون ما يشاءون » . لكن أمثال تلك القواعد الثابتة ليس لها وجود ، فالخط الفاصل بين الوصاية والتفكير الحر يختلف من شخص لآخر ، حتى فى نفس الاسرة قد لا يستطيع طفل أن يفعل شيئا على الاطلاق دون توجيه حتى يبلغ سن الرشد وعندها لا يفعل الا ما يفعله الآخرون ، وقد تصعب السيطرة على اخته أو أخيه الى الحد الذى قد يخلق من أيهما مجرما أو عبقريا حر الارادة والفكر .

ومن الصعب قياس الدرجات المختلفة بين هذين الحدين بصورة قاطعة ، اذ أنه من المستحيل كبح جماح طفل الى الحد الذى تتلاشى فيه ارادته تلاشيا كليا : لا يستطيع أى أب مهما كانت طاقته أن يفعل ذلك . الا أن ترك الحرية الكاملة للطفل فى كل مراحل عمره قد تدفعه الى ابتلاع كل أعواد الثقاب أو أشعال النار فى البيت وأهله ، كما قد تدفعه الى رفض الدراسة وتحصيل العلم . وانه لمن الخير على أية حال أن يفوض أمر تعليم الطفل الى مدرسة رسمية — كما حدث فى حالة فولتير الذى فوض أمره الى الجوزويت — على أن يمنح من الحرية مايمكنه من التفاعل بمقدرته الذاتية مع ما هو مطلوب منه . وهذا أفضل بكثير من المخاطرة بتركه كى يتعلم فى السادسة عشرة من عمره ما كان باستطاعته أن يتعلمه وبكل سهولة وهو فى السادسة .

وعلى أية حال يجب أن يحسب للمخاطرة حسابها . أنه لا يمكن اعداد الطفل فى أوروبا لمرتبة أعلى من مرتبة البابوية .

لكن ربما يوجه الى مربى الطفل سؤال : « أى نوع من أنواع البابوات ؟ جريجورى العظيم أو الاسكندر بورجيا ؟ بيوس التاسع أو ليو التاسع عشر ؟ » — وربما يكون الهدف هو تنشئة مواطن مثقف عظيم • وحتى فى هذه الحالة يجب أن توضع المصادفات فى الحسبان فقد ينتج عن ذلك خلق شخص يتميز بما كان يتميز به سيدنى ويب Sidney Webb أو باكونين Bakunin من صفات • ولم يسأل أبواى ولا أساتذتى أنفسهم أمثال هذه الاسئلة ، ولولا حظى النادر فى كسب المال كمؤلف مسرحى موهوب لانتهى بى الأمر الى أن أصبح مجرد لص أو متسول • لقد علمت نفسى فيما بعد الكثير مما كان يجب على أن أتعلمه فى طفولتى كما نبذت الكثير أيضا مما تعلمته فى تلك الآونة • وعلى ذلك فلا يسعنى الا أن أكرر القول بأنه من الصعب ايجاد حد فاصل بين الوصاية والتفكير الحر • وكقاعدة أرى أن المسألة تختلف من شخص لآخر •

ومع ذلك فاننى أرى أنه من الواجب أن يكون هناك قانون متبع فى المدارس بين أفراد العائلات الكبيرة ، وهذا يعقد المشكلة ويجعل من الصعب على أن أجد لها حلا حاسما • وهذه المشكلة تثير حاليا أزمة فى المدارس أكثر مما تثيره بين الآباء فى المنازل • وأمامى وأنا أكتب الآن خطاب من فتاة صغيرة متفوقة تدرس باحدى مدارس الراهبات بأيرلندة ، وهى تعطينى بكل فخر قائمة بالمقررات التى درستها وهى تمر بتسعة فصول دراسية

متتالية : وهى مقررات قد يستغرق تحصيل كل منها عدة شهور من العمل المتواصل حتى ولو كان الدارس فى عبقرية نيوتن Newton صغير • ولا تعليق لى على مثل هذا المنهج • ومع ذلك يجب ألا يفهم من هذا أننى أناصر هؤلاء الذين يقفون ضد ما يسمى بالضغط التعليمى المبكر • لقد درس جون ستيوارت ميل John Stuart Mill فى طفولته اللغات الميتة على يد والده جيمس ميل ، مما دعا وليم موريس الى أن يتهم جيمس بالوحشية لكننى لا أجزم بصحة هذا الاتهام بل أن جون نفسه لا يستطيع أن يؤكده • أنا لا أدافع عن الادعاء الشائع فى المدارس الثانوية الأهلية والذى يقول بأن الانسان يصبح متعلما عندما يتمكن من قراءة اللغة اللاتينية وحل المعادلات المركبة ، اذ أنه من الواضح أنه قد يظل رغم ذلك جاهلا كمواطن وبطريقة شائنة • والطالب الذى يدفع بهذا الاسلوب الى الحصول على درجة جامعية قد لا يعود فى أغلب الحالات الى النظر الى صفحة واحدة من صفحات اللغة اللاتينية دون كراهية أو أشمئزاز ، وقد لا يستخدم فى دفاتر حساباته الا أبسط أنواع الحساب • ومع ذلك تواجهنى حقيقة صريحة وهى أن أغلبنا (وأنا لا أعفى نفسى) لا يتذكر الا التصاريف والاوزان والامثلة التى تعلمناها فى طفولتنا مهما تفلسفنا فى مستقبل حياتنا • وما زلت أتذكر وأنا فى الثانية والتسعين من عمرى جدول الضرب وجداول البنسات التى تعلمتها قبل السادسة ، وحالات الاعراب والتصاريف

اللاتينية التى تعلمتها قبل العاشرة بينما ــ وقد بلغت مرحلة النضج ــ باءت كل مجهوداتى بالفشل عندما حاولت أن أحفظ أمثله مشابهة لها فى اللغات الحديثة ، مما يدفعنى الى أن أنصح الدارسين لتلك اللغات بألا يضيعوا وقتهم فى حفظ التصاريف (تصاريف اللغة الاسبانية على سبيل المثال) • وأرى أن يستخدموا الافعال الشاذة كما لو كانت قياسية وقد يسخر الاسبان من ذلك لكنهم سيفهمون ــ وهذا هو المطلوب • وعندما يقول طفل انجليزى : « ذهبت » و « فكرت » مخطئا فى تصريف الفعل فانه يكون مفهوما تماما كما لو صرف الفعل بالطريقة السليمة • ان الاسلوب العامى لا يقل فى أهميته عن أسلوب ميلتون Milton بالاضافة الى أنه أكثر اختصارا • وانه لما يضيع سنينا من حياتنا أن نولع بالبحث فى مستويات الصواب والخطأ وأن نضع لها من القوانين ما يصم كل ابتعاد عن الصواب بالقصور الذى لايجب السكوت عليه ، ومهما اتسعت أمامنا الطرق وتشعبت فاننا نرفض أن نتحرك قبل أن يقال لنا هذا صواب وهذا خطأ • وفى أغلب الحالات يكون الصواب هو الاصعب ويكون الخطأ هو الاقرب والاسهل •

(٤)

عار وادعاء مؤلم
سر احتفظت به لمدة ثمانين عاما

والآن أعترف بحادثة وقعت أيام صباى ــ حادثة كنت شديد النفور منها لدرجة أننى احتفظت بها سرا لمدة ثمانين عاما ولم أخبر بها أى مخلوق ولا حتى زوجتى ، اذ كانت تثير فى نفسى من الآلم والخزى ما كان يثيره محل طلاء الأخذية فى نفس ديكنز Dickens • ولقد كان من الممكن أن يسقط ديكنز تلك الحادثة الصغيرة من حسبانه على أنها احســاس بالطبقية لا داعى له . وهذا ما يدعونى أنا نفسى الى أن أتخلص من سرى البغيض وأسقطه من الحسبان • لكنه كان فى الواقع مفيدا • وهو يفسر رفضى لما اتفق عليه من ارســال المتفوقين من أبناء الطبقة العاملة الى المدارس الثانوية الأهلية ثم تجنيدهم بعد ذلك لخدمة الطبقة الرأسمالية بعد أن يتم تشبعهم تماما بوجهة النظر الرأسمالية حيال المجتمع • والذى يشق طريقه ويرقى بهذا الاسلوب غالبا ما يصبح أشد الناس رجعية • وأرى فى هذا المجال أنه من الواجب أن يرسل أبناء الطبقة العاملة الى مدارس ثانوية تقتصر فقط على طبقتهم ، على أن يكون اتصالهم بصغار طلبة ايتون وهارفى ورجبى مقصورا على ما ينشب بينهم

من مشاجرات فى الشوارع • ويجب أن تكون تقاليد مدارس الطبقة العاملة محلا للتباهى والفخر الذى تتميز به أى مدرسة من مدارس الطبقة الرأسمالية ، كما يجب أن تتساوى معها أو تتفوق عليها فيما تمنحه من مؤهلات دراسية • اننى أصدر هذا القرار على أساس تجربة خضتها وأعترف بها الآن لأول مرة •

فى الفترة التى سبقت دخولى المدرسة بعد أن تعلمت القراءة والكتابة على يد مربية علمتنى بكفاءة عالية ، تلقيت أول دروسى فى اللاتينية فى منزل عمى وليم جورج كارول حيث كنت أجلس مع ولديه وأتعلم الاعراب والتصاريف والافعال الشاذة ، ولم أكن لأجد فى ذلك صعوبة تذكر مما دفع بى سريعا الى رأس قائمة المتفوقين فى اللغة اللاتينية عندما التحقت بالمدرسة التى كان يطلق عليها فى ذلك الحين مدرسة الطائفة الويسلية (وتعرف الآ باسم كلية ويسلى) •

ولم أستفد من المقررات المدرسية شيئا على وجه الاطلاق • بل على العكس انتهى بى الأمر الى أن أنسى الكثير مما تعلمته فى بيت عمى رغم أن تلك المدرسة التى يقال باستعلاء أنها تعد طلبتها للجامعة لم تكن تولى اهتماما يذكر لأية مادة سوى اللاتينية والاغريقية • هذا رغم ما تدعيه من القيام بتدريس الرياضيات والتاريخ الانجليزى (وأغلب ما يدرس منه مزور وتافه) ، وجزء شكلى فى الجغرافيا التى لم أعد أذكر منها شيئا •

كانت الفصول واسعة جدا ولم يكن المدرسون مدربين تربويا ، اذ كان أغلبهم يتخذ من هذا العمل مجرد مصدر للرزق يتعيشون منه وهم يشقون طريقهم كى يصبحوا قساوسة ويسليين • لم يذكر لنا أحد من المدرسين كلمة واحدة عن معنى الرياضيات أو فائدتها وكل ما كان يطلب منا ببساطة هو أن نشرح كيف يمكن رسم المثلث المتساوى الساقين من تقاطع دائرتين وأن نستخدم فى الجمع حروف الهجاء بدلا من البنسات والشلنات • ولم يضف هذا الى معلوماتى شيئا ، بل زادنى جهلا بأن جعلنى أعتقد بأن « أ » و « ب » ما هما الا البيض والجبن وأما حرف «×» فلا مدلول له وكانت النتيجة الحتمية لذلك هى أن أعرض عن الجبر وأهمله كمجرد عبث لا طائل من ورائه • ولم أغير هذا الرأى الا بعد أن تجاوزت العشرين من عمرى عندما أقنعنى جراهام والاس ، وكارل بيرسون بأن ما تلقيته فى المدرسة كان مجرد تهريج لا صلة له بالرياضيات •

ولم تقلقنى الرياضيات كثيرا فقد كنت أتوقع النجاح دائما رغم اهمالى وكسلى الشديدين • ومن سوء الحظ أن أسئلة الامتحان لم تذكر المسائل ولكن أشارت فقط الى أرقامها فى الكتاب الذى لم أكن قد فتحته ، اذ كنت أكتفى بحلول المسائل التى تشرح فى الفصل • وعلى ذلك فقد رسبت وبطريقة مخزية •

فى مجال الآدب فقط استطاعت المدرسة أن تتنبأ بما سيصبح لى من شهرة وصيت • كنا نكتب العديد من المقالات ، ولقد

حصلت على درجة « امتياز » عن مقالة بليغة دبجتها فى وصف بحيرة ليفى Liffey وما يعلوها من مناظر ، ولكن لم يكن هناك أى اهتمام أو أية جائزة لهذه المـادة أو غيرها باستثناء اللاتينية •

لم تكن هناك سوى طريقة واحدة للتعليم : فبدلا من أن يسأل التلميذ ويجيب المدرس ويشرح ، كان المدرس هو الذى يوجه الاسئلة ، فاذا لم يستطع الطالب أن يعطى الاجابة المنصوص عليها فى الكتاب فانه يحصل على درجة « ضعيف » ثم يكفر عن حصوله على هذه الدرجة فى نهاية الاسبوع بأن يعاقب بالضرب بالعصا ست مرات على أطراف أصابعه • ولم يكن الضرب يؤلم كثير مما دعانى الى الاعتقاد بأن العقوبة الجسدية ــ كى تكون مؤثرة ــ لابد أن تكون قاسية •

وبعد عدة سنين من هذا السجن ــ الذى أبعدنى عن أبواى نصف اليوم على الأقل رغم أنه لم يزودنى بأى شىء ــ اختبرنى عمى فيما درست ووجد أننى لم أتعلم شيئا ، بل نسيت ما كان قد علمنيه • وبعدها لم أعد الى هذه المدرسة • أرسلنى أبواى الى مدرسـة خـاصـة فى جلاسـتول بـين كنجـزتون Kingstown ودوكى Dalkey ، لكن ذهابى اليها لم يطل اذ انتقلنا من دوكى عائدين الى دبلن •

وهنا تبدأ مأساة ادعائى الطبقى • لقد ذكرت فى مـكان

أخر من هذا الكتاب كيف شاركنا جورج جـــون فانداليير لى أمور معيشتنا ، وكيف كان قائدا موسيقيا فذا ومدرس غناء أصيل وجرىء ، هذا بالاضافة الى كونه مدرس أمى وزميلها • لم يكترث أبى أو أمى كثيرا بأمور تعليمى اذ كان يكفيهما أن أذهب الى المدرسة سواء تعلمت أم لم أتعلم • ورغم أن « لى » كان شديد الانشغال بالموسيقى الا أنه رأى أنه لابد من فعل شىء فقد بدا له بوضوح أننى لم أتعلم سوى أشياء كان من الافضل الا اتعلمها • وحدث أن تعرف على شخص يدعى بيتش Peach وكان مدرسا للرسم بالمدرسة المركزية النموذجية للبنين بشارع مارلبورو ، وهى مدرسة تبدو فى ظاهرها غير طائفية وغير خاضعة لنظام طبقى ، ولكنها كانت فى الواقع كاثوليكية الاتجاه والتعليم • وفى هذه المدرسة كان على التلاميذ من أبناء القادرين ماديا أن يدفعوا خمس شلنات دوريا ، وكانوا يعاقبون ضربا بالعصا فى حالة اخفاقهم • كانت المدرسة بناءا ضخما ذا جدران عالية لا يمكن تسلقها ، وكنت أرى أنه من الافضل أن يكتب على بوابتها : « أيها الداخل هنا اقطع كل أمل فى النجاة ، ذلك لانه كان من الصعب على أحد أبناء آل شو أن يتصور امكان دخول ابن سيد من سادة التجار البروتستانت واقطاعى من الطبقة الدنيا الى ما وراء هذه الأسوار كى يعيش مع أعداد غفيرة من أبناء الباعة الكاثوليك •

ولكن بيتش استطاع أن يقنع « لى » بأن الدراسة فى

تلك المدرسة دائما ما تسير بمهارة يعتد بها ويركن اليها ، هـذا بالاضافة الى أن المدارس الخاصة الاقل منها فى التكاليف قد بلغت من السوء ادنى مراحله • وهكذا ذهبت الى شارع مارلبور • وفى الحال فقدت كل ما يميزنى طبقيا واصبحت فتى منبوذا يأنف أى فتى بروتستانتى أن يتحدث اليه أو أن يلعب معه • ولم يكن الحال هكذا فيما وراء الأسوار ، اذ كانوا يعتبروننى داخل المدرسة مخلوقا متميزا • لم أكن اشارك الآخرين لعبهم فى أوقات اللعب ، بل كنت انضم الى المدرسين وهم يسيرون فى تحفظ جيئة وذهابا فى اثناء تنزههم •

ولم يستمر الحال طويلا على هذا المنوال•كنت فى الثالثة عشرة من عمرى (١٨٦٩) ، وكنت قد تحملت الدراسة من فبراير حتى سبتمبر وبعدها ولأول مرة قررت مصيرى بنفسى ورفضت أن أعود الى تلك المدرسة مهما كانت النتائج وكان أبى يشاركنى نفس الاحساس بالعار ولذا لم يصر على ذهابى وتركنى أشق الطريق الذى أختار • وعدت فى الوقت المناسب الى مدرسة بروتستانتية راقية • كانت فى شارع اينجر ويطلق عليها اسم « مدرسة دبلن الانجليزية الصباحية للعلوم والادارة » وقد أغلقت فى عام ١٨٧٨ وكانت أخر مدرسة التحق بها وقد تركتها عام ١٨٧١ لاصبح وأنا فى الخامسة عشرة كاتبا صغيرا بمكتب أملاك ينحصر عمله على الطبقة الراقية • كان المكتب مزدحما بطلاب يدفعون أجور تدريبهم وكان أغلبهم

من خريجى الجامعات ، ولذا فقد كانوا من ناحية الأصل فى مستوى لا يقل بأية حال عن مستوى أسرة شو وكانت أسماؤهم فى أثناء الحديث تسبق دائما بلقب « السيد » ، بينما كنت أنا مجرد « شو » .

بلغت قيمة ما أدفعه فى شارع أينجر أربعة جنيهات عن كل ثلاثة شهور من الدرس والتدريب ، علاوة على أربعة شلنات اضافية لمادة الرسم ، ولم يفكر ابواى فى دفع رسوم اضافية لاية مادة أخرى . ولم يكن مدرس الرسم يهتم بالتدريس أو بالمحافظة على النظام . أما عن درس الدين الذى كنا نحضره مرة كل أسبوع فلم نكن لنهتم به أو برجل الدين الذى كنا نعاكسه ونضايقه بشتى الوسائل . ولم يكن أى منا يحلم أن يأخذ الدين مأخذا جديا .

لقد كان من الممكن أن أتجنب الاحساس بالعار لو أنهم حدثونى عن مدرسة شارع مارلبورو على أنها مدرسة تجريبية نموذجية يلتحق بها أبناء صغار التجار — لا أبناء العامة الفقراء — سواء أكانوا كاثوليك أو بروتستانت ، ذلك لاننى كنت قد بدأت أشعر بالثورة على ما يتظاهر به آل شو من أدعاء طبقى . لقد كان الخياط الذى كان يحوك ثياب أبى يملك بيتا ريفيا فى دوكى ويختا فى دوكى سوند Dalkey Sound كما كان باستطاعته أن يرسل أبناءه الى مدارس اعدادية راقية وأن يلحقهم بالكليات ، وهم أكثر منى استعدادا وأفضل ملبسا .

ولقد كان يبدو لى وأنا فى الثانية عشرة والنصف من عمرى كما يبدو لى الآن وأنا فى التسعين أنه من الغباء أن نضع هذا الخياط فى مرتبة اجتمـاعية أقل من مرتبة أبى المفلس الذى لم يكن باستطاعته أن يدفع الرسوم المدرسية بانتظام • لقد كنت فتى ملحدا وبعيدا كل البعد عن التعصب البروستانتى • وكنت أعلن ذلك بفخر بعد أن نبذت الصلاة على أنها عمل لا يتفق مع المنطق • وكان نشاط أمى الموسيقى قد قضى على كل ما ترسب فى أعماقى من تحيز اجتماعى ضد الكاثوليك ، وكذلك على كل ما طبع فى ذهنى من اعتقاد بأنهم سوف يزجون جميعا بعد الموت فى نار جهنم • كنت فنيانيا أومن بالفكر الحر ، صريحا فى ميولى السـياسية ، ولم أكن متعصبا أو غير منصف ، بل على العكس كنت أتقبل وبلا حدود كل ما هو قائم على الحجة والمنطق •

ورغم ذلك كانت الحقيقة صارمة قاطعة : لن تختلط الطبقات• كان من الممكن بالطبع ــ فى حالة المساواة فى الدخل ــ أن يسقط الحاجز الطبقى وأن تتداخل طبقة فى أخرى عن طريق الزواج ، وذلك ما لم يحدث أيام صباى ، ولربما حدث فيما بعد فقط فى حالات أصحاب الدخول الضخمة • كنت أتناول الغذاء ذات يوم كضيف شرف فى منزل الفيكونت باور سكورت وهو من غلاة الارستقراطيين فى ايرلنده ، وكان ذلك بعد عدة سنين من تركى المدرسة النموذجية • وعندما غادرت ابنته الحفل مبكرا لتذهب الى

دبلن ، شرح لى الامر معتذرا : انها مدعوة فى نفس المساء الى حفل بمنزل السير جون أرنولد ، وهو من أغنى أغنياء تجار دبلن .

واعترتنى الدهشة فقد كان من المستحيل أيام صباى أن تتحدث فتاة بمثل هذه الارستقراطية الى صاحب متجر الا فيما يختص بأمور البيع والشراء ، أما أن تزوره ، وتحضر حفلا يقيمه فقد كان معناه أن تثير غضب ونقد الطبقة التى تنتمى اليها ، تماما كما حدث لى عندما التحقت بالمدرسة النموذجية معتقدا أنها مدرسة للعامة من فقراء الناس . ولم يقنعنى أحد بخطأ هذه الفكرة بل لم يحاول أحد أن يفسر لى شيئا على وجه الاطلاق . ومنذ ذلك الحين وأنا أحاول الاعتماد على نفسى فى تفسير ما غمض على .

لماذا ولدت فى المدرسة النموذجية احساسا بعار كاد يصل بى الى حد الهوس ؟ لقد قلت فى مكان آخر أن كراهيتى للقذارة والفقر وما يمثلانه من حيوانات بشرية لم تغرس فى اعماقى نتيجة التحاقى بالمدرسة النموذجية فقد كان الاولاد هناك لا يقلون عنى شيئا فى مأكلهم وملبسهم . لكنى اكتسبت هذا الاحساس من الاحياء القذرة التى كنت أذهب اليها فى صحبة مربيتى لزيارة أصدقائها ، بينما كان المفروض عليها أن تتنزهنى فى الحدائق العامة . لقد كرهت هذه التجارب كراهية شديدة فلم تكن لتتفق وطبيعة الفنان الذى يقدس الصفاء والجمال . كان من الصعب أن أومن بأن تلك الاكواخ التى يقطنونها تصلح

لسكن الأدميين • ولقد كان من المستحيل على أن أتصور أننى أعيش فى احدها • ولقد بلغ هذا المنهج الفكرى ذروته بعد مايقرب من الخمسين عاما فى مسرحيتى مأجور باربرا Major Barbara التى يعلن فيها المليونير القديس أندرو أندر شافت Andrew Undershaft عن ايمانه بأن الفقر ليس العقاب الطبيعى المناسب للرذيلة ولكنه جريمة اجتماعية تفوق كل جرائم القتل والسرقة • وبعدها عندما أبدى صديقى عالم البكتيريا السير المروث رايت احدى ملاحظاته قائلا بطريقة عارضة « ان تأثير الاجراءات الصحية التى تتخذ للقضاء على المرض يرجع كلية الى الاحساس بالجمال » ، وافقته تماما وأكدت له أنه قد وفق الى اكتشاف يفوق فى أهميته أشهر ما قدمه من اسهام فى مجال التاريخ الطبيعى للميكروبات •

نقطة أخرى أقولها ليسجلها علماء النفس : بالرغم من أننى لمدة ثمانين عاما لم أستطع ذكر ما حدث لى فى شارع مارلبورو الا أننى قد شفيت تماما من ذلك الاحساس بالعار بعد أن كسرت حاجز الصمت المخجل ونفضته خارج قلبى وعقلى • لم يعد هناك أى أثر لخجلى الصبيانى ، لم يعد عقدة بل أصبح مجرد ذكرى يمكن ابعادها دون أدنى مشقة •

وهذا يوضح السبب فى فشل أو نجاح بعض حالات العلاج النفسى • فمن الممكن علاج الحالات المرضية الناتجة عن صدمات

أو جروح أما العقد الغريزية فلا علاج لهـا • وغالبا ما يتقبل الطفل أية قصة تقال مهما بلغت درجة سـخفها واسـتحالة حدوثها على أنها حقيقة لا جدال فيها اذا كان الراوى شخصا ينظر اليه الطفل على أنه معصوم من الخطأ (غالبـا ما يكون الأب) • وقد يتمسك الطفل بكل ما جاء بها دون تفكير حتى يجد نفسه ذات يوم مدفوعا لمناقشتها منطقيا ، وقد لا يحدث ذلك على وجه الاطلاق • لقد أخبرنى أبى وأنا طفل أن مستر هوتون ـ وقد زارنا أنذاك ـ يؤمن بالتوحيد • وسألت أبى عن ما هية التوحيد فأجابنى هازلا بأن الموحدين يعتقدون أن المسيح لم يصلب لكنه شوهد وهو يجرى أسفل السفح على الجانب الآخر من تل « كالفارى » Calvary وصدقت ما قاله أبى لمدة قاربت الثلاثين عاما •

لقد لازمتنى أخطاء طفولتى كما لا زمتنى مداعبات أبى فانا لا أكاد أنسى الخطأ الذى وقعت فيه فى أثناء دراستى لمادة الجبر عندما تعاملت مع (أ) و « ب » و « ن » و «×» على أنها سلع لا مدلولات • وعقول الناس مليئة بتلك الذكريات المترسبة من أيام طفولتهم • وربما يخيل اليهم ـ اذا ما حدث وتناسوا ذكريات وأخطاء طفولتهم أن الحقائق التى اتخذوها أساسا لتغيير منطقهم فى التعبير جديدة عليهم رغم أنها غالبا ما قد تكون واضحة أمامهم طوال حياتهم • ففى بداية حياتى عندما تخليت

عن ايمانى المتوارث بأن الكتاب المقدس هو الكلمة الموحاة لاله مجسم معصوم وعليم بكل شيء ، توصلت الى حل وسط وذلك بأن نزعت الصفة الاكليركية عن العهد القديم دون الجديد • وهكذا لم يتغير النص ، لكن ادراكى أنا هو الذى تغير • ورغم أنه من الواضح أن « يهوه » وثن قبلى يختلف اختلافا كبيرا عن المسيح « أبينا الذى فى السماء » ، الا أن المسيحيين حتى وقتنا هذا مازالوا يطلقون عبارة « الاله القادر » على كل من « يهوه » والمسيح دون أى تمييز •

قد يكون من الصعب على القراء الانجليز والاسكتلنديين والامريكيين أن يفهموا سر العار الذى كبته متألما فى أعماقى اثر التحاقى بالمدرسة النموذجية ذلك لان الكثيرين من وزراء الدولة وأمناء سرها حاليا تلقوا تعليمهم فى مدارس الطبقة العاملة • ولكن حيث يوجد الفقر تصاب ارادة التغيير بالشلل فمازال التمييز قائما بين طبقة السادة وطبقة العمال البدويين وكأنهما جنسان مختلفان كل الاختلاف • ولقد كان الحال أسوأ من ذلك فى أيرلنده عندما ولدت • كانت عربات القطار مقسمة الى درجات : أولى وثانية وثالثة • ولم يكن السادة — أو السيدات — يسافرون بالدرجة الثالثة حيث لا توجد وسائد وحيث كان المسافرون من الرجال يدخنون التبغ ويبصقون فى كل اتجاه • كانوا يرتدون سراويل من القطن المتين مربوطة عند الركبة وقمصانا بلا (ياقات) لم تغسل منذ زمن طويل لدرجة أن قد

تفوح رائحتها فتركم أنوف ركاب الدرجة الثانية ولم يكن أى منهم يستطيع القراءة أو الكتابة • وعلى ذلك فقد كانوا يعتبرون المدرسة النموذجية جامعة أرستقراطية للطبقة الوسطى بعيدة كل البعد عن مطامحهم الاجتماعية • ففى المدينة كانت مساكنهم منتشرة فى الاحياء القذرة ، وفى القرية كانوا يقتسمون مع حيواناتهم حجراتهم ذات الأرضية الطينية أو حظائر مهدمة • وكانت مدارسهم أن وجدت تعرف باسم الكتاتيب : كتاتيب أولاد الفقراء • وكانت نساؤهم يلبسن الاحذية والجوارب فى المناسبات الكبرى فقط عندما يذهبن الى سوق موسمية أو الى حفل لاقامة الشعائر الدينية • الا أنهم رغم ذلك كله كانوا بشرا ، يبلغون أسمى مراتب البشرية فى بعض الاحيان وينقسمون فيما بينهم وبمقاييسهم الى طبقات تتفاوت ما بين طبقة الاعيان وطبقة السوقة • أضف الى ذلك ادعاءاتهم الطبقية التى يعرفها أولئك الذين حاولوا اقامة مراكز لتدريب النساء فى القرية الانجليزية • لقد وجدوا أن نساء القرية الواحدة يرفضن التعامل مع بعضهم بعضا على أساس من المساواة الاجتماعية •

لكن يجب أن أكرر القول بأن تلك الصفات البشرية المشتركة لم تؤلف بين الطبقات • ان الكلب المدلل فى أى بيت كبير يألف الخدم تماما كما يألف سادتهم لكن الحيوانات البشرية تظل متنافرة متباعدة • لقد ولدت فى بيت به مطبخ وبهو (حجرة الاستقبال) وعلى الأقل خادمة واحدة دائمة تتقاضى ثمانية

جنيهات نقدا فى العام وتعيش وحدها فى الطابق السفلى من البيت •

وعلى ذلك فمازال التمييز الطبقى مفرطا رغم تقدم الفكر الاشتراكى • وفى البلدان التى تتكون أغلب طبقتها العاملة من السود أو السمر أو الصفر لا يوجد أى مظهر من مظاهر المساواة أو التشابة سواء أكان ذلك طبقيا أو انسانيا • وأعتقد أنه لا يمكن علاج مثل هذا الوضع عن طريق ارغام كل القطاعات على الخضوع للمؤسسات القديمة ، لكن العلاج يكمن أساسا فى مواجهة الواقع وهو انفصال تلك القطاعات وتباينها مع تقبل الفروق القائمة بين مدارس الطبقة العاملة ومدارس الطبقة ما دون المتوسطة ومدارس الاتونيين الطائفية وعربات جيم كرو وما الى ذلك من فروق واختلافات • كل ما فى الأمر هو أن تتغير النظرة الى أسلوب الترقى الاجتماعى ، فبدلا من أن يحاول المتفوقون من خريجى المدارس الفنية اقتحام معاقل الآتونيين عليهم أن يحتفظوا « بأنفسهم لأنفسهم » وألا يؤكدوا مساواتهم بل أفضليتهم كأجناس مختارة • وعلى ذلك فيجب على الزنجى ألا يعترض على عربة « جيم كرو » Jim Crow ، بل يصر على وجودها وعلى اقصاء « فقراء البيض » بعيدا عنها • كما يجب على اليهودى أن يواجه اعداء السامية ، كما واجه « جشوا » الكنعانيين لا كمخلوق مساو لهم لكن كمخلوق متميز اختارته السماء كى يسودهم وبهذا الأسلوب فقط يمكن لمختلف

الفئات أن تثبت وجودها وتؤكد تميزها • وهذا بدوره سيقود الى اتصال الطبقات وتداخلها كما حدث من قبل عندما وجدت الفيكونت والتاجر الايرلنديين يتبادلان الزيارات •

ومع أن مدرسة الرابطة المتحدة كانت قليلة التكاليف وبروتستانتية وراقية مثل مدرسة الويسليين الا أنها لم تدع أبدا المقدرة على اعداد الطالب للجامعة ولذلك حذفت علانية من منهجها كل المواد الكلاسيكية • لقد أنشئت أساسا للتلاميذ الذين كان أباؤهم مثل أبى لا يستطيعون ارسالهم الى كلية ترنيتى ، ولم يكن لهم من هدف الا تأهيل هؤلاء الابناء للعمل لا للتضلع فى العلم • وكان من بين تلامذة تلك المدرسة تليمذان أو ثلاثة على مستوى عال فى الرياضيات ، وغالبا ما كانوا يجلسون وحدهم خارج الفصل ليعلموا أنفسهم بأنفسهم ولم يكترث أحد من الاساتذة حتى بمجرد التظاهر بتعليمهم • كان الناظر دائما الجلوس فى حجرة مكتبه ، لا تربطه بالتلاميذ أية رابطة الا اذا أرسلوا اليه كى يعاقبهم • لم يكن متفرغا للمدرسة ، اذ كان يعد نفسه بسرعة كى يرسم قسا فى الكنيسة الاسقفية البروتستانتية ، حتى يصبح محقا فى نيل « عوض » اذا ما قام جلاد ستون بسحب الاعتراف بها • لم تكن طريقة التدريس بالمدرسة تختلف فى شىء عن طريقة التدريس بمدارس الويسليين •

وعلى أية حال فلم أعد نفس الشخص الذى كنته عند الويسليين • لقد حدث لى نفس التطور الطبيعى الذى وصفته فى مسرحيتى **الانسان والانسان الاسمى** Man and Superman كميلاد للعاطفة الاخلاقية • لم أحلم يوما فى مدرسة الويسليين بمذاكرة دروسى أو بقول الحقيقة للمدرس الذى اعتبره الجميع عدوا وجلادا • وفى المدرسة النموذجية بدأت أحاسب نفسى • وفى شارع « أينجر » أصبح الكذب لا يليق بكرامتى وأخلاقياتى كأول للطلبة وكنت أقتسم هذا المركز مع زميل لى فى الدراسة اسمه (دون Dunne) وقد صاحبنى منذ كنت طالبا بمدرسة الويسليين ، وكان يتسم بنضج مبكر وملفت للانظار لدرجة أنه وهو فى السادسة عشرة أو ما يقاربها كان يبدو فى تصرفه كما لو كان أحد الاساقفة • وعلى ذلك فقد كان على أن أحافظ على سمعتى بأن أؤدى واجبى الدراسى (وكان تافها) بكل أمانة • ولم أقف ضد النظام المدرسى سوى مرة وحدة وذلك عندما أثار أحد التلاميذ بعض الشغب فى أثناء الشرح ، وكان لابد من اكتشاف المسىء • وبدأ المدرس يسائلنا الواحد تلو الآخر ورفضت أن أجيب على أساس أنه لا يوجد قانون يجبر تلميذا على أدانة نفسه ، كما أن سؤال المدرس بهذه الطريقة يحرض التلاميذ على الكذب • ومر يوم أو يومان كان المتوقع خلالهما أن أعاقب عقابا مروعا لكن لم يحدث شىء على وجه الاطلاق ، كان الموقف جديدا بالنسبة لهيئة التدريس • وعندما لا تعرف

السلطات ماذا تفعل فانها فى الغالب ترجع الى ما سبق فعـــله فى مثل تلك الحالات • وبناء على ذلك فانهم لم يفعلوا شيئا حيث أنى خلقت لهم موقفا لم يسبق له مثيل وبعدها امتنع المدرسون عن وضع أنفسهم فى مثل تلك المواقف • وكان هـــذا أول اصلاح لى •

ولقد أثبت وجودى بطريقة أخرى فى المدرسة النموذجية حيث كانت دروس القراءة فى التاريخ تتجاهل أيرلنده وتمجد انجلترا وفى هذا المقام كنت دائما أحل أيرلنده محل انجلترا وكثيرا ما تساءل التلاميذ عما قد يحدث لى من جراء ذلك • لكن المدرس كان يبتسم ولا يقول شيئا • لقد كنت فى الواقع شابا فنيائيا فى ميولى السياسية •

ومن أحداث شارع « أينجر » أذكر أيضا ذلك اليوم الذى تركنا فيه وحدنا فى الفصل دون اشراف وذلك بسبب ما اصاب زوجة الناظر من مرض مفاجىء • لقد طلب منا المدرس قبل مغادرته الفصل أن نحافظ على الهدوء • ولم نحتفظ بهدوئنا لاكثر من لحظة ، بدأنا بعدها نصخب ونحطم كل ما يمكن تحطيمه فى الحجرة ولقد فعلت ما فعله الآخرون •

ولم أنسى هذه التجربة التى رأيتها تتكرر مرتين بعد عدة سنين بين الكبار مرة على ظهر باخرة بين مجموعة من ركاب الدرجة الأولى ومرة أخرى بين مجموعة من أعضـــاء الجمعية

الفابية (١) أثناء طربهم • ولم أدهش عنـدما رأيت نفس الشيء يظهر فى فيلم روسى تعليمى • ولقد علمتنى هذه التجربة الى أى حد يمكن أن تكون الحضارة البرجوازية ضعيفة وخادعة والى أى حد أيضا يمكن اقناعى ــ ولست بأعظم من شكسبير أو ديكنز ــ بامكانية اقامة حضارة ديمقراطية تحت شـعار الحرية ، دون ما أدنى حاجة الى قادة أو حكام موهوبين وذلك عن طريق الانتخاب الشامل لنكرات غير مؤهلين للحكم ــ حتى ولو كانوا على غرار نابليون ــ بواسطة جموع غير مثقفة سياسيا • وهذا لا يقود الى ارساء دعائم الديمقراطية بل على العكس من ذلك فانه يغرى باقامة دكتاتورية هتلرية •

---

(١) الجمعية الفابية جمعية تقدمية تدعو الى التدرج السلمـى نحو الاشتراكية . أقيمت عام ١٨٨٣ وكان من أبرز أعضائها ج.ب شو ، هـ.ج.ويلز .

(٥)

عملى أثنـــاء صبـــاى

فى احدى أوبرات جلبرتت Gilbert وسليفـــان Sullivan ، يحدثنا صبى يعمل فى أحد المكاتب عما كان يقوم به من تنظيف للنوافذ وكنس للأرض وتلميع لمقبض الباب الخارجى الكبير • لم أقم أنا نفسى بمثل هذا العمل الخشن ، بعد أن التحقت فى صباى بمكتب لاحدى شركات توكيل العقارات (كانت وكالة العقارات تعتبر مهنة فى أيرلندا) • ولم يكن من الممكن تكليفى بالقيام بأى عمل يدوى ، حيث أن عمى فردريك — رئيس مكتب تقييم الأراضى — كان قد قام بتقديمى ، وكان باستطـــاعته أن يعوق وكـــلاء الأملاك ويسبب لهم الكثير من المتـــاعب • وعلى ذلك فقد اعتبرت نفسى منذ البداية كـــاتبا مبتدئا • كنت أقوم بتنظيم الخطابات الواردة واحضارها عند الطلب ، مقابل ثمانية عشر جنيهـــا فى العام ، كمـــا كنت أحتفظ بنسخ من الخطابات الصادرة قبل ارسالها • أما عن الاعمـــال الحسابية فلم أقم بأى منها الا فيما يختص بشـــئون البريد • وكصبى ارساليات انحصر عملى فى نطاق (الجمرك) حيث كنت أذهب لختم صكوك الايجار • وهكذا لمست فظاظة المعاملة فى المـــكاتب الحـــكوميـــة كمـــا وصـــــفها ديـــكنز فى روايـــة

الصغيرة دوريت Little Dorrit • كان غذائى يقتصر على كعكة أشتريها ببنس واحد • وعند خروجى لشرائها — وكان هذا أمر لا مفر منه — كنت أيضا أشترى لموظفى المكتب ما يحتاجون اليه من طعام • ولم يكن الغذاء مهما فى ذلك الحين ، كان فى أغلب الاحيان مجرد وجبة خفيفة تتناول بسرعة • ولقد وقفت فى مستقبل حياتى ضد قدامى الممثلين الذين لم يكونوا يدركون أهمية وجبة الغذاء والذين لم يكن باستطاعتهم أن يفهموا لماذا توقف البروفات ويترك الممثلون عملهم عندما يحين موعد هذه الوجبة •

ومنذ أن أنتهت أيام دراستى ، لم يكن يقوم أحد بمساعدتى فى تفسير ما غمض على من أمور • كانوا يقولون لى كلما واجهت موقفا محيرا : « افعل ما فعله السابقون » • ولهذا يرجع الفضل فى معرفتى بانه من الضرورى وجود قوانين سياسية يمكن الرجوع اليها فى الفترات الطويلة التى تفصل ما بين حكم أصحاب المقدرة من الملوك والزعماء والدكتاتوريين ، عندما لا تستطيع السلطات أن تفكر فى شىء الا فى اتباع ما هو كائن ومألوف • كنت أملك مقدرة نادرة فى أن أتعلم واعمم من واقع التجربة ، ورغم ذلك لم أعلق عليها أية أهمية ، اذ لم أكن أدرك فى ذلك الحين انها نادرة • لم تثر فى وكالة الاراضى أدنى حماس أو اهتمام، لكنها ساعدت على أن يتجمع لدى رصيد كبير من الملاحظات التى أدركت أهميتها فيما بعد عندما بين لى هنرى

جورج دلالتها السياسية • لكنى ببساطة كرهت ذلك العمل ولم أكن أفكر فيه آنذاك من الناحية السياسية •

وبعد ما يقرب من عام ، خلت فجأة وظيفة رئيس الصيارفة الذى كان يقوم بأكثر أعمال المكتب أهمية ونشاطا ، اذ كان عليه أن يتولى القيام بأعمال المصارف (البنوك) فيما يختص بحسابات العملاء ، وكذلك استلام وصرف الشيكات يوميا ، هذا بالاضافة الى قيامه بكل أنواع الايجارات والفوائد والتأمين والدخول الخاصة • كان عملا يتسم بالحركة والحيوية ، لكنه فى نفس الوقت كان مركزا يتطلب الكثير من الثقة فى شخص القائم به • ولقد طلب منى بعد أن خلت الوظيفة فجأة أن أسد الفراغ بصورة مؤقتة حتى يتم تعيين صراف جديد ، ناضج السن بارز الشخصية • ولم أجد أية صعوبة فى القيام بهذا العمل ، ونجحت فى تحسين طريقتى فى الكتابة بخط جميل ، مقلدا الخط الدقيق المحكم لرئيس الصيارفة السابق ، زد على ذلك أن مضاعفة مرتبى (الآن ٢٤ جنيها) الى ٤٨ جنيها كانت دفعة كبيرة الى الأمام • ونتيجة لما أبديته من حماس وكفاءة ، تأجلت فكرة البحث عن صراف ناضج ، ثم أهملت تماما فيما بعد • ولقد أثبت أننى صراف ومحاسب دقيق أمين ، فبالرغم من أننى لم أكن أعرف بالضبط مقدار ما أحتفظ به فى جيبى من مصروف خاص ، الا أننى كنت على درجة كبيرة من الدقة فى كل ما يختص بحسابات المكتب • وهكذا تغير الحال : لم أعد مجرد صبى يعمل

فى مكتب ، بل أصبحت صرافا أول ، ثم رئيسا للصيارفة • وبذلك لم أصبح فقط مجرد ند لأى عضو من أعضـــاء الادارة ، بل أصبحت فى الواقع أنشطهم وأكثرهم تحملا للمسئولية ، لكنى لم اكن اؤمن بصلاحية استمرارى فى هــذا العمل ولم يحدث مرة أن قمت بعملية مصرفية دون أن أتمنى الا اعود الى القيام بمثلها مرة أخرى • الا اننى لم أكن مغامرا ، كما كنت خجولا قليل الحيلة فيما يتعلق بالامور الدنيوية (مع أننى أعتقد أن مظهرى كان يدل على العكس) ، ولذلك كنت أعود دائما الى القيام بعمل ما تمنيت الامتناع عنه •

لكن هذه الوظيفة ، من جهة أخرى ، ضمنت لى العمل مع مجموعة من الشباب المهذب ، الذين دفعوا اقساطا كبيرة كى يتعلموا مهنة محترمة ، الا أنهم لم يتلقوا الكثير مقابل نقــودهم باستثناء مقتطفات أوبرالية قصير كنت أقوم بتدريبهم علــى القائها • أذكر واقعة حدثت ذات مرة عندما جثم أحد الطلاب على حوض الغسيل ، وقد بدا وجة من فوق الستر الذى كــان يحجب الحــوض ــ كان يتخيــل نفســـه داخــل بــرج سجن مانريكو المظلم ــ ثم بدأ يغنى بكل مشاعره أغنية جنائزية حزينة ، اندمج فيها لدرجة أنه لم يلحظ أحد أصحاب المكتب الكبار ــ تشالز يونياك تونشند Charles Uniacke Townshend ــ وهو يدخــل فجــأة ثم يفر هاربا الى الدور العلوى بعد أن

اصابتـــه الدهـــشة وهـــو يحملق فى ذلك الوجه الذى يغنى فى حـــزن •

وهكذا كنت أتمتع فى المكتب بشىء من التسلية وبصـــحبة مجموعة من الجامعيين ، لكنى كنت اكره مركزى وعملى • وفى عام١٨٧٦ ، مباشرة بعدموت أختى اجنز فىجزيرة وايت ، تركت العمل واندفعت دون تردد الى قلب لندن ، منضما الى أمى التى كانت تعيش هناك •

قد أذكر أيضا شيئا أو شيئين فيما يختص بتلك الفترة من صباى • بعد وقت قصير من التحاقى بالمكتب ، اكتشف العاملون معى حقيقة مروعة وهى أننى بدلا من أن أكون بروتســـتانتيا مخلصا للكنيسة ـــ كما يجب أن يكون عليه شاب حظى بتقديم موظف كبير فى « مكتب التقييم » ـــ كنت فى الواقع مجرد انسان كافر لا يؤمن بالله • وكثيرا ما ثارت مناقشات كنت أخرج منها مسحوقا بقسوة ، ذلك لأننى كنت صغيرا وغير مثقف فى علم المنطق • قال لى همفرى لويد (أحد الذين يتدربون بالمكتب) : « ما فائدة النقاش اذا كنت لاتعرف ما هو القياس ؟ » وبحثت عن معنى كلمة القياس فى القاموس ، واكتشفت ـــ كما اكتشف البطل البرجوازى فى أحد أعمال موليير ـــ أننى ، طوال حياتى ودون أن أدرى ، كنت أصطنع القياس المنطقى فى كل ما يعن لى • وعندما وصل الامر الى مسمع تشارلز يونيك تونشند ـــ أكبر الشركاء فى العمل وأحد اعمدة الكنيسة وعضو هام فـــى

جمعية ديلن الملكية وكل ما له شأن فى ديلن ــ لم يحاول مطلقا أن يتدخل فى مسألة كفرى أو أيمانى ، بل احترم حرية تفكيرى ولم يبد حتى مجرد الرغبة فى مناقشتى • لكنه طلب منى الا أثير هذه الموضوعات فى مكتبة • ورغم عدم رضاى ، وعدته بذلك وحافظت على وعدى ، لا لأن مورد رزقى كان فى مهب الريح (فلم أكن لأتردد أبدا فى التضحية بكل شىء) ، ولكن لأنى كنت قد عقدت العزم على الا أستمر فى العمل تحت هذا الضغط • وقد جعلنى هذا الحادث أستبعد التفكير فى الحياة المكتبية ووكالة العقارات كعمل مهم أرتزق منه فى مستقبل حياتى • لقد أخجلنى ذلك الوعد الذى قطعته على نفسى • وعندما أعطانى أصحاب العمل ــ بناء على طلب ابى ــ شهادة تؤكد أننى على درجة عالية من الكفاءة ، غضبت غضبا شديدا لتقدم أبى بطلب كهــذا عند تركى للعمل • لكنى الآن (١٩٤٧) أشعر بنوع من الاعتزاز بتلك الوثيقة •

ورغم ذلك فلم أكن أدرك بوضوح مقدار قيمتى وقدرى • لكن حدث فى أحد الأيام أن قال الفتى ، الذى كان يغنى بكــل عاطفة أغنية الموت الحزينة ، أن كل الفتية يعتقــدون أنهم سيصبحون فى المستقبل رجالا عظماء • وقد جعلتنى الصــدمة الناتجة عن هذه الملاحظة أشعر فجأة أن هذه هى نفس ورطتى ، رغم أننى حتى تلك الآونة لم أكن قد قمت بعمل ما يدفعنى الى الاعتقاد بأننى قد ولدت لاكون فى مرتبة تقارب مرتبة شكسبير

Shakespeare وشيلى Shelley وبراكستيليز Praxiteles ومايكل أنجلو Michael Angelo • كانت مثل هذه التطلعات ــ لفتى تدرج فى بعض الوظائف الكتابية ــ تبدو على درجة كبيرة من السخف • لقد دفعنى الجبن وعدم الثقة ، فى تلك الآونة ، الى الاعتقاد بأننى لا أزيد عن كونى مجرد شخص بليد جاهل • لكن واجباتى كصراف غرست فى عادة العمل اليومى وعلمتنى أنه من الواجب على أن أقوم بعمل شىء ما بدلا من تضيع الوقت فى أحلام اليقظة ، كما علمتنى أنه لن ينفعنى شىء سوى المهارة الفنيــة والتدريب والكفــاية القادرة : باختصــار ــ البراعــة الفائقة • ولم أكن أقيم أى قدر للأهمية التى استمدها أبناء عمومتى من ادراكهم أن أجداد اجدادهم كانوا أيضا نفس أجداد أجداد ســير روبرت شــو الذى كان يعيش فى بوشى بارك ان أمثــــال هــــؤلاء البارونــــات لا يمكــــن أن يخدعوا انسانا ممن ينتمون الى جمهورية الفن • ولقد كنت دائما أشعر بالخجل والتعاسة لأننى لا أستطيع أن أقدم على فعــل ما أريد • كنت احتفظ بنقود يونياك تونشند دون أن أحلم يوما بسرقتها • وتدفعنى السنين التى بلغت فيها مرحلة النضج الى الاعتقاد بأن الملاك الذى يسجل حسناتى وسيئاتى سوف يضع هذا السلوك فى مرتبة أعلى بكثير من مرتبة أعمالى الفنية الباهرة • لكنى فى تلك الآونة كنت أعتبر ذلك سلوكا عاديا •كان أحد المؤهلات الضرورية لعمل لم أحبه •

فى تلك الاثناء ، ودون أن أدرك ذلك ، أخذت بوادر نشاطى الادبى تبدأ فى الظهور • كانت البدايات الاولى فى صورة خطابات تبادلتها وصديقى ادوارد ماكنلتى Edward McNulty وهو أحد زمـــلاء الدراســـة القدامى ومؤلف لثلاث روايات عن الحياة فى أيرلندا • كان موظفا فى بنك أيرلندا ، لكنه نقل الى فرع نيورى Newry وحالت الظروف بيننا لدرجة أننا لم نعد نلتقى بعد أن انتهت أعوام الدراسة التى جمعتنا • ومع ذلك استمرت صداقتنا متينة على أساس من تلك العبقرية المتوقدة التى اتصف بها كل منا •وبدأ تراسلنا فىسن مبكرة ، كنا نتبادل خطابات مطولةتتضمن صورا غير متقنة ومسرحيات هزلية ساخرة • وكان من المتفق عليه فيما بيننا أن يتخلص كل منا الخطابات بعد الرد عليها مباشرة ، ذلك لاننا لم نكن لنحب أن يقع تاريخ أرواحنـــا عاريا فى أيد غريبة •

ولقد تعرفت أيضا على تشيتشستربيل Chichester Bell — وهو من الشخصيات المرموقة — عن طريق السكن مصادفة فى البيت الذى يعيش فيه • كان أبن عم جراهام بيل مخترع التليفون وبالتالى ابن أخ ملفيل بيل مخترع الحروف الصوتية المعروفة باسم « الحديث المرئى » وكان أبوه الاسكندر بيل مؤلف « الخطيب المثالى » ويعتبر أعظم وأجل رجل عاش على ظهر هذا الكوكب أو أى كوكب آخر ، كما كان أستاذ الخطابة فى مدرستى القديمة : مدرسة الطائفة الويزلية ، التى تعرف حاليا

باسم كلية ويزلى • ولقد أصبح تشتشستر بيل طبيبا مؤهلا بعد أن ذهب الى ألمانيا وكرس نفسه لدراسة الكيمياء والطبيعيات فى مدرسة هلمولتز Helmholtz وكان اتصالى به ذا فائدة كبيرة لى • درسنا الايطالية معا • ورغم أننى لم أتعلم من الايطالية ما يفيد ، الا أننى تعلمت أشياء أخرى كثيرة أغلبها فى علم الطبيعة وعلم الأمراض ، وقرأت كتابات تندال Tyndall ومحاضرات تروسو Trousseau التحليلية • كما أن بيل هو الذى دفعنى الى دراسة فاجنر Wagner بطريقة جدية • ولم أكن قد سمعت من انتاجة شيئا سوى مارش تانهاوزر وكانت تعزفه فرقة عسكرية من الدرجة الثانية • وكان تعليقى الوحيد بعد سماع اللحن هو أن الحركة الثانية منه لا تزيد عن كونها مجرد تقليد ضعيف للحن شهير فى افتتاحية فريستشوتر الموسيقية وهى من مؤلفات ويبر Weber وعندما وجدت أن بيل يعتبر فاجنر مؤلفا موسيقيا عظيما ، اشتريت تسجيلا لاحدى قطعه الموسيقية ، وكان هذا التسجيل هو العينة الوحيدة الموجودة فى محلات الموسيقى بدبلن • ولقد تغيرت نظرتى تماما بعد أن استمعت الى النغمات القليلة الأولى •

وأذكر فى هذا المجال أنه عندما انفرط عقد أسرتنا وذهبت أمى الى لندن ، وجدت نفسى فجأة محروما من الموسيقى وقد كانت غذائى اليومى طوال حياتى • لكن البيانو كان ما يزال فى موضعه رغم أننى لم أكن ألمسه الا عندما أحاول عزف نغمة بسيطة بأصبع

واحد • وفى قنوط اشتريت كتابا متوسط الحجم يحتوى على ما أحتاجه من مصطلحات موسيقية فنية ورسم بيانى لمفاتيح البيانو • وبعد ذلك أحضرت تسجيلات دون جيوفانى الموسيقية ــ من وسط التسجيلات التى كانت فى حيازة أمى ــ وحاولت عزف الافتتاحية • ولقد أمضيت الكثير من الوقت وأنا أحاول تدريب أصابعى على عزف النغمة الأولى • ومن العسير أن أذكر كم قاسيت وكم قاسى كل من فى البيت فى أثناء قيامى بمحاولة عزف سيمفونيات بتهوفن وما عداها من أوبرات وأناشيد دينية • ولقد تعلمت فى النهاية ما يمكننى من أن أعزف أى شىء وان لم أتمكن ابدا من السيطرة على مفاتيح البيانو • لكنى اشتركت فى عزف الكثير من المقطوعات فى بداية حياتى فى لندن ، لدرجة أننى قمت ذات مره بعمل نصف أعضاء عازفى الأوركسترا الذين تغيبوا فجأة عن الحضور الى حفل عام أقيم فى مسرح فيكتوريا بطريق ووترلو ، وانتهيت من العزف دون أن تحدث كارثة • هذا بالاضافة الى أننى كنت أغلب الوقت أفرض ذوقى الخاص فى العزف على قائد الفرقة الايطالى ، وكان شخصية محبوبة وغير ميالة للتحكم فى أعضاء الفرقة من العازفين •

لكن هذا النشاط كان خارج نطاق حياتى العملية • ولقد وضعت هجرتى نهاية له فى عام ١٨٧٦ •

(٦)

نهايـــة كاتب حسابات فى دبلن

ما الذى يحول الانسان الى كاتب حسابات فى دبلن أو فى أى مكان أخر ؟ انك لا تستطيع أن تخلق من البدوى كاتب حسابات ، لكن يمكنك بكل سهولة أن تفعل ذلك برجل انجليزى • وكل ما يجب عليك عمله هو أن تضعه فى أسرة محدودة الدخل من أسر الطبقة المتوسطة حيث لا يستطيع الأب أن يعول ولده أو أن يوفر له رأسمال يبدأ به حياته أو أن يساعده على مواصلة تعليمة • لكنه فى نفس الوقت يخجل من أن يصبح ابنه عاملا يدويا • وفى مثل هذه الظروف ماذا يستطيع الابن التعس أن يفعل الا أن يصبح كاتب حسابات ؟

لقد أصبحت أنا نفسى كاتب حسابات بعد أن حصل لى عمى بكل سهولة على مكان فى مكتب راق ، اذ كان هذا العم موظفا كبيرا فى أحد دواوين الحكومة وكان يتمتع بسلطة تمكنه من أن يجامل الناس أو أن يعوق أعمالهم اذا ما أثاروا فيه احساسا بالكراهية • وكان المفروض أن أظل حتى الآن كاتب حسابات لولا أن انطلقت فى تحد واستهانة واندفاع كى أصبح عبقريا فى ميدان الأدب • ولا أستطيع أن أقول ، كما يقول بعض الناجحين من الرجال : « لمـــاذا لا تحذو حذوى » ؟

أحلم فى بعض الاحيان أننى عدت ثانية الى ذلك المكتب ، وقد اعترانى احساس بأننى قد أهملت واجباتى لفترة طويلة من الوقت : لم أسحب نقودا من البنك فى الصباح ولم أودع شيئا بعد الظهر • لم أدفع أقساط التأمين ولا الايجارات ولا فوائد الرهونات • لابد وأن قد بيعت مقاطعات كاملة ، وتركت الكثرة من اليتامى والأرامل تموت جوعا • هذا بجانب الرهونات التى أصبح من العسير أن يسترجعها أصحابها ، والارتباك والفوضى والخراب الشامل الذى تعرض له سادة أيرلندا • كل ذلك نتيجة اهمال — لا يمكن تعليله — لواجباتى اليومية طوال عدة سنين لم يزد فيها عمرى أو عمر أى فرد أخر فى المكتب يوما واحدا • وهذا أيضا أمر يصعب تفسيره • وغالبا ما أصحو من حلمى وأنا على وشك أن أسأل رؤسائى ، متذرعا بالسلطة التى حصلت عليها فى الأيام الأخيرة ، عما اذا كانوا مدركين حقيقة ما يحدث وعما اذا كانوا قد بيتوا النية على ترك شخص غير جدير بالثقة مثلى فى مركز له مثل تلك الخطورة •

لقد كان عملى فى بعض نواحيه أفضل بكثير من عمل معظم الكتبة • كان رفاقى فى المكتب شباب من خريجى الجامعات ومن مستوى اجتماعى طيب • ولم يكن هناك ما يمنعنى من أن أتظاهر بأننى أتساوى معهم فى الدرجة والمركز • كنت أسافر بالدرجة الأولى عند قيامى بأعمال تخص الشركة • ولم تكن نفقات سفرى واقامتى محل جدل • ولكن بما أنهم كانوا يفترضون أننى

أساسا أتدرب كى أصبح فى المستقبل رجل اعمال ، لذا لم يعطونى من الأجر ما يكفى أبدا لتغطية نفقات معيشتى ، رغم أننى ــ خلال السنوات الأربع والنصف التى قضيتها فى الشركة ــ شغلت منصبا من أكثر المناصب مسئولية • شغر المنصب فجأة عندما كنت مجرد كاتب صغير ، طلبوا منى أن أسد الثغرة حيث أن طبيعة العمل كانت تحتم شغل الوظيفة الشاغرة فى الحال • وكما يحدث فى أغلب الحالات ، ظللت حيث وضعونى أمارس العمل الجديد • وكان من الطبيعى أن أفضل المركز الافضل والعمل الاكثر والمسئولية الاكبر ، ما دمت سأمكث طوال اليوم بالمكتب فى أى الحالات•لم تكن المسألة مسألة مرتب:كنت على استعداد لأن أتقاضى أكبر مرتب يعرض على ، الا أنهم لو أعطونى فرصة الاختيار بين مركزى ككاتب مبتدىء ومركز أحد الشركاء ، لاخترت دون أدنى تردد مركز الشريك • لقد ووجهت ــ أثناء اسهامى فى الحركة الاشتراكية ــ بالادعاء القائل أن عدم المساواة فى العمل تتطلب عدم المساواة فى الأجر ، هذا فى حالة ما اذا تساوى العاملون جميعا فى بقية الحقوق • ولو طلب منى أصحاب العمل أن أقوم بعمليات التنظيف التى تقوم بها الشغالة ، لطلبت منهم أن يضاعفوا مرتبى ــ بعد الترقية ــ عشرين مرة على الأقل حتى يستطيعوا التغلب على استيائى ونفورى •

كان لزاما على أبى أن يمدنى بالفرق بين ما أتقضاه من صاحب العمل وما تتطلبه حياتى من نفقات • ولقد دفع هذا الوضع

أبى الى أن يرهق نفسه فى ادارة بعض ضياع الايرلنديين من ملاك الأرض : وهو عمل كان الوكلاء — من حين لآخر — يلاقون حتفهم رميا بالرصاص فى أثناء قيامهم به • وهكذا استغلت الطبقة التى تحتكر أقوات الناس أصحاب المهنة التى تحاول أن توفر الخبز للناس • أننى أتكلم دون أى حقد أو ضغينة ، ذلك لأننى أنا نفسى ورثت — بعد مدة — احدى الضياع وأصبحت أحد المغتربين من أصحاب الأملاك • وبناء على هذا أقول انه ليس من الضرورى دائما أن نسىء الظن بكل ما يتعلق بأعمال أصحاب الأرض ، اذ أن بعض الملاك فى أيرلندا كانوا ينفقون على ضياعهم أكثر مما تدره عليهم تلك الضياع • ولقد أغريت زوجتى ببيع ضيعتها فى أيرلندا ذلك لانها كانت تكلفها ستمائة جنيه سنويا •

فى عام ١٨٧٦ ، وكنت قد بلغت العشرين من عمرى ، هجرت العمل الكتابى ثم غادرت أيرلندا ولم تطأ قدماى أرضها الا بعد ما يزيد عن ثلاثين عاما • وعندها اعترتنى الرغبة فى أن أمر بالمكتب القديم مرورا عابرا دون أن يكون هناك ما يجبرنى على الدخول • وتصادف أن كان معى مستند فى حاجة الى تصديق مأمور اجراءات مختص • وفى أثناء مرورى بالباب القديم ، رأيت بالطابق الأول مكتبا لمثل هذا المأمور الذى أريد • وهكذا دخلت ثم صعدت الى الطابق الأول ، وهناك قابلنى الكاتب باحترام ظاهر وأبدى أسفه لان رئيسه خرج منذ لحظة ، وتبادلنا

حديثا وديا ذكرت خلاله أننى « كنت منذ ثلاثين عاما كاتب حسابات فى مكتب العقارات الكائن بالدور الأرضى » • تغير سلوك الرجل فى الحال وباحتقار وعدم تصديق لم يحاول اخفاءهما قال : « اننى لا أتذكرك » •

وتولتنى الدهشة • كان هذا الرجل يذهب يوميا الى المكتب طوال الثلاثين عاما التى طفت فيها أرجاء المعمورة وتحولت من شخص تافة يعمل باحدى المكاتب الى شخص تدوى شهرته فى الآفاق ، الا أنه كان يبدو أسعد منى حالا • وبالتأكيد كان يبدو انفسه أكثر منى قيمة واحتراما •

(٧)

سبع سنوات كروائى تنتهى بنجاحى كناقد

تأملنى حينذاك فى لندن وأنا فى وضع غاية فى الحرج • كنت غريبا وأشد الغرباء غربة هو الايرلندى الذى لم يحصل على درجة من احدى الجامعات البريطانية • وكما سأبين الآن ، لم أكن متعلما • لكنى كنت أعرف ما لا يعرفه خريجو أية جامعة انجليزية ولم أكن بدورى أعرف ما يعرفون وأن عرفته فلم أكن لأومن به • كنت صلب الرأى وتعوزنى كياسة أهل المدينة • كان على أن أغير عقلية لندن حتى أستطيع أن أحصل على شىء من التسامح والقبول •

رفضت لندن أن تتحملنى بأية حال من الأحوال • لم تقبل لى سوى مقالة واحدة درت على خمسة عشر شلنا • عرض على ناشر بعض ما أشتراه من صفائح صور قديمة وطلب منى أن أزود كل صورة بعدة أبيات شعرية حتى يستطيع أن يتقدم بها للفوز بأحدى جوائز الكتب المدرسية • وعبرت عما أراد بطريقة هزلية ساخرة ، ثم أرسلت له ما كتبت على سبيل المزاح • ولشد ما كانت دهشتى عندما وجه لى الشكر مرفقا بخمس شلنات • ومتأثرا بما فعل ، كتبت له قطعة شعرية جادة كى يرفقها بصورة أخرى ،

لكنه اعتقد أننى أداعبه بطريقة غير مقبولة • وهكذا انتهى مستقبلى كشاعر • وحدث أن حصلت على عمل بخمسة جنيهات ، لكنه لم يكن مقدما من رئيس تحرير أو ناشر • لقد عرضه محام صديق ، طلب منى أن أكتب له مقالة طبية • وكان من الواضح أنه يريد استخدامها فى قضية خاصة بالأدوية المسجلة • ولم أستطع أن أتبع هذا النجاح بنجاح آخر • كان جملة دخلى ستة جنيهات فى تسع سنوات • ورغم ذلك كان كل من حولى يقولون أننى محدث نعمة •

فى عام ١٨٨٥ وجدنى وليم أرشر William Archer فى قاعة القراءة بالمتحف البريطانى وأنا منهمك فى قراءة النسخة الفرنسية — ترجمة Deville — من كتاب كارل ماركس « رأس المال » وبجانبها مخطوط فاجنر الأوركستر « تريستان وازولد Tristan and Isolde » • وتولى وليم أرشر رعاية شئونى بنجاح كبير لدرجة أن مجلة بول مول Pall Mall ، وكانت ما تزال بارزة حتى ذلك الحين، أرسلت الى بعض الكتب كى أقيمها نقديا • وعهد الى أرشر بعمل الناقد الفنى فى مجلة «العالم The World» وكان أرشر نفسه يقوم بهذا العمل بجانب عمله كناقد مسرحى • وفجأة بدأت أكسب الكثير من المال : ١١٧ جنيها فى العام الأول •

كان أرشر اسكتلنديا تعلم اللغة النرويجية على يد بعض أقاربه وقرأ « ابسن Ibsen » وانسحر به ، ثم نقل الى بدوره أثر هذا السحر • ولقد شكل حبنا لابسن وعداؤنا للكنيسة رباطا

قويا جمع فيما بيننا • لكنه رغم ذلك عندما عرض على أن نشترك معا فى كتابة مسرحية يعد حبكتها وأكتب حوارها ، كانت الحبكة التى أعدها « مبنية » بكل دقة وفق الخطوط التقليدية السائدة •

واقترح أرثر أيضا أن نشترك فى كتابة مسرحية كان قد أعد حبكتها بطريقة بارعة على غرار مسرحيات سكرايب والمدرسة الفرنسية • وانتهيت من كتابة فصلين دون مراعاة لتلك الخطوط الفنية التى حددها مما دعاه الى الاحجام عن المشاركة فى الكتابة وقد تركت الفصلين مهملين لمدة ست أوسبع سنين وفى أثناء تلك الفترة قرأتهما لهنرى آرثر جونز وكان حينذاك فى قمة مجده ككاتب مسرحى وكان تعليقه « واين الجريمة ؟ » •

وأخيرا بدأ أحد المتحمسين لابسن ، وهو انجليزى من أصل هولندى ويدعى « جرين » ، فى تكوين فرقة مسرحية أطلق عليها اسم « المسرح الحر » • وبعد عرض موفق لبعض أعمال ابسن أعلن جرين أنه يوجد فى انجلترا مئات من الروائع المسرحيـــة التى لم تمثلها المسارح التجارية •

ولكى أثبت صحة ما قاله جرين قدمت له الفصلين الذين كتبتهما منذ عدة سنين بعد أن أضفت اليهما فصلا ثالثا ، ولم تستمر المسرحية لأكثر من عرضين • أثار أولهما خليطا من التصفيق والصفير الذى واجهته بالقاء كلمة ناجحة أمام الستار • وقوبل العرض الثانى باستحسان اجماعى تلته مناقشة استمرت

أسبوعين على صفحات الجرائد • وقد شجبت بأننى مؤلف كتيبات مجرد من الموهبة الدرامية • لكن المؤثرات المسرحية التى أعددتها تمت بنجاح وهذا ما أقنعنى بأننى بالسليقة أستاذ فى فن الكتابة المسرحية •

وفى عام ١٨٨٨ أسست جريدة « النجم Star » • وبناء على نصيحة هـ • ج ما سينجهام دعيت للانضمام الى هيئة تحرير الشئون السياسية لكنهم لم ينشروا مقالاتى باعتبارها غير صالحة للنشر ، وقد اقترحت على سبيل المراضاه أن يعطونى عمودا أسبوعيا أملأه بمادة غير سياسية ، ولتكن الموسيقى • وكان هذا العمود الموقع باسم كورنودى باسيتو (الاسم الايطالى للسونة وهى آلة موسيقية للزمر) خليطا من السخرية والنقد الخالص • وكان عملا ناجحا •

وفى عام ١٨٩٠ وقع المرحوم لويس انجل فى مشلكة فرضت عليه مغادرة البلاد وكان انجل زميلا لآرثر فى « العالم » وأحسن ناقد موسيقى مكروه فى أوربا وفى الحال أكد آرثر لادمند بيتس رئيس التحرير أن كورنودى باسيتو هو الشخص الوحيد الذى يمكنه شغل الفراغ الذى تركه بيتس • وتركت « النجم » لأكتب صفحة أسبوعية عن الموسيقى فى « العالم » • وواظبت على كتابة تلك المقالات الأسبوعية حتى موت بيتس عام ١٨٩٤ • وعندها شعرت بأننى لابد وأن أبحث عن رئيس تحرير آخر له نفس صفات بيتس : شخص لا يخاف الابداع والتجديد الذى

يجعل من النقد شيئا جديرا بالقراءة • وبناء على ذلك قدمت استقالتى • وفى عام ١٨٩٥ قبلت وظيفة ناقد مسرحى عرضها على فرانك هـاريس رئيس تحـرير « سـاترداى رفيـو Saturday Review » وكان هاريس قد هاجر الى أمريكا حيث غامر كراع من رعاة البقر وكعامل فى بناء جسر بروكلين وكمدير فندق وكمحام • ولقد عاد الى انجلترا بأخلاق وطباع وأسلوب انسان تعود المغامرة وألفها • هذا بالاضافة الى صوت وفصاحة أكسباه تميزا شخصيا مؤثرا وضمنا له مكانا مرموقا ــ مهنيا وسياسيا ــ فى المجتمع الانجليزى • لكنه كان يؤثر الأدب ويميز بين جيد الكتابة ورديئها مع تفضيله للجيد منها • ولم يكن يخاف الهرطقة أو يعرف فى الواقع مقدار خطورتها ذلك لأنه كان يؤمن بنفسه كقديس صاحب رسالة ولا يشـك مطلقا فى أن لندن قد تأخذه بكل بساطة على أنه « كابتن كيد » آخر •

وباختصار كان عين الرجل الذى أريد ، كما كنت أنا أيضا عين الرجل الذى يناسبه • كنت أعرف أنه سيتنمر فى معاملتى اذا لم أسبقه أنا الى فعل ذلك بطريقتى الايرلندية الخاصة • وبناء على ذلك عاملته بنفس الأسلوب الذى كنت أعامل به بيتس واتفقنا على ستة جنيهات فى الأسبوع ، رغم أن بيتس كان يدفع خمسة جنيهات فقط وهو أجر طيب فى تلك الأيام •

وفى الحال ازدادت شهرتى كناقد ازديادا سريعا ذلك لأن الدراما كانت أكثر انتشارا من الموسيقى . ولعدة سنين كان نادرا ما يظهر اسمى مطبوعا دون أن أوصف بأننى « لامع » . وكنت أكره تلك الصفة اذ كانت توحى بسطحية براقة أنفر منها وأكرهها . لكنها لازمتنى ولم أستطع الخلاص منها .

(٨)

فى أيام شبابى

نشر هذا الخطاب فى مجلة للمرحوم (ت • ب أوكونر) كانت تصدر تحت عنوان « عن الناس على الأخص » •

تاريخ النشر : ١٧ سبتمبر ١٨٩٨ •

عزيزى ت • ب :

أن كل السير الذاتية أكاذيب • أنا لا أعنى أكاذيب غير مقصودة أو غير متعمدة ، اذ لم يبلغ انسان من السوء درجة أن يقر أثناء حياته بحقيقة نفسه التى لا بد وأن تتضمن الاقرار بحقيقة أسرته وأصدقائه وزملائه • كما أنه لم يبلغ انسان من الطيبة درجة أن يقول الحقيقة للأجيال القادمة فى وثيقة يبقيها طى الكتمان الى ما بعد وفاة كل من يستطيع معارضته فيما جاء بهـا •

اننى أتكلم فى هذا الموضوع بثقة متزايدة ، ذلك لأننى خضت على استحياء وفى حدود معينة تجربة الترجمة الذاتية الصريحة • لكنى لم أترك انطباعا مؤثرا • لم يصدقنى أحد على وجه الاطلاق •

أنجبت أم أبى خمسة عشر طفلا فى الأثنين والعشرين عاما

الأول من زواجها ولربما كان من الممكن أن تنجب خمسة عشر آخرين لو ظل زوجها بعد تلك التجربة على قيد الحياة • ولقد استطاعت أن تربى منهم احدى عشر • وهكذا زودتنى جدتى عن أبى بهذا العدد من العمات والأعمام وبعدد لا يحصى من بنات وأبناء العمومة • ولقد تزوج والد أمى مرتين وأنجب ثمانية أطفال مات منهم واحد فقط دون زواج ودون أطفال •

ان أمثال تلك العائلات نادر حاليا : لكن وجودها فى أيرلندا فى منتصف القرن التاسع عشر لم يكن ليثير قلق أحد مهما بلغت درجة اعالتنا لها من السوء • ومثل أغلب العشائر المتميزة بالخصوبة لم يكن بين أفراد عشيرتى من نبذ المسكرات نبـذا كليا ، كما أن أغلب أعضائها لم يظلوا حتى الممات متمتعين بكامل قواهم العقلية • لقد توصل أحدهم الى طريقة انتحار جديدة ومبتكرة تماما اذ لم يفكر فيها مخلوق من قبل رغم بساطتهـا البالغة • هذا بالاضافة الى أنها كانت طريفة ومضحكة • لكن أثناء تنفيذها حزق قريبى بشدة أوقفت دقات قلبه ومات قبل أن ينجح فى قتل نفسه بلحظة واحدة • ووجد المحققون أن موته يرجع لعوامل طبيعية وظلت عملية الانتحار سرا خافيا ، ليس عن الجمهور فحسب ولكن أيضا عن معظم أفراد الأسرة •

وكشفت عن هذا السر فى حديث خاص لى مع دوكلى الذى انفجر ضاحكا ثم نشر القصة كلها فى مقالته التالية • ولم يطرأ

على باله ولو للحظة واحدة أن القصة حقيقية • ويمكنك أن تتصور الى أى حد كان موقفى شائنا بالنسبة لأرملة قريبى واخوته •

ولقد حدث مرتين فى حياتى أن أعطيت المحامين بعض التعليمات الصريحة الواضحة ، ولكم كانت دهشتى عندما وجدت أنهم لم ينفذوا منها شيئا • لقد ظنوا أن ما قلته لا بد وأن يكون مزاحا ، أو مجرد مبالغة •

واذا ما حاولت أن أكتب هنا سيرة ذاتية صادقة فاننى سأواجه نفس المشكلة : سأسبىء اساءة بالغة لقليل من الأقارب الذين يعرفون أننى أكتب الحقيقة : وفيما عدا هؤلاء لن يصدقنى أحد •

زد على ذلك أننى لم أتأكد بعد من حقيقة ذاتى • فأنا لا أعرف على سبيل المثال حدود تعقلى وجنونى ، فقد مكنتنى موهبتى المتميزة من أن أنال حظا من الشهرة فى لندن • لكن — وكما حدث فى حالة دون كيشوت — قد يصبح الانسان شخصية مرموقة رغم جنونه الكامل •

منذ عهد قريب اتهمنى أحد النقاد بأننى أكن شعورا رقيقا بالكراهية لبقية أفراد البشر • ولو وصف احساسى على أنه فزع لا كراهية لكان أقرب الى الحقيقة • ذلك لأن الانسان هو الحيوان الوحيد الذى يثير فى احساسا جبانا بالخوف الكامل • اننى لا أفكر كثيرا فى مقدار الشجاعة التى يتمتع بها مروض

الأسود • انه فى داخل قفص الأسد يكون على الأقل فى مأمن من شرور الآخرين وليس هناك ما يخيف من أسد يجد ما يكفيه من طعام • ذلك لأنه لا يعتنق مبادىء ولا ينتمى الى جماعات أو أحزاب أو الى دولة أو طبقة : باختصار ليس هناك ما يدفعه للقضاء على شىء لا يريد أن يأكله • لقد أحرق الأمريكيون الأسطول الأسبانى فى الحرب المكسيكية ولجأوا أخيرا الى جر الجرحى من هياكل المراكب التى غدت كالجحيم • وكان تأثير هذا على أحد القادة الأمريكيين أن جمع رجاله وأخبرهم بأنه يرغب فى أن يعلن أمامهم أنه آمن بالله العلى القادر • ذلك ما لن يقدم على فعله أى أسد • وحين قرأت الخبر ولاحظت أن الصحف المعبرة عن الرأى العام تعتبر ذلك الحدث ضربا من ضروب الورع الطبيعى المؤثر والجدير بالاكبار ، عندها استنتجت أننى لابد وأن أكون مجنونا • أما اذا كنت عاقلا على أية حال من الأحوال فان بقية العالم لابد وأن يكون على النقيض • اننا لا نستطيع أن نتفق على حقيقة ما نراه من أشياء •

كان أبى سيدا أيرلنديا بروتستانتيا • لم يحصل على أى ميراث لأنه كان أصغر الأبناء • لم يتعلم حرفة ولم يكتسب مهارة يدوية ، كما أنه لم يحصل على ما يؤهله للقيام بأى عمل اجتماعى محدد ، لكنه كان يعرف القراءة والكتابة والحساب وان لم يجده اجادة كاملة • وهذا ما يدعونى الى الاعتقاد بأنه تلقى شيئا من التعليم الأولى • كما أن حديثه ومظهره كان يوحيان بأنه

سيد أيرلندى متعلم وليس حمالا فى محطة • لكنه لم يحصل بالتأكيد على درجة جامعية ولم أسمعه اطلاقا يتحدث عن أى مدرسة أو كلية مدعيا أنه أحد خريجها • وعلى أية حال لقد نشأ على الايمان بأن كل أفراد أسرة شو يتمتعون بنبل فى الطبع يرجع أصله الى شرف أنتمائهم كحلفاء لوليم الفاتح (وليم الهولندى صاحب الأعمال الورعة والذكرى الخالدة ، لا المغامر النورماندى) وكملاك لكثير من الضياع فى أيرلندا أو كأقرباء لهؤلاء الملاك • وانتقل نوابغ الشباب من أسرة شو الى دبلن حيث أسس أحدهم « البنك الملكى » الذى كان يطلق عليه الطاعنون فى السن أيام طفولتى اسم « بنك شو » • ولقد أصبح هذا الشاب فيما بعد بارونا ومؤسسا لبوشى بارك : موطن عائلة شو فى دبلن • وكان أبى أحد أبناء عمومة البارون وعلى ذلك فقد كان من حقه حضور الجنازات وبعض الحفلات العائلية التى تقام فى بوشى بارك • لقد كان كل أفراد عائلة شو بحكم الضرورة بروتستانت ونفاجين (مقلدين لمن هم أفضل منهم) وطبقيين •

ومعتمدا على ما يدعيه من تميز طبقى ، وبعد أن تنازل مرة أو مرتين وقبل القيام ببعض الأعمال الكتابية ، استطاع أبى وبقدر كاف من النجاح أن يثبت أن لعائلته حقا على الدولة • ولقد حصل على وظيفة فى قصر العدالة الأيرلندى نتيجة لذلك • لكن الوظيفة ألغيت وأحيل أبى الى المعاش • وباع أبى المعاش

وبدأ يتخذ من الاجراءات ما يمكنه من مباشرة تجارة القمح التى لم يكن يعرف عنها شيئا على الاطلاق ، وفى تقديرى أنه لم يعرف عنها الكثير حتى يوم مماته • كانت هناك طاحونة تبعد قليلا عن البلدة • وكان من الممكن أن تغطى تكاليفها طالما استمرت آلاتها فى الدوران ، لكنى اعتقد أن فائدتها الرئيسية كانت تكمن فى توفير نوع من التسلية لى ولرفيقى المرحين ، ابنى شريك أبى •

وفيما يتعلق بجماعة البروتستانت فانى أعتقد أن أيرلندا هى أكثر بلدان العالم كفرا وتجديفا • لقد عمدنى عمى ولم يحضر أبى الروحى لأنه كان سكرانا وعلى ذلك فقد أمر أحد العاملين بالكنيسة أن يحل محله فى الوعد والقسم • ولقد فعل ذلك بنفس البساطة التى يضع بها مزيدا من الفحم فى نار منتدى الأبرشية • ولم أمنح التثبيت الدينى يوما ولا أعتقد أن أبواى قد منحاه على وجه الاطلاق • وليس عندى أدنى فكرة عن جدية هذا الطقس الدينى بالنسبة للأسر الانجليزية ، ذلك لأن البروتستانتية الأيرلندية لم تكن دينا حتى ذلك الحين : لقد كانت جانبا من جوانب الشقاق السياسى ونوعا من التحيز الطبقى واقتناعا بأن الكاثوليك التابعين لكنيسة روما منحطون اجتماعيا وسوف يذهبون بعد الموت الى الجحيم — تاركين الجنة ملكا خالصا للسادة والسيدات البروتستانت • وكانوا يبعثون بى فى طفولتى كل يوم أحد الى احدى مدارس الأحد حيث يردد الصغار من أبناء

الأثرياء آيات الكتاب المقدس ويكافأون ببطاقات نقشت عليها تلك الآيات • وبعد ساعة من الترتيل كنا نسير الى الكنيسة المجاورة فى آخر شارع ليسون لنجلس حول قضبان المذبح ونظل نتململ بطريقة كانت لابد وأن تدفع الجالسين بالقرب منا الى أن يتمنوا كما كنا فى أعماق قلوبنا نتمنى أن تنتهى الطقوس والصلاة • وكنت أحتمل كل هذا لا من أجل خلاص روحى ولكن من أجل سمعة أبى وما تتطلبه من احترام • لكننا تحللنا من هذه الطقوس ولم نعد نمارسها أبدا بعد أن انتقلنا الى دوكى •

لقد ساعد عدم ذهاب الطبقة العاملة الى الكنيسة على تحويلها الى مأوى لكل الرذائل الاجتماعية • ان الفقراء فى انجلترا يحظون بعناية رجال الكنيسة الذين ينتشرون بينهم ويبذلون قصارى جهدهم كى يقنعوهم بالذهاب الى الكنيسة ، أما الفقراء فى أيرلندا فلم تكن لهم أدنى صلة بالكنيسة البروتستانتية ذلك لأنهم كانوا كاثوليك يتبعون كنيسة روما (وكان جدى يطلق عليهم اسم البابويين) ولا أستطيع القول بأن البروتستانت فى أيرلندا أيام كنت أعيش هناك كانوا أكثر سوءا مما هم عليه الآن بسبب ما يسمونه دينهم • اننى لا أستطيع أن أتحدث الا عمن عرفتهم فقط •

تخيل أنك تعلمت أن تحتقر العامل وأن تحترم السيد الماجد فى بلد يسيطر الفقر فيه على كل مظاهر السيادة المهلهلة ! تخيل أنك تعلمت أن هناك الها واحدا — سيدا بروتستانتيا يبلغ من

الكمال أمثله ــ يحتفظ بالجنة مختاره لأفاضل البشر ، ويحرمها على دعى وثنى اســمه البابا ! تخيل مزاعم طبقة الأشراف الانجليزية فيما يختص بدخل الطبقة المتوسطة ! أتذكر أن ستبفورد Stopford أخبرنى ذات يوم أنه يستشف من بين صفحات كتبى كراهية عميقة ومهينة للمجتمع • حدث ولا عجب !

ولربما كان من الممكن أن أنظر الى هذه الأشياء فى هدوء لو لم أقاس منها فى طفولتى • ولا يرى الغريب عن البلدة الا ما يضحكه فى ذلك المنظر المحزن لمجموعة من التجار البروتستانت فى بلد كاثوليكى تقودهم طبقة ثرية تافهة يتكون أعضاؤها من سماسرة البورصة والأطباء ووكلاء الأرض ، وتخدعهم تلك المجموعة من السادة أصحاب الأرض الذين ثقلت ديونهم لدرجة أنهم لم يستطيعوا الفرار الى لندن ، ولهذا كونوا ما يسمى بلاطــا وارستقراطية يرأسها أحد المنفيين من رجال البلاط بعد أن حثوه على قبول القيام بعمل نائب الملك مقابل ٢٠٫٠٠٠ جنيها فى العام هكذا جعلوه يعيش فى حالة من الافلاس الدائم ، لكنهم فى نفس الوقت جعلوا من زوجته نائبة للملكة • ووسط هذه المظاهر الخادعة والأكاذيب المستمرة ــ فيما يتصل بالدخل والمركز الاجتماعى ــ ضاعت كل حقائق الحياة •

والآن ما هى القوة العقائدية التى وجدتها فى أيرلندا بدرجة تكفى لتخليصى من رجس هذه الوحشية ؟ بكل بساطة كانت قوة الفن • ولقد تصادف أن كانت أمى تتمتع بموهبة موسيقية

رائعة • وكان عليها كى تمارس هوايتها وتشبع رغبتها ، أن تتصل بأناس على نفس القدر من الموهبة • ومن هنا بدأ الشك يساورنى عما اذا كان من الممكن أن يكون الله فى الواقع بروتستانتيا طيبا ، ذلك لأن أفضل وأروع الأصوات التى كانت تتفاعل مع صوت أمى فى تقديم أعمال أعظم المؤلفين الموسيقيين كانت أصواتا كاثوليكية • كما ثارت شكوكى أيضا فيما يختص بمسألة السيادة والتمييز الطبقى ذلك لأن بعض هؤلاء المغنيين كانوا بلا شك من الباعة وأصحاب المتاجر • فاذا كان أفضل من يغنى بالصوت الثالث (أعلى أصوات الذكور) محاسبا على الأقل لوهو بلا شك كاثوليكى ، فان مغنى الأدوار الهزلية لم يكن سوى بائع أقلام وورق ، ولم يكن هناك خيار : كان لزاما على أمى — كى تخرج عن نطاق ما يقدم فى الصالونات من أناشيد تافهة — أن تتصل بمن يملكون نفس الموهبة الفنية دون مراعاة لحاجز الطبقة أو العقيدة • وفى الواقع كان من الواجب عليها أن تسمح للقساوسة الكاثوليك بالاقتراب منها والتعامل معها كما كان عليها أن تلبى دعوتهم فى أن تدخل الكنيسة الكاثوليكية وأن تغنى هناك قداس موزار •

واذا كان الدين هو ما يربط الناس بعضهم ببعض والكفر هو ما يفرق بينهم فلا بد وأن أشهد اذن ، بأننى وجدت دينى ودين بلدى فى عبقريته الموسيقية ووجدت كفره داخل كنائسه وصالوناته •

دعنى أضيف كلمة شكر وامتنان للمعرض الوطنى الأيرلندى

وقد كان مأوى المحبب أيام طفولتى • وأعتقد أننى الأيرلندى الوحيد الذى تعود ارتياده ، هذا اذا ما استثنينا العـاملين به • لكنى أعرف أنه أفادنى بما لم تفدنى به الكاثدرائيتان القديمتان المصادرتان اللتان أعادتهما أرباح تجارة الخمور الى مجدهما الأول •

ومن الطبيعة أيضا يتعلم الانسان أينما كان • انها تطبع الكثير من الأيرلنديين بطابع الحزن وتدفعهم الى البكاء على الايام الخالية • لقد عرض على بالامس فقط أن أساهم فى رفع شأن بلدى المهان وذلك بأن أجتمع وبعض الأيرلنديين كى نمجد أحداث عام ١٧٩٨ • ان ما حدث عام ١٧٩٨ لا يثير فى أقل القليل من الاهتمام •

وحتى يحين الوقت الذى يفكر فيه الأيرلنديون جديا فيما ستكون عليه حالة أيرلندا عام ١٩٩٨ فانهم لن يحصلوا الا على النذر اليسير من وطنية

المخلص :

ج • برنارد شـــو

لندن :

١٨٩٨

(٩)

من أنا ؟ ــ وفيما أفــكر ؟

ظهرت هذه الرسالة على صورة سؤال وجواب فى عددين من : « الصديق الصدوق » وهى مجلة لم يقدر لها الاستمرار طويــلا •

١١ : ١٨ مايو ١٩٠١ :

تطلب منى أن أخبرك بشىء عن أبوى ومدى تأثيرهما فى حياتى : من المحال أن أعطيك صورة شاملة كاملة عن نفسى فيمايقل عن عشرين مجلدا • دعنى أخبرك بقصة عن أبى • عندما كنت طفلا أعطانى أول درس فى السباحة فى خليج كيلنى وقد قدم الدرس بخطبة بالغة الجدية عن أهمية تعلم السباحة وبلغت كلماته ذروتها عندما قال :

« لقد مكنتنى درايتى بالسباحة وأنا صبى فى الرابعة عشر من عمرى من أن أنفذ حياة عمك روبرت » وعندما رأى شدة تأثرى انحنى ثم همس فى أذنى بطريقة تنم عن ثقته بى « وأقول لك الحقيقة اننى لم أندم فى مستقبل حياتى على شىء مثلما ندمت على فعل ذلك » • وبعدها غطس فى مياه المحيط وأمتع نفسه تماما بسباحة منعشة وظل يقهقه طوال الطريق الى البيت •

اننى لم أتعمد أبدا استخدام أسلوب الانتقالة المفاجئة من الرفيع الى التافة • ان ذلك يظهر فى أعمالى بصورة تلقائية • لكن هنالك بلا شك شىء من الصلة بين قهقهة أبى وما تثيره وسائلى الكوميدية فى أرجاء المسرح •

متى شعرت لأول مرة بميل للكتابة ؟

ما شعرت يوما بميل للكتابة • لقد كانت الكتابة بالنسبة لى كالتنفس مجرد عملية طبيعية • ولم يدر بخلدى يوما أننى أتمتع بحاسة أدبية متميزة • كنت أعتقد أن هذه الحاسة شائعة بين كل الناس ، ذلك لأن الانسان الذى يتمتع بموهبة طبيعية لا يفكر طويلا فى مقدار اعجازها • ان هواة الفن وجامعية والمتحمسين له هم أولئك الذين لا يملكون المقدرة على انتاجه ومثلهم كمثل الفينيسى الذى يريد أن يصبح فارسا ، والطائر الذى يرغب فى السباحة • ما أردت الكتابة قط • اننى أعرف الآن بالطبع أن الملكة الأدبية شىء نادر الوجود ، لكنى رغم ذلك لا أريدها • انك لا ترغب فيما تملك •

فى أى صورة أخرجت أول عمل أدبى لك ؟

أتذكر فى ابهام أننى عندما كنت صبيا كتبت قصة قصيرة وأرسلتها الى احدى صحف الأطفال • كانت عن رجل يهاجم ببندقيته رجلا آخر فى واد ضيق بالبادية • وكانت البندقية هى

محور اهتمامى • ولقد ساعد تراسلى وادوارد ما كنلتى على انماء طاقتى الأدبية الناشئة •

وبعدها أخذت فى تبادل الرسائل لمدة أطول من سابقتها لكن هذه المرة مع سيدة انجليزية تدعى (الينور هودارت) وقد كان بامكان هذه السيدة أن تنال حظا من الشهرة عن طريق رواياتها المتقدة بالخيال لو أننى استطعت اقناعها بنشر اسمها الحقيقى ، أو على الأقل باستخدام نفس الاسم المستعار بدلا من تغييره كلما نشرت احدى رواياتها •

ونتيجة لهذا التأثير كانت أول أعمالى الروايات الخمس التى كتبتها ما بين عامى : ١٨٧٩ و ١٨٨٣ والتى لم أجد لهـا ناشرا • وبعدها أخذت فى كتابة مسرحية من اللون العاطفى الدنس وأظهرت أم البطل فى صورة امرأة سليطة صخابة • لكنى لم أكمل هذه المسرحية أبدا • ومن حسن حظى أننى كنت أفشل دائما ككاتب عبثى ولم تنجح أى من محاولاتى فى تناول الفن من أجل الفن : كانت عديمة الجدوى ، تماما كطرق المسـامير فى صفحات من الورق •

تسألنى عن بداية اهتمامى بالسياسة وعن مدى تأثيرها فى عملى :

حسنا ، أنت تعرف كيف استمعت فى بداية الثمانيات الى هنرى جورج وهو يتحدث • وتعرف أيضا كيف وجه نظرى الى

أهمية الاقتصاد ، وقرأت ماركس وأقول ان السر الحقيقى لقوة ماركس يكمن فى التجائه الى اثارة احساس مبهم فى صدور الآخرين • أقصد كراهية القطاعات الكريمة المتعلمة لمؤسسات الطبقة الوسطى التى أو هنتهم وخيبتهم وضللتهم وأفسدتهم روحيا منذ الطفولة • لم يكن ماركس عندما كتب **رأس المال** يكتب مقالة عن الاشتراكية • ان ما كتبه يعتبر مرثاة ضد البرجوازية مدعمة بأسانيد رسمية تفندها عبقرية يهودية غير متسامحة • لقد وجه ماركس كتابه للطبقة العاملة • لكن العامل يحترم الطبقة البرجوازية ويريد هو نفسه أن يصبح برجوازيا • ان الثائرين من أبناء الطبقة البرجوازية نفسها هم الذين صبغوا العلم باللون الأحمر : لاسال وماركس وليكبخت وهيندمان (أضف اليهم لينين وتروتسكى وستالين) • هؤلاء هم الذين صبغوا العلم باللون الأحمر وهم جميعا ينتمون ، كما أنتمى ، الى الطبقة البرجوازية • أما عن باكونين وكروبتكين — يسارنا الفوضوى المتطرف — فقد كانوا ينتمون الى طبقة النبلاء والعسكريين • ان المفلسين من أبناء الطبقة المتوسطة هم عنصر الثورة فى المجتمع ، أما الرعاع فهم العنصر المحافظ • وذلك ما يعرفه جيدا الديمقراطى المحافظ : درزائيلى • لقد جعلنى ماركس أعتنق الاشتراكية وأنادى بها وأنقذنى من أن أصبح مجرد رجل صناعته الأدب •

ما هو أول نجاح حقيقى لك ؟ حدثنى عن شعورك نحوه •

هل يئست يوما من النجاح ؟

لم أحظ به أبدا • ان النجاح بهذا المعنى هو ذلك الشيء الذى يأتيك ويبهرك كما حدث فى حالة بيرون وديكنز وكيبلنج • ان ما أتانى كان فشلا متكررا • وعندما حان الوقت الذى تخلصت فيه من الفشل كنت قد أكتسبت من المعرفة ما يغنينى عن التفكير فى النجاح أو الفشل •

هل يقف الفقر فى طريق النجاح أم يدفع اليه ؟

ان الفقر وضيق وقت الفراغ فى مجتمع اشتراكى يسببان عقما مهلكا لتلك القلة القليلة من الناس التى وهبها الله القدرة على التفكير والتدبير والتى بدونها تصبح الاشتراكية ضربا من ضروب المستحيل •

أما اذا كنت تقصد الافلاس الخفيف الوطء ، فان كل ما أستطيع قوله هو أن مجتمعنا قد نظم بطريقة عشوائية بحيث أصبح من المستحيل أن تقول أيهما أكثر اعاقة لتقدم الكاتب وتطوره : المال أم الحاجة اليه ، اننى لا أستطيع الاقدام على اعادة كتابة **رحلة الحاج وفورس كلافيجرا** بعد عكس وضع الكاتبين من الناحية الاجتماعية أى بتخيلى أن بنيان كان سيدا مقتدرا وأن راسكين كان سمكريا • لكن ربما لا أكون واثقا من أن الحاجة الى المال تشكل عائقا فى طريق رجل فقير أو أن وفرته تفسد رجلا غنيا ، الا أننى فى نفس الوقت متأكد تمام التأكد أن أسوأ الناس حظا هم أولئك الذين ينتمون الى تلك

الطبقة التى تملك مظاهر وتحيزات وعادات الأغنياء دون أن تملك مالهم ، والتى تعانى فقر الفقراء دون أ نتملك صراحة الاعتراف بالفقر ، هؤلاء الذين لا يذهبون الى المسرح لأنهم لا يستطيعون الجلوس فى مقاعد الصدارة ويخجلون أن يراهم الناس فى أعلى المسرح • ان تهبط من أوج مجد البرجوازية وملكية الأرض الى أحط الدرجات التى يكف فيها حفيد الابن الأصغر عن الصراع من أجل المحافظة على المظهر عندما لا يستطيع أن يجعل ٣٠٠ جنيها تبدو وكأنها ٨٠٠ جنيهـا فى أيرلندا واسـكتلندا ، أو الخمسمائة جنيها تبدو وكأنها خمسة آلاف فى لندن ، أن لا تتلقى العلم فى مدرسة عامة أو مدرسة فنية أو جامعة ولكن فى أكاديمية رخيصة خاصة بأبناء السادة ، أن تبعد الفقراء عن قائمة زياراتك ثم تجد بعد ذلك أن بقية العـالم يبعدك : هـذا هو الفقر فى ألعن درجاته • الا أنه رغم ذلك كان نبعا فاض بالكثير فى أدبنا وصحافتنا • فكر فى اذلال كبرياء الصبى ديكنز وهو يعمل فى مستودع دهان الأحذية ، وفيما سببته له أمه من استياء لازمه طوال حياته عندما طلبت منه أن يستمر فى ذلك العمل • فكر فى ترولوب وهو يذهب الى احدى مدارس الطبقة العليا مرتديـا بنطلونا ممزقا ذلك لأن أباه لا يستطيع أن يقنع نفسه بالاستغناء عن أحد الخدم • آه ! كن أفاقا أو كن مليونيرا : كلاهما لا يعنى الكثير • أما ما يعنى فهو أن تكون فقيرا ذا أقارب أغنياء ـــ وهذا هو البلاء نفسه •

وأتت الشيوعية لنجدتى • فمع أننى كنت خاوى الوفـاض تقريبا الا أنه كان فى متناول يدى ــ دون دفع ايجار أو مرتب خدم ــ ملكية رائعة فى بلومزبرى ومعرض صور لا يقدر بثمن فى ميدان ترافلجار وآخر فى ساحة هامبتون • ولقد منحتنى الطبيعة من المقدرة العقلية ما مكننى من الاستفادة بكل هذا الثراء • أما عن الموسيقى كمهنة فقد حصلت فى الواقع على مقابل فيما بعد وذلك عندما ارتويت بأفضلها من أول لندن حتى بافاريا • أما عن الأصدقاء فقد كانت قائمة زياراتى لا تقدر بثمن !

وعلى أية حال مـاذا كنت أستطيع فعله بنقود تزيد عن حاجتى للطعام والكساء والمسكن ؟ سجائر ؟ أنا لا أدخن • خمر ؟ أنا لا أشرب • ثلاثين حلة من فاخر الثياب ؟ اننى لأ أقبل أى دعوة عشـاء توجه الى من أنـاس يؤمنون بارتـداء مثل تلك الأشياء • اننى أستطيع شراء كل هذه الأشياء حاليا • لكنى لا أشترى شيئـا لم أشـتره من قبل • زد على ذلك أننى أملك خيالا • وكان كل ما يجب على فعله منذ وعيت الذاكرة هو أن أغمض عينى كى أصبح ما أبتغى وأفعل ما أشاء • أى لذة أجدها أنا ، جورج برنارد ساردانابلوس ، فى مباذخ شارع بوند ؟ لقد استنفذت كل أحلام اليقظة الرومانسية قبل أن أبلغ العاشرة من العمر • ان كتاب قصصكم المشهورين يكتبون الآن قصصا كنت أحكيها لنفسى قبل أن أبدل أول مجموعة من أسنانى •

سأحاول يوما أن أضع أسسا أصيلة لسيكولوجية الفن الروائى وذلك بأن أكتب تاريخ حياتى كما أتخيله : المبارزات والمعارك وجولات الغرام مع الملكات وما الى ذلك • وتكمن الصعوبة فى أن الجزء الأكبر من هذا التاريخ مثير جنسيا وبطريقة غير مهذبة ، وهذا ما يجعل نشره شيئا غير محبب لنفس أى كاتب يتمتع بشىء من الكياسة والرقة (عندما كتبت هذه الكلمات عام ١٩٠١ لم أكن أتخيل أن كاتبا مجردا تماما من الكياسة كسيجمند فرويد يمكن أن يظهر بين الناس بل ويبلغ من الشهرة والمقدرة على التنوير — بسبب نقص فيه — ما قد يبلغه رجل أعمى بكتابة مقالات عن فن التصوير) •

ما رأيك فى الصحافة كمهنة ؟

الصحافة اليومية لكونها فوق طاقة البشر وتحملهم تعود الأديب على ترقيع عمله • لكنه من الممكن على الأقل كتابة المسلسلات الأسبوعية • لقد واظبت على كتابة احداها لمدة عشر سنوات متحملا كل ما أستطيع تحمله من معاناة فى سبيل الوصول الى عمق كل جملة أكتبها • وهناك طيش لا يمكن وصفه — طيش وليس تفاهة — شىء عفريتى فى النتائج التى قد يتوصل اليها كاتب يحاول الغوص الى أعماق الحقيقة • ان أنصاف الحقائق مناسبة وثقيلة وجادة وتدل على أن كاتبها فيلسوف كبير أو متوسط السن أما الحقيقة الكاملة فلا تخطر غالبا الا على بال

طفل أو معتوه • وعندما يشق المفكر طريقة اليها بكل ما أوتى من حنكة وثقافة فانها تثير الدهشة والضحك معا •

لقد كانت عشر سنوات فى مثل هذا العمل كافية لأن تجعلنى أستاذا فى مهنتى • لكنها لم تكن صحافة يومية وما كان بمقدورى أن أجيد لو أقدمت على كتابة أكثر من مسلسلة واحدة • وما كان باستطاعتى أن أكتب حتى تلك المسلسلة لو لم أندمج كلية طوال بقية الأسبوع فى عديد من ضروب النشـــاط الأخرى : كسب مقدرات أخرى واغتراف كل ما يمكن اغترافه من الحياة والتجربة أيضا • لقد بدأت عملى فى الصحافة عام ١٨٨٥ بمرتب قـــدره مائة وسبعة عشر جنيها وثلاث بنسات • وتركتها ومرتبى قدره حوالى خمسمائة جنيها ، وكنت قد بلغت السن الذى نكتشف فيه أن الصحافة مصدر من مصادر الكسب بالنسبة للشباب لكنهـــا ليست سبيلا من سبل العيش بالنسبة لرجل عجوز • وعلى ذلك فانى أقول مختتما هذه النقطة ان الصحافة حتى الأسبوعية منها تتطلب طاقة لا تتوافر الا للشباب ومن ثم فانه من الخطـــأ أن يحاول من تقدم بهم السن أن يجيدوا أو أن يبرزوا فى ميدانها ، كما يجب على الشباب أن يحيوا حياة بسيطة رخيصة اذا أرادوا أن يكون لهم من الارادة مـــا يمكنهم من أن يعبروا بحـــرية عن أفكارهم وهم بالطبع لا يفعلون شيئا من هذا القبيل • ولو فعلوا ذلك لصقلت الصحافة موهبتهم الأدبية أكثر مما يستطيع أى شىء آخر أن يصقلها • أقول « لو » ولكن هذا لا يحدث • انها تفسدهم

بدلا من أن تصقلهم • ولو أردت عرض مشكلة لوجدت من بين الصحفيين من يملك الخبرة والمقدرة على عرضها وتقديم ما يقرب من أن يكون أفضل حل لها • لكنه رغم ذلك لا يقدم حلا على وجه الاطلاق ذلك لأنه لا يملك الوقت ، وحتى لو توفر له الوقت فانه لن يتقاضى أجرا على تقديم الحل • ولذا نراه يدون المشكلة ويهرب من حلهـــا •

هل كنت نباتيا طوال حياتك ؟ وكيف كان ذلك ؟

لا : لقد أكلت اللحم لمـــدة خمســـة وعشرين عاما وبعدها أصبحت نباتيا حتى آخر أيام حياتى • كان شيللى أول من جعلنى أدرك مقدار الوحشية المتوفرة فيما أتناوله من طعام ، لكن التغيير لم يكن عمليا بالنسبة لى حتى عام ١٨٨٠ أو ما يقاربها عندمـــا أقيمت مطاعم النباتيين فى لندن •

ولقد كان لاكتفائى بالأطعمة النباتية أثر غريب على نقادى • قد تقرأ مقالة المقصود منها أن تكون عرضا وتقييما لآخر كتاب لى ، لكنك تكتشف أن ما يفعله الناقد ما هو فى الواقع الا دفاع عن حياته الخاصة ضد حياتى وأن ما تقرأه ما هو الا دفاع من أجل الحياة لرجل مجروح من صميم الفوائد • ويحاول النقاد فى مهابة أن يستمروا فى الكتابة لكن منظر الدم يخنقهم ، بينمـــا تتراءى لهم صورة الجثة المرعبة فى أدغال سوق فارينجتون • ان كل هذا العار المقيت ما هو الا توبيخ ضمير رجل من أكلة اللحوم

فى حضرة رجل يعتبر برهانا على أن السمك واللحم والدجاج ليسوا من ضروريات النجاح فى الحياة والأدب •

أما عن الأشياء الأخرى التى أولع بها فهم يألفونها وغالبا ما يشاركون فيها • اكنها مسألة احساس بالجرم •

هل أحدثت الحياة الزوجية تغييرا فى آرائك ؟

ما هو مفهومك للحياة الزوجية ؟

الحياة الزوجية الحقيقية هى حياة الفتى والفتاة اللذين يقطفان زهرة ويقبلان بتحمل المسئولية ثلاثين عاما من العمل المضنى وبعدها يستريحان كربى بيت • ماذا يستطيع رجل مثلى مستقل الدخل ، تزوج فى الأربعين ولا أطفال له ، أن يقول لك عن الزواج ؟ أنا لا أعرف عنه شيئا الا كمتفرج •

ما هو رأيك الصادق فى جورج برناردشو ؟

آه ، انه واحد من أنجح أعمالى الروائية ، لكنى أظن أنه قد أصبح متعبا بعض الشىء ، ان جورج برنارد شو يضجرنى ما لم يقل شيئا يستحق أن يقال ويحسن قوله بطريقة (ج • ب • شو) •

ان جورج برناردشو دجال •

ما هو تعريفك للفكاهة ؟ •

كل ما يثير الضحك لكن أرفع أنواع الفكاهة هو ما يثير الضحك والدموع معا •

أريد كلمة واحدة عن معنى الكوميديا العالمية من وجهة نظرك .

ان ذلك الطلب الأحمق للمعنى هو الذى ينتج الكوميديا ، انك تطلب لها تفسيرا فى كلمة واحدة مع أنه يلزمنا من الآن ما يزيد عن المليون عاما حتى نستطيع أن نرى العالم كما هو . اننا ما نزال فى مرحلة الطفولة الفكرية . ربما يكون هذا هو السبب فى أن تعبيرات وجه الطفل توحى بصورة فيلسوف محترف . ان صراعه فى سبيل الوصول الى حالة من الوعى الجسدانى يستغرق كل طاقته فهو يحاول أن يتعلم كيف يفسر احساسات عينيه وأذنيه وأنفه ولسانه وأطراف أصابعه . انه يبتهج ويفزع لأتفه الأسباب . حسنا اننا مازلنا أطفالا فى عالم الفكر كما كنا ونحن فى الثانية من عمرنا فى عالم الحس . نحن لا نرى الرجال على حقيقتهم : انهم أبطال أو أوغاد ، أشخاص مبجلون أو مجرمون ، صفاتهم هى الفضائل والرذائل ، والقوانين الطبيعية التى تحكمهم هى الآلهة والشياطين ، ومآلهم هو الثواب والاستغفار ومنطقهم استقراء للأسباب والمسببات وغالبا ما يكون معكوسا . يأتوننى وقد امتلأت رؤوسهم بتلك الأوهام التى يسمونها « العالم » ثم يسألوننى عن معناها كما لو كنت أنا أو أى شخص آخر يستطيع أن يفسر لهم كل ما غمض عليهم . أليس هذا مضحكا ؟ ولكن الملهاة تنقلب الى مأساة عندما يحرقون ويعاقبون ويقتلون ويشنون الحرب ، ليفرضوا بالقوة دياناتهم السخيفة وشرائعهم

الاجرامية البشعة انهم يرغمون الجيش والأسطول والكنيسة والقضاء والمسارح ودور السينما والمكتبات والنقابات على مساندتهم فى تدعيم أوهامهم التافهة .

كفى . انك تتوقع منى ثرثرة عن المطلق والحقيقة والباعث الأول ومسببات كل الأشياء . اننى ألقى بالكتاب فى سلة المهملات اذا ما وجدت فيه أمثال هذه الكلمات .

عم صباحا .

لندن :
١٩٠١

(١٠)

كيف أصبحت خطيبا

فى شتاء عام ١٨٧٩ فرض على « جيمز لكى » وهو صراف بديوان المالية كل المواد التى يهتم بها وهى فن الاصطلاحات الصوتية ولغة أهل جبال اسكتلندا ، ودفعنى الى حضور اجتماعات جمعية المناظرات التى كانوا يطلقون عليها اسم « زنتكال » وهى صورة مصغرة لما كان يعرف جيدا باسم الجمعية اللغوية التى أسست لتناقش مقالة جون ستيورات ميل عن الحرية • وفى كلا الجمعيتين كانت آراء ميل تحظى بتأييد قوى • كما كانت حرية المناقشة مكفولة تماما سواء كانت فى أمور السياسة أو الدين أو الجنس • ولقد قامت النساء بدور بارز فى المناظرات ، كان من أهم ملامحه مناقشة كل متحدث بعد أن ينتهى من القاء كلمته • كانت النغمة السائدة تتميز بقوة فرديتها والحادها واعتناقها الآراء مالثس واينجر سول وداروين وهربرت سبنسر • بالاضافة الى الملم كل الأعضاء بكتابات هسكلى وتندال وجورج اليوت • ولم يكن من السهل اسكات أصوات المطالبين بقانون حماية أملاك المرأة المتزوجة حتى بعد صدور القانون نفسه ، كما كان الاستياء على أشده بسبب ما يلاقيه الخارجون على أمور الدين من اضطهاد • وللتنديد بمثل تلك القضايا لم تكن هناك

كلمات أقوى من كلمات « آنى بيسانت » ، و « شيللى » اللذين حرمهما قاضى القضاة من حضانة أطفالهما بحجة أنهما عن يقين ملحدان وعلى ذلك فهما لا يصلحان لتربية صغارهما • وكانت اشتراكية « روبرت أوين » تعتبر بالنسبة للأعضاء سفسطة مرفوضة ، اذ كانوا يؤمنون بضرورة الحرية الفردية التى نادى بها « كوبدين » فى مجال الصناعة • ولم يكن أحد يحلم أنه فى خلال خمس سنوات سوف تنتزع الاشتراكية الماركسية كل شباب الجيل الجديد وتدفع بالجمعية اللغوية وجمعية « زنتكال » الى كهف دائم الاظلام •

عندما ذهبت مع « لكى » الى اجتماع الزنتكاليين لم أكن قد تحدثت من قبل أمام الجمهور ، كما أننى لم أكن أعرف شيئا عن الاجتماعات العامة أو نظامها • كان مظهرى يدل على صلابة وقلة حياء الا أننى كنت فى الواقع جبانا شاردا ، عصبيا وحساسا الى درجة محزنة • ورغم ذلك لم أستطع أن أمسك عن الكلام اذ نهضت وقلت شيئا فى المناظرة وشعرت بعدها أننى قد جعلت من نفسى أضحوكة للآخرين وهذا ما حدث فعلا • ولقد اعترانى من الاحساس بالخزى ما جعلنى أقسم بأن أنضم الى الجمعية وأن أذهب اليها كل أسبوع وأن أتحدث فى كل مناظرة حتى أصبح خطيبا أو أهلك فى المحاولة ونفذت هذا القرار • كنت أتابع المتحدثين فى اصرار وكان قلبى يدق فى عنف تماما كما لو كان قلب جندى ذاهب الى الميدان لأول مرة • ولم يكن باستطاعتى أن

أستخدم المذكرات المدونة : ذلك لأننى كنت أفقد السيطرة على نفسى وأنا أقرأ الكلمات المكتوبة • ودائما مـا كنت أنسى أهم النقاط التى ارتكز عليها وأنا أمارس هذا العمل المروع •

لا بد وأننى أثرت كراهية أعضاء الجمعية فقد كنت أبدو لهم هادئا متكبرا لدرجة دفعتهم الى أن يطلبوا منى فى الاجتمـاع الثالث أن أصعد الى منصة الرئاسة • ووافقت فى الحال كما لو كنت خطيب مجلس العموم • وربما أدرك السكرتير الأول وهلة مقدار ما أخفيه من فزع عندما رأى يدى وهى ترتعش الى حد أننى لم أستطع أن أوقع على تفصيلات محضر الاجتماع السابق الا بصعوبة بالغة • الا أن خشية أعضاء الجمعية من خطبى كانت أقل بكثير من خشيتى أنا منها • لكنى لاحظت أن لكلماتى صدى يصعب تجاهله ، ذلك لأن خطيب المساء كان فى العادة يكرس حديثه للرد على ملاحظاتى التى غالبا ما أساء فهمها • أضف الى هـذا أنه بالرغم من جهلى بالاقتصاد الا أننى قرأت فى صباى كلمات وكتابات « ميل » عن الحرية والحكومة الدسـتورية والقضـية الأيرلندية • كما أن المامى بداروين وتيندال وجورج اليوت كان كالمام أغلبية المستمعين • ومع ذلك فقد كنت أثير كل موضوع من زاوية غير مطروقة مما يدعو المستمعين الى اعادة التأمل والتفكير • ولاقيت أول نجاح لى عندما خصصت الجمعية أمسية كاملة للفن • وألقت فيها سيدة ــ ممن يتبعون أحدث الصـيحات الجمـالية السـائدة حينذاك بين أنصـار موريس ــ مقالة عن الفن الذى

لا يعرف عنه أعضاء الجمعية شيئا على وجه الاطلاق • ومسحت الأرض بتلك الندوة • وقد أعترف لى أعضاء كثيرون فيما بعد بأن هذا الدور الذى قمت به هـو الذى جعلهم يعيـدون النظر فى الاحساس الاول الذى كونوه عنى كمغفل مشاكس مغرور •

وواظبت بعناد • أكثرت التردد على كل الاجتماعات فى لندن حيث كانت المناظرات تتبع المحاضرات • تحدثت فى الشوارع وفى الحـدائق وفى الاضرابات وفى أى مكان وكل مكان يمكـن للانسان أن يتحدث فيه • باختصار غزوت كل الاجتماعات العامة كما لو كنت ضابطا أصابه الجبن فأصر كلما سنحت له الفرصة على أن يقتحم خط النار كى يتخلص من جبنه ويتعلم درسه •

قضيت أمسيات أدبية هادئة فى لقاءات « ندوة شكسـبير الجديدة » بالكلية الجامعية ، وأمسـيات أخرى أكثر اثارة مـع أعضاء « جمعية برونينج » وكان « ف • ج • فيرنفول » يرأس كلتا الجمعيتين • ولقد اشتهرت جماعة برونينج بعدد من المتأنقين أصحاب الشعور الطويلة لكنها كانت فى الواقع جمعية دينيـة تؤمها مجموعة من المنشقين على الكنيسة حيث تناقش العجائز من سيدات المذهب التبشيرى عقيدتهن مع فيرنفول ذلك الكاهن العضل الذى لم يكن ليغفر للمسيح عدم دخوله فى معركة ساعة القبض عليه فى الجثمانية (١) • وعندما أسس فيرنفول « جمعية

---

(١) الحديقة التى اعتقل فيها المسيح خارج القدس •

شيللى » التحقت بها • وفى أول اجتماع عام لها أعلنت أننى مثل شيللى اشتراكى وملحد ونبـــاتى • وقدمت سيدتـــان من أتباع برونينج استقالتهما فى الحال • ولقد استمتعت بالاشتراك فى جمعية مناظرات أخرى تعرف باسم « جمعية بيدفورد » وهى الجمعية التى أسسها ستو بفورد بروك قبل أن يعتزل وظيفتـــه كراع لأبرشية بيدفورد ويكرس نفسه للعمل فى مجال الأدب •

اشتركت فى مناظرات كل هذه الجمعيات • وزالت عصبيتى الزائدة عن الحد • ولقد حدث أن كان من بين الاجتماعات التى أكثر من التردد عليها عام ١٨٨٤ اجتماع بالصالة التذكارية بشارع فارينجتون حيث كـــانت تعقـــد ندوات المنشقين على الكنيسة الرسمية • كان متحدث المساء هنرى جورج ــ وهو أمريكى غاية فى الأناقة والبلاغة ــ رائدا أمريكيا فى مجال الدعوة الى تأميم الارض واتباع نظام الضريبة المفردة (٢) • ولقد سحرنى بأناقته وبلاغته ودفعنى الى الخروج من ساحة المجادلات اللا أدرية العقيمة الى ساحة علم الاقتصاد • قرأت من مؤلفاته **التقدم والفقر** • وذهبت الى اجتمـــاع هيندمان ، وهو تحـــالف بين الماركسيين والديمقراطيين ، حيث أعلنت احتجاجى على الموقف الغير ودى الذى اتخذوه تجاه جورج • وطردونى من الاجتماع محقرا مهانا ، ذلك لأننى كنت أبدو فى نظرهم مجـــرد شخص

---

(٢) ضريبة تفرض على شىء واحد وبخاصة الارض وتشـــكل المورد الوحيد للدولة .

مبتدىء وجاهل بما خطه كارل ماركس من آراء رائعة فى الجزء الأول من كتاب **رأس المال** •

وقرأته فى الحال وعدت لأعلن أننى قد اهتديت بما قرأت • وفى الحال تحول الاحتقار الى فزع ذلك لأن أتبـــاع هيندمان أنفسهم لم يكونوا قد قرأوا الكتاب الذى لم يكن ميسرا الا فى ترجمة فرنسية لديفيل وكانت تلك النسخة موجودة فى قاعـــة القراءة ــ مأوى اليومى ــ بالمتحف البريطانى • ولقد أصبحت منذ تلك الساعة خطيبا له رأى ومنهج ، ولم أعد مجرد مبتـــدىء يحاول السيطرة على فن مخاطبة الجماهير •

وفى الحال تقدمت بطلب لعضوية « اتحاد الديمقراطيين » • لكنى سحبت طلبى عندما اهتديت الى مقر « الجمعية الفابية » التى تكونت حديثا والتى تعرفت فيها على مجموعة مثقفة من مفكرى الطبقة المتوسطة وهى الطبقة التى أنتمى اليها ، وأفضلها على أى طبقة أخرى • أما عن طائفة هيندمان من العمال أصحاب التعاليم الماركسية المزيفة فلم تعد بالنسبة لى سوى عقبة يجب التخلص منها • وبعد اعتناقى للاشتراكية الماركسية ذاع صيتى كداعية من دعاتها ، ولم أعد فى حاجة للبحث عن جمهـــور المناظرات : لقد بدأ الجمهور نفسه يبحث عنى ولقد حدث هـــذا عندما قبلت دعوة من نـــاد للراديكـــاليين كى أحـــاضرهم فى « وولويتش » • ولقد فكرت فى بادىء الأمـــر أن أعتمـــد على محاضرة مكتوبة ، اذ بدا لى أنه من الصعب أن أتحدث لمدة ساعة

كاملة دون أن أرجع الى نص مكتوب ولم أكن قد تعودت الحديث فى المناظرات لأكثر من عشر دقائق • لكن اذا كان على أن أحاضر رسميا عن الاشتراكية لمدة ساعة فان الكتابة تصبح متعذرة لضيق الوقت : كان على أن أرتجل • اتخذت من كلمة « اللصوص » عنوانا للمحاضرة وحاولت أن أبرهن على أن صاحب الدخل الذى لا يقدم مقابلا لدخله يسىء الى المجتمع بنفس الدرجة التى يسىء بها اللص اليه • وتحدثت بسهولة لمدة ساعة • ومن بعدها تعودت دائما أن أرتجل الحديث •

واستمر هذا النشاط لمدة اثنتى عشر عاما حاضرت خلالها عن الاشتراكية بمعدل ثلاث مرات على الأقل كل أسبوعين • تحدثت كلما وأينما دعيت • وكان مبدئى هو أن أتحدث أولا لمن يطلبون أولا : عندما كان يقدم لى طلب كى أحاضر كنت أعطى الطالب أول ميعاد شاغر لدى سواء كانت المحاضرة فى ركن أحد الشوارع أو فى صالة حانة أو فى السوق أو فى قسم الاقتصاد بالجمعية البريطانية أو فى معبد المدينة أو فى مخزن أو حجرة صالون • وتراوح عدد المستمعين بين العشرات والألوف • وكثيرا ما توقعت المعارضة ، لكنها كانت نادرة • الا أننى كنت على وشك دخول السجن مرتين ، وذلك بسبب المشاكل التى أثارها رجال البوليس وهم يحاولون منع الاجتماعات التى يعقدها الاشتراكيون فى الشوارع (ودائما ما كانوا يفشلون فى النهاية ، اذ أن الطوائف الدينية التى كانت تزاول نشاطها بنفس الصورة كانت تساعد

الاشتراكيين فى مقاومة البوليس) : كانت المرة الأولى فى مخزن أدوات ترميم المراكب بشارع دود حيث استسلم رجال البوليس صباح اليوم الذى تطوعت فيه بتحديهم • وكانت المرة الثانيـــة بعد عدة سنين فى « تشيلسى » حيث ثار بينى وبين عضو جمعية اشتراكية مناهضة حوار حول رمز وشرف الاستشهاد • وعند الاستفتاء على نتيجة الحوار هزمنى خصمى بصوتين وقد ارتحت لذلك فى قرارة نفسى • ولقد استمرت أول خطبة لى صباح يوم أحد أربع ساعات فى الهواء الطلق أمام جماهير ترافورد بريدج فى مانشستر • كما ألقيت واحدا من أفضل أحاديثى فى هايـــد بارك تحت سيل من المطر وكان جمهورى يتكون من ستة من رجـــال البوليس أرسلوا لمراقبتى بالاضافة الى سكرتير الجمعية التى طلبت منى الحديث وقد نشر مظلته فوق رأسى • وقررت أن أثير اهتمام هؤلاء الستة من رجال البوليس • فبالرغم من أنهم كانوا مكلفين بالاستماع الى الا أنهم كالعادة لم يعيرونى أدنى اهتمام بعد أن اقتنعوا بأننى غير ضار • ومازلت أستطيع كلما أغمضت عينى أن أرى معاطفهم الواقية وهى تلمع تحت المطر •

ولم يحدث مطلقا أن تقـــاضيت أجرا مقابل مـــا ألقيه من أحاديث وغالبا ما عرضت على جمعيات الاحد الاقليمية مبلـــغ العشرة جنيهات التى تدفعها عادة مقابل هذا النوع من المحاضرات بشرط أن أتجنب الخوض فى شئون السياسة والدين • وكان ردى الدائم أننى لا أحاول مطلقا أن أجادل الا فيمـــا يختص بأمور

السياسة والدين وأن الأجر الذى أتقاضاه هو مجرد ثمن تذكرة السفر بالدرجة الثالثة لو كان المكان يبعد كثيرا بحيث لا أستطيع السفر على نفقتى الخاصة • ولقد أكدت لى جمعية الاحد أنه يمكننى بهذه الشروط أن أتحدث عما أشاء وكما أشاء•ولكى أتجنب احراج المحاضرين الآخرين الذين يتكسبون بما يقولون كان الحساب يسوى بطريقة الأخذ والعطاء : بمعنى أن أتقاضى الأجر والتكاليف المعتادة ثم أردها كهبة للجمعية • وبهذه الطريقة ضمنت حرية الحديث كاملة وحصنت نفسى ضد تهمة احتراف اثارة الشغب • ولقد حدث فى انتخاب ١٨٩٢ على سبيل المثال أن قام رجل أثناء القائى خطابا فى قاعة المدينة بدوفر وطلب من الحاضرين ألا يستمعوا لمثير شغب مأجور من لندن • وفى الحال عرضت عليه أن يشترى ما سيدفع لى من أجر بخمسة جنيهات وعندما تردد خفضتها الى أربعة ثم عرضت أن أجعلها خمس شلنات ــ نصف جنيه ــ شلن ــ ست بنسات • وعندما رفض الشراء حتى بمجرد بنس واحد أعلنت أنه لابد وأن يعرف تماما أننى قد وصلت على نفقتى الخاصة • ولو لم يكن بمقدورى أن أفعل ذلك لكان من المحتمل أن يفشل الاجتماع الذى كان صعبا وعدائيا (اذ أن دوفر دائرة انتخابية فاسدة وسيئة السمعة) •

ولقد أدركت كم كان هذا التطوع الكامل ضروريا وأنا أرقب سلوك خطيب محترف استأجرته « جمعية دوق أرجيل للحرية والدفاع عن الملكية » بثلاثة جنيهات فى الأسبوع كى يتبعنى

ويخطىء آرائى أينما ذهبت ، ولسفرنا سويا نشأت بيننا علاقة طيبة • كان دائما يلقى نفس الحديث وكنت دائما ألقى نفس الرد المفحم • وعندما انفك اسار الجمعية التى استأجرته جاء يعرض خدماته على الجمعية الفابية • ولقد أصابته الدهشة عندما علم أن المتحدثين الفابيين لا يتقاضون أجرا وأننى كنت فى الواقع أحاضر بلا مقابل •

ولقد غامرت ذات مرة وبنجاح فى القيام بخدعة مثيرة فى اجتماع عقد ــ لتأييد حق المرأة فى الانتخابات ــ بقاعة سانت جيمز فى لندن • اذ حدث قبل أن أتحدث مباشرة أن دخلت مجموعة عدائية ورأيت أن عددنا محدود وأن أى تغيير فى برنامج الاجتماع لن يكون لصالحنا • كان الدخلاء اشتراكيين من مناهضى الفابية يقودهم رجل أعرف جيدا أنه فى تلك الآونة كان مضطربا الى حد الجنون تقريبا بسبب ما يعانيه من مشاكل خاصة وما يواجهه من مشاغبات عامة • وطرأ لى خاطر وهو أن نحرضهم على فض الاجتماع بطريقة تسىء الى سمعتهم بدلا من أن نسمح باجراء تعديل يمس كرامتنا • والقيت خطابا استفزازيا تسيطر عليه نغمة الاثارة والتحدى مما جعل قائد المجموعة ــ وقد صعقته الكلمات بطريقة ما كان ليتحملها ــ يندفع الى المنصة كى يرد على حديثى • وفى الحال اقتحم أنصاره المنصة ظانين أنه يقود هجوما وفضوا الاجتماع ثم عقدوه ثانية بعد أن نصبوا قائدهم رئيسا للجلسة • وعندئذ طلبت منهم أن يستمعوا الى وقد استجابوا

لذلك كنوع من الانصاف ، وكان هذا مكسبا آخر لى مما أرضانى الى حد كبير • ورغم أنه فى هذا الاجتماع لم توجه أى ضربة ولم يحدث أى ضرر ، الا أن صحف الصباح التالى طالعتنا وقد وصفت منظرا كله عنف وتخريب ، مما لا يرغب فى أكثر منه أشد التلاميذ حبا للعراك •

لم أتحد أحدا على وجه الاطلاق فى مناظرة علنية ، اذ بدا لى أنه ليس من العدل أن يقوم خطيب جماهيرى محنك بتحدى خطيب مبتدىء نسبيا الى مبارزة باللسان لم تكن لتزيد فى قيمتها عن أى نوع آخر من انواع المبارزات • لكنى أشعر الآن بالأسف لعدم اقامة المناظرة التى حاول أن ينظمها الحلف الاشتراكى بين تشارلز برادلف وبينى وقد كنت أنا نفسى ما أزال مبتدئا آنذاك • لقد كان برادلف بطلا فذا ذا مقدرة صاعقة فى الحديث والاقناع • كنت بالتأكيد سأبدو كمجرد ملاكم خفيف الوزن وهو يحاول أن يهزم وزنا ثقيلا لم يخسر مباراة واحدة : لكنى على الأقل كنت سأتمكن من أن أقول كلمتى • لقد دعاه « الحلف الاشتراكى » الى الاشتراك فى مناظرة واختارنى الأعضاء ممثلا لهم رغم أننى لم أكن عضوا • وانتابنى الفزع ، لكنى لم أستطع الانسحاب • وعلى أية حال لقد اشترط برادلف أن أرتبط بكل مواثيق الاتحاد الاشتراكى الديمقراطى وهو هيئة تناهض الفابية مناهضة قوية • كان الواجب على بالطبع أن أدعه يملى ما يشاء من شروط ثم أضرب بها عرض الحائط ، لكنى لم أدرك ذلك بسبب حداثتى •

ولقد اقترحت ببساطة أن يكون موضوع المناظرة هو : هل تفيد الاشتراكية الشعب الانجليزى ؟ واشترط لكى يقبل هذا الموضوع أن يكون تفسيرنا للاشتراكية مطابقا لتفسير « جماعة هيندمان » • ورفضت هذا الالتزام • ولم تقم المناظرة — وأظن أنه كان يقصد ذلك — وشعرت براحة كبيرة اذ كنت أشك فى مقدرتى على القيام ضده بأى دور فعال •

لم أغفر لنفسى أبدا ضياع هذه الفرصة ، لكنه لم يكن جبنا منى قدر ما كان عدم ثقة كثيرا ما أصابنى فى تلك الأيام المبكرة ، اذ كنت فى الواقع متحدثا أفضل وخصما أصلب مما كنت أظن • ولقد قابلت برادلف من قبل وفى عقر داره بقاعة العلوم فى سيتى رود • كان مقعدى فى المؤخرة ووقفت • لكنى ما كدت أنطق بأول جملتين حتى انتفض برادلف قائلا : « ان السيد خطيب • تقدم الى المنصة » • وتقدمت تحوطنى نظرات ملؤها الاعجاب والاستغراب • وكرس برادلف أغلب وقته للرد على كلمتى • كان من الواضح أن رأيه فى يفوق رأيى أنا فى نفسى • ويسعدنى أن أتخيل أنه رفض مناظرتى لنفس الأسباب التى من أجلها رفض ادمند كين أن يشترك بالتمثيل مع ماكريدى فى مسرحية واحدة • ولقد تحاور وهيندمان فيما بعد فى موضوع « الثمان ساعات كيوم عمل » • كان واثقا من أنه سوف يسحق هيندمان ، لكنهما لم يلتزما بالموضوع ولم يصلا الى نتيجة حاسمة مما أثار حنق أنصارهما • وتقرر اعادة المناظرة على أن تكون بينى وبين

المرحوم : (ج • ف فوت) وهو خليفة برادلف فى رئاسة « الجمعية القومية العلمانية » ومتحدث من الدرجة الاولى • وفى قاعة العلوم تناولنا الموضوع بقوة وعنف كبيرين وتساوينا فى النواحى البلاغية • لكنى فى الاقتصاد كنت أرسخ قدما من «فوت» وأعتقد أنه كان لا بد وأن أفوز لو تم التصويت • ولقد طبعت المناظرة فى كتيب نشره جورج ستاندرينج •

لقد أكسبتنى أحاديثى العامة مؤهلا من أهم مؤهلات العمل السياسى ألا وهو التعود على عمل اللجان ، اذ كنت أختار فى الحال عضوا باللجنة التنفيذية فى أى جمعية ألتحق بها • وفى البداية كنت أفعل غالبا ما يفعله المؤلفون عادة فى فردانيتهم وفوضويتهم البوهيمية عندما يقدمون استقالاتهم اذا ما هزموا لأى سبب من الأسباب • ولقد فعلت ذلك عندما رفضت « جماعة العودة الى الأرض » اقتراحى باضافة الاشتراكية الى برنامجها • ولم أتخذ مثل هذا الموقف بعد ذلك أبدا اذ سرعان ما تعلمت أيضا أن المهيجين من أعضاء اللجان دائما ما يعتقدون وبالاجماع أنه لابد من فعل شىء لكنهم لا يستطيعون تحديد ما يريدون • انهم يتكلمون ويتكلمون ولا يصلون الى أية نتيجة تذكر • وعلى ذلك فالعضو الذى يحتفظ برأى محدد ولا يعرضه الا اذا ارتبك الآخرون تماما ، يصبح سيدا للموقف حتى اذا لم يوافقه أحد فيما يقول • وبهذه الكيفية يصبح الفرد الذى لا يؤيده أحد قائدا • وغالبا ما كنت هذا الفرد •

ان نقص الخبرة بأعمال اللجان وفن مخاطبة الجماهير يصيب المفكرين بعجز لا ينجو منه حتى أعظمهم موهبة وأثراهم خيالا ويمكن التدليل على ذلك بحالة (هـ . ج . ويلز) الذى خضت معه مناظرة مشهورة عندما حاول أن يسيطر على الجمعية الفابية بضربة واحدة . كانت لى خبرة عشر سنوات كمتحدث ورجل لجان بينما كان ويلز مجرد مبتدىء . وليس مهما أن أقول أننى قضيت عليه تماما : لقد وفر على المشقة وقضى على نفسه . اذ لم يستطع الا أن يسىء السلوك والتصرف ومن حسن حظه أنه فعل ذلك بعنف جامح مما جعل أعضاء الجمعية الفابية يدركون بذكاء حقيقة الموقف ويعلنون — وهم يصرفون النظر عنه كمتحدث لا يطاق — أن تقديرهم له كرائد من رواد الاشتراكية لم يهتز ، كما أن تقديرهم لى كمتحدث فنان لم يزد عما كان عليه .

ويجب ألا أترك الخطباء المبتدئين يفترضون أننى اكتسبت الفن الخطابى بمجرد الممارسة . لقد عالجت الممارسة عصبيتى فقط ولقد عودتنى أن أتحدث للجموع والأفراد على السواء . لقد وصفت فى مكان آخر كيف تعرفت على ريتشارد ديك مغنى الأوبرا العجوز الذى كان يعتقد أنه اكتشف طريقة جديدة فى غناء القصائد لن تمكنه ، عندما يسيطر عليها سيطرة كاملة ، من تجديد حياته الفنية فقط ولكنها ستحدث أيضا تجديدا فى المجال الحضارى . ورغم ذلك مات فقيرا مدقعا فى مستشفى الكلية الجامعية . وعلى أية حال لقد علمنى فى تلك الأثناء أنه يجب على

الخطيب كى يكون مفهوما أن يعيد دراسته لحروف الهجاء وأن ينطق الحروف الساكنة بقوة كل على حدة ، وأن يميز بين الحروف الأجنبية وادغام حروف العلة الانجليزية • وبناء على ذلك أخذت فى التدرب على نطق حروف الهجاء كما يتدرب المغنى على اخراج الطبقات الصوتية المختلفة حتى لم أعـد فى خطر من أن أنطق الحروف والكلمات مدغومة بعضهـا فى بعض ، أو أن أتخيل أن دراسة نطق اللهجات العريضة تقل فى أهميتها عن دراسة فن الخطابة الكلاسيكية • ويجب على المتحدثين الذين يواجهون الجماهير أن يأخذوا دروسا فى الخطابة على يد أستاذ لغويات متخصص اذا مكنتهم الظروف بشرط ألا يبدو هذا كنوع من التكلف فى صناعة الفن • وعلى الممثلين الناشئين أن يتجنبوا الممثل العجوز كما يتجنبون الوباء اذا ما احترف تعليم التمثيل دون أن تكون له دراية بعلم الأصوات •

لم أستطع فى نهاية الأمر أن ألبى كل الدعوات التى كـانت توجه الى • أصبح تكرار نفس الأشخاص ونفس المناقشات أمرا مملا ومتعبا كما غدوت فى خطر من أن أصبح مجرد ثرثار لا يجيد الحديث الا فى موضوع واحد •ولقد رأيت ما فيه الكفاية من مصير منظمى النقابة العمالية الذين بدأوا حياتهم ممتنعين عن تعاطى المسكرات ، ثم أرغمتهم الحـاجة الى أن يغرقوا أنفسـهم فى الشراب كى يستطيعوا اذكاء حماس جمهورهم المتجدد بنفس خطبهم القديمة • وفى عام ١٨٩٥ لم أعد نفس الخطيب المرموق •

لقد انتهيت كنجم من نجوم الخطابة الهواة بعد أن ساءت صحتى وتبعها زواجى عام ١٨٩٨ • ومنذ ذلك الحين وأنا لا أتحدث الا فى المناسبات الخاصة فقط أو فى المؤتمرات العامة للجمعية الفابية أو فى مجلس مدينة سانت بانكراس حيث رشحت عضوا عندما كان لا يزال مجلس كنيسة •

لكنى لم أنس ما اكتسبته من براعة فنية طوال تلك السنين التى مارست فيها فن الخطابة والحديث • لقد لازمتنى هـذه البراعة حتى النهاية ، عندما اعتزلت الاداء عام ١٩٤١ وأنا فى الخامسة والثمانين من عمرى •

(١١)

صداقات مثمرة

بعد عدة أسابيع من التحاقى بجمعية الزنتكاليين استرعى انتباهى متحدث ظهر يوما واشترك فى المناظرة • كان فى حوالى الواحدة والعشرين من عمره ، طوله أقل من المتوسط بقليل ، تتميز قدماه ويداه بصغر الحجم ، ويبدو وجهه من الجانب أفضل من وجـــه نابليون الثالث مع تمتعـــه بنفس الشـــارب والأنف الامبراطورى • كانت له جبهة رائعة ورأس طويل ، وعينـــان تعلوان أنفا وفما فى غاية البلاغة (كما يقول علماء الفرينولوجيا : علماء معرفة قوى النفس بالنظر الى حجم الجمجمة وشكلها) ، وشعر ملحوظ الكثافة والقوة والسواد • كان ملما بكل ما يتصل بموضوع المناظرة • لم يكن فقط يعرف أكثر مما يعرفه المحاضر نفسه ، بل كان أيضا يعرف أكثر ممـــا يعرفـــه أى شخص من الموجودين • لقد قرأ كل ما كتب : ذكر كل الحقـــائق المتصلة بالموضوع ، استخدم عدة ملاحظات مكتوبة قرأها وأنشر عليها ثم رماها الواحدة تلو الاخرى وأنهى حديثه فى هدوء ووضوح خيل الى أنهما يبلغان حد الاعجاز •

كان هذا الرجل هو سيدنى ويب : أكثر رجـــال انجلترا مقدرة ، وكفاءة • وكان أفضل ما تعلمته فى حياتى هو أن فرضت عليه صداقتى وحرصت على استمرارها اذ لم أعد منذ تلك اللحظة

مجرد شخص منشغل بتوافه الأمور بل غدوت طاقة فعالة قادرة يحركها كل من « ويب » و « شو » فى نفس الوقت •

ولقد برهن ويب (الذى أصبح فيما بعد البارون باسفيلد وهو مدفون الآن فى مقابر ويستمنستر بعد أن الححت فى طلب ذلك) على أنه أقدر وأكفأ رجال الادارة والمؤرخين الذين يعملون على تحسين أحوال العالم • ولقد تنبأت بذلك بطريقة أو بأخرى عندماكنت أنا وهو مجرد نكرتين • وكتلميذ لجون ستيوارت ميل استطاع أن يدرك حقيقة أن الملكية الخاصة لمصادر الانتاج مضافا اليها حرية التعاقد لا بد وأن ينتج عنها حكومة تمثل أصحاب رؤوس الأموال • وبناء على ذلك تجد الطبقة الحاكمة نفسها فى مواجهة مباشرة مع الطبقة العاملة وتحل الحرب الطبقية محل الديمقراطية الحقيقية • لقد عرف ذلك كل من آدم سميث ومالثوث وريكارد وأوستنو ماكولى ، لكنهم لم يستطيعوا أن يجدوا بديلا • أما ويب فقد رأى،بوصفه واحدا منكبار الموظفين المدنيين، أنه من الممكن تماما أتخاذ خطوة اصلاحية بديلة وذلك بأن تؤمم الدولة كل مصادر الانتاج وتشرف مباشرة على كل الصناعات الحيوية بها • وكان فى متناول يده قائمة مليئة بالأمثلة الدامغة التى تدل على وجود ونجاح هذا البديل • وعلى هذا الأساس كان ويب اشتراكيا مؤمنا •

وكان الاختلاف هائلا بين « شو » فى حد ذاته وشو بعقلية « ويب » ومعرفته وتجربته فى العمل الرسمى • وبما أننى كنت

وما أزال مشعوذا مسرحيا لا سبيل الى تقويمه ، وبما أن ويب كان من أبسط العباقرة لذا كنت غالبا ما أحتل وسط المسرح بينما يأخذ ويب مكانه الغير مرئى فى كوشة الملقن •

دفعنى تحولى للاقتصاد بواسطة « هنرى جورج » الى الاتصال بمجموعة من الزراعيين يطلق عليها « رابطة اصلاح الارض » ولقد استمر وجودها عدة سنوات بعد أن تغير اسمها الى « الحلف الانجليزى لاسترداد الأرض » • وهنا قابلت جيمزلى جونز أحد أساتذة كلية ايتون ، وسيدنى أوليفير وهنرى هايد تشامبيون ، بالاضافة الى بعض الاشتراكيين من رجال الدين المسيحى من أمثال ستيوارت هيدلام — وسايمز نوتينجهام وسارسون وشاتلورث الذين انتظموا تحت اسم « طائفة القديس ماثيو » • وأذكر أن سايمز كان يقول بأن تأميم الأرض سيجعل كل شىء يستقر وقد أجبته على ذلك بقولى ان ذلك لن يحدث أبدا ، ما دام رأس المال ملكية خاصة وليس ملكا للدولة • أما سارسون فقد قال ، بعد أن اطلع على البند الأول من بنود الكنيسة الانجليزية ، بأن أتباع تلك الكنيسة قوم ملحدون • ولقد أصبح معروفا كزميل لـ « سيسل شارب » بعد أن أعد معه كتابا يحتوى على مجموعة من الأغانى الشعبية لمقاطعة سومرست •

كان جوينز نباتيا محبا للخير العام والاصلاح الاجتماعى ومن أتباع شيللى • ولقد أقصوه عن مركزه فى « ايتون » لأنه قام

بجولة فى أيرلندا مع هنرى جورج وقبض عليهما البوليس معا بعد أن ظن أنهما يمثلان احدى الجماعات المعادية • ولقد تزوجت أخت جوينز من مدير مؤسسة فى ايتون يدعى « سولت » وكان هو أيضا نباتيا محبا للخير العام والاصلاح الاجتماعى ومن أتباع شيللى وديكوينسى • وعلى ذلك فما ان ادخر ما يكفيه ليعيش فى أحد الأكواخ المتواضعة فى الريف ، حتى هجر المؤسسة وترك ايتون ثم أقام بعد ذلك رابطة لمحبى الخير العام والاصلاح الاجتماعى • وتوطدت عرى الصداقة بينى وبينه هو وزوجته التى تعودت أن أعزف معها بعض الألحان الثنائية على أعرق بيانو ينقل من ايتون الى أحد أكواخ « سرى » • ولقد وصفت أول زياراتى لهما فى الريف فى مقاله نشرت فى جريدة « بول مول » تحت عنوان « يوم أحد فى تلال سرى » • كما كتبت العديد من مناظر **مسرحيات مازحة ومسرحيات بلا مزاح** فوق عشب تلك التلال أثناء زياراتى لهما • ومن هنا نشأت الصلة التى تربطنى بالانسانيين ، ومن بينهم « ادوارد كاربنتر » أحد أصدقاء سولت المقربين الذى كنا نطلق عليه اسم « البدائى النبيل » ، والذى كان هو أيضا يعزف بعض الألحان الثنائية مع « كيت » • ولقد دفعنى الى انتعال صندل ولكنى سرعان ما نبذت الفكرة اذ أدمى الصندل قدمى بعد أول مسيرة طويلة •

وفى هذا المحيط لم يكن هناك مجال للحديث عن هنرى جورج أو كارل ماركس ولكن غالبا ما كثر الكلام عن وولت ويتمان

وثوزيو • وكان أسوا ما حدث لهذه المجموعة هو موت جوينز الذى قتله عجز الأطباء عن علاج اعتلال قلبه ونصحهم له بتناول المقويات الكحولية وهى علاج من الواضح أنه فظيع ومهلك رغم أنه ما زال سائدا ولن أغفر لهم هذا الخطأ أبدا • ولقد ترك جوينز بعد موته مجلدا يحتوى على ترجمة ممتازة لمجموعة من الاغانى الثورية التى كتبها الثوريون الالمان عام ١٨٤٨ • ونشر سولت عدة مقالات عن شيللى وجيمز تمسبون وجيفريز ودى كوينسى ثم ختم كتابه بذكريات عن ايتون وترجمة لفرجيل • ولقد كتب سيرته الذاتية تحت عنوان « سبعون عاما بين البدائيين » •

ولنعد الآن لحظة الى « جمعية اصلاح الأرض » حيث قابلت سيدنى أليفير الذى كان هو وسيدنى ويب صديقين حميمين وموظفين كبيرين بمكتب المستعمرات • وعندما أسست الجمعية الفابية عام ١٨٨٤ لفت نظرى اسمها وكتيب نشر عنها تحت عنوان « لماذا تتسم الاغلبية بالفقر ؟ » ولقد حثثت ويب على الانضمام للجمعية بعد أن أقنعتنى كتابات ماركس بأن الحركة ليست فى حاجة الى صاحب نظريات هيجلى بقدر ما هى فى حاجة الى كشف القناع عن الحقائق الرسمية للحضارة الرأسمالية وكان بامكان ويب أن يفعل ذلك • ولقد شكلت أولى مقالاته « حقائق للاشتراكيين » ، بداية طيبة وفعالة للمبادىء الفابية •

أما عن أليفير الذى مات بارونا عام ١٩٤٣ ، فقد جمع بين مقدرة ادارية وحسن طوية يبعدان كل البعد عن الاستبداد بالرأى • ولقد وصفته فى الجزء الذى أسهمت به فى الكتاب الذى نشر عن حياته • ولقد كون أليفير أثناء وجوده فى أكسفورد صداقة مع جراهام دالاس الذى انضم الينا فيما بعد • ولعدة سنين كان ويب وأليفير ودالاس وشو والديمقراطى المحافظ « هيوبرت بلاند » هم قادة الفكر ومخططو السياسة الفابية •

وبما أن رفاقى فى الجمعية الفابية كانوا رجالا على درجة غير عادية من العلم وقوة الشخصية ، فقد استطعت بناء على وجودى معهم أن أكتب بمعرفة وادراك متميزين مما جعل انتاجى الادبى يختلف تمام الاختلاف عن انتاج الكاتب العادى الذى لم يخرج عن نطاق دائرة الأدب • وعلى ذلك فان شو الذى ذاعت شهرته حتى ملأت الآفاق كان فى الواقع مشهورا ومميزا لأنه وجد فى الجمعية الفابية مجموعة ناقدة ناقشت أفكاره وشذبتها بأسلوب لا مثيل له • وعندما كنت أبدو فيما أكتب شديد الأصالة قوى الابداع ، لم أكن فى الغالب الأزيد عن كونى مجرد ناسخ وناقل يتميز ببراعة درامية وأدبية نادرة نماها وصقلها جهد عنيد متواصل •

ولقد خلصنى رفاقى من الكثير من الهراء والجهل والسوقية الريفية اذ كان نقد كل منا للآخر نقدا قاسيا لا يجامل ولا يرحم •

وعلى أية حال لقد كان هناك صراع كبير بين طباع وأمزجة أعضاء القيادة الفابية وكثيرا ما تعـددت الصراعات والانقسـامات فى الجمعيات الاشتراكية الاخرى ، ذلك لأن الانجليز يمليون بطبعهم الى المشاغبة • وأعتقد أننى قمت بدور فعال فى تهدئة هـذه الخلافات بطريقة أيرلندية بدت شديدة الغرابة فى انجلترا • فكلما نشب عراك كنت أتخلى عن الجميع وأركز على المشكلة ذاتها ، أحللها بطريقة تقريرية واضحة وبعبارات ، تتسم بالكثير من المبالغة • وتكون النتيجة أن يتفق الجانبان على أن الخطأ كله يقع على كاهلى • وهكذا شهر الجميع بى كمشاغب عنيد ، لكنهم سامحونى بدعوى أننى أيرلندى مخبول يتمتع بمكـانة مرموقة •

وكثيرا ما أطريت نفسى وأنا أعزو ذلك البقـاء الفـريد للجمعية الفابية فى أيامها الأولى ــ بينما تهاوت جمعيات منافسة كانت تحتقرها ــ ليس فقط الى سياستها ولكن أيضا الى ذلك العنصر الأيرلندى الذى أسهم فى ادارتها •

ويكفينا هذا عن الصداقات الفابية التى أسهمت فى صنع « جورج برنارد شو » المتألق •

(١٢)

هل أنا شخص مثقف ؟

لا أستطيع أن أكرر كثيرا أنه بالرغم من أننى لم أحصل على مؤهلات أكاديمية الا أننى كنت فى الواقع أكثر ثقافة من أغلب الدارسين الجامعيين • لقد نشأت فى بيت يعشق الموسيقى وكانت تلك الموسيقى هى الموسيقى « المدروسة » التى بدأت بـ « هاندل Handel » والموسيقى التصويرية التى بدأها « جلاك Glack » وموزارت Mozart وللاثنين كيان ثقافى فى الفن الحديث لا يستطيع أن ينافسه أدب اللغات الميتة باستثناء تراجم جيلبرت مرى الرائعة والتى تعتبر انجليزية وحديثة تماما كأى عمل مبتكر فى لغتنا • وهى تذكرنا بأن شكسبير أيضا كان مترجما وناقلا للقصص القديمة ولم يكن مؤلفا لها • ومع أن أسرتى كانت تتسم بالتعاطف الا أنه يمكن القول بأنها كانت مجردة من الحب ، لكن هذا لم يكن ليعنى الكثير بالنسبة لطفل استطاع أن يغنى بمهارة قبل أن يتعلم فى الكنيسة أصول الدين وكان فى تلك الأغنيات التى تعلمتها فى طفولتى ما يكفى أى طفل من عاطفة ونبل أحاسيس •

ولم يتوقف هذا التعليم أبدا لقد بدأ من روسينى

Rossini ومايربير Mayerbur وفردى Verdi حتى فاجنر Wagner ومن بتهوفن Beethoven الى سيبليوس Sibelius ومن المخرج البريطاني لهاندل Handel ومندلسون Mendelssohn الى الموسيقي الانجليزية الحقة لادجار Edger وفون ولياعز Vaughan Williams ومن أسلوب النغم الكامل لدبسى Debussy والأسلوب الملون لسكونبرج Schonberg الى تجارب سيريل سكوت Cyril Scott فى الفوضى المنهجية التى بدأت عندما أصبح التتابع المحظور وتنافر الأصوات وغموضها و « العزف الناشز » للنصوص القديمة أحدث الاساليب الموسيقية • ولقد أثبتت أغلب هذه المقطوعات الموسيقية صحة المبدأ الذى نادى به أوسكار وايلد عندما قال : « تجنب أحدث الأساليب والا فسوف يعفو عليك الزمن تماما فى ظرف ستة أشهر • » لقد أرهفنا آذاننا عندما عزف لنا فاجنر فى تانهويزر تساعياته الرئيسية دون اعداد وعندما فعل نفس الشىء فى المقطوعة الثالثة عشر • ان هذه المعزوفات لا تثير أحدا هذه الايام لكنها بالتأكيد أثرت فى أنا الذى أستطيع أن أتذكر أننى قد انفعلت بدرجة بالغة عندما سمعت افتتاحية بروميثيوس القوية لبيتهوفن وهى تبدأ دون سابق اعداد بسابعة منخفضة فى صوت الباص العميق •

ما قولكم فى هذا اذا ما قورن بجعجة الكتب المدرسية ؟

هل باستطاعة أى خريج جـامعى — من ايتون أو هـارو أو وينشستر أو رجبى — حشوا رأسه دون رحمة بفرجيل وهومر وهوراس وجيوفينال أن يبزنى فيما درست ؟ هل تعقيد وخلط أشعار جون جيلبن والملاح القديم بطريقة تبعد كل البعد عن الاتزان النفسى وطبعها فيما يبدو الآن فى صورة شعر يعتبر أكثر تثقيفا من تتبع أسلوب بيتهوفن وهو يحول موسيقى الزخرف الى موسيقى تعبيرية ، ثم أسلوب ذلك العبقرى الفذ موزارت وهو يجمع ما بين الاثنتين ؟ .

سوف يذكرنى البعض بأن هناك موسيقيين جامعيين ، دكاترة فى الموسيقى من أمثال ستانفورد وبارى . لكن هـذه الدرجات العلمية لا تزيد فى تأثيرها عن جعل حامليها يعتقدون بأنهم يؤلفون فى حين أنهم لا يفعلون شيئا أكثر من أن يملأوا أوراق الموسيقى بتقليد لمؤلفين عفا عليهم الدهر ، تاركين فى نفس الوقت أساتذة من أمثال باخ والجار ، وكل منهما لم يتلق درسا واحدا فى فن النغم . لقد علمتنى مربيتى حروف الهجاء ، لكنى لم أتعلم من أحد كيف أكتب مسرحياتى التى نبذت على أنها أعمال غير مسرحية . ولم يتغير هذا الرأى الا بعد أن جنيت من ورائها الكثير من المال وعندئذ فقط قيـل بأننى خليفـة شكسبير .

ان الخبرة الفنية بتطور الفن المعاصر تعتبر أكثر تثقيفا من أى دراسة للوثائق القديمة . ولا يستطيع أى ممتحن مهما

بلغت مقدرته على الحفظ أن يلمس التطور الذى حدث من عهد ايسكلس الى عهد يوريبيديز : كما لمست أنا التطور الذى حدث من عهد دونيزتى الى عهد فاجنر ومن بوجويرو الى جوجوين ومن ليدر الى ويلسون ستير ومونيت ومن كانوفا الى رودين ومن سكرايب وساردو الى ابسن ومن بارى سليفان الى ارفنج ومن كولينسو الى اينج ، ومن تنيسون الى براونينج ومن ماكولى الى ماركس ، ومن ماكس ويسمان الى هربرت دنجل ، ومن تندال الى كلارك ماكسويل وبلانك وأينشتين ومن كنجدم كليفورد الى هاردى : باختصار من عشقى للاستماع مرارا وتكرارا لروائع السابقين الى ذلك الضيق الذى يعترينى كلما فكرت فى التحول المفزع الذى آراه الآن .

ان الامتحانات فى التعليم الأكاديمى أفضل من لا شىء فأى فرد دارس للتطور الذى حدث من عهد أرسطو الى عهد لوكريتيوس ومن أفلاطون وسقراط الى بلوتينس ، ومن ثكيديديز الى جيبون ، ومن بطليموس الى كبرنيكوس ، ومن سانت بيتر الى روبرت أوين ، ومن أكويناس الى هس ولوثر ، ومن اراسموس الى فولتير ، يستطيع على الأقل أن يعرف آخر ما تم تحقيقه وأن يعطى شهادات لمن يملكون المقدرة على استذكار كل ذلك مرة أخرى . لكن العلم الحقيقى يكمن فى التجربة الحية . ان أكثر الخريجين علما قد يصبحون جهلة بلهاء اذا ما اكتفوا بمجرد الدرجات العلمية التى حصلوا عليها حتى ولو تم

حشو رؤسهم بمعرفة سطحية لعدة لغات ميتة وبما لا قيمة له من علم الجبر • ان الاختلاف الحيوى بين القراءة والتجربة لا يمكن أن يقاس بأسئلة الامتحانات • وبناء على قوة هذا الاختلاف أعلن بكل غطرسة وكبرياء أننى من أفضل المثقفين فى العالم وأستبعد بهذه المناسبة ٩٥٪ من المشهورين فى الدراسات الأكاديمية كمجرد مجموعة من الحمقى باستثناء قلة من المواهب التى تستحق الاحترام •

لقد أنقذنى هذا الاعداد السابق من الهلاك فى مجال الادب • وعلى ذلك فعندما رشحنى وليم آرثر كناقد للتصوير ، وكان قد رفض هذا العمل لعدم استعداده له ، انطلقت كما ينطلق الصاروخ • وما زالت كتاباتى عن كل الفنون الجميلة صالحة للقراءة بالرغم من مضى ستين عاما على نشرها ولقد فتحت لى لندن كل أبواب معارضها وحفلاتها الفنية خلال الفترة التى تلت الرفض الاجماعى لما كتبته من روايات • لقد أثارت أفضل رواياتى اشمئزاز القراء المحترفين فى دور النشر ، لكننى وصلت الى قمة الشهرة كناقد دون مقاومة ، بينما لم يستطع الوصول الى ما وصلت اليه كثرة معاصرة من الأدباء المبتدئين الذين تلقوا ما فيه الكفاية من الدراسة الأكاديمية دون أن يتذوقوا الفن ويألفوه فى بيوتهم كما تذوقته وألفته منذ الطفولة •

لقد ارتقت هذه السنين التى قضيتها فى عملى كناقد بثقافتى الفكرية وذلك بأن أرغمتنى على أن أمعن التفكير قبل أن

أصدر حكما وأن أميز بين المواهب المتقدة والأعمال الفنية لمن ذاع صيتهم من المشهورين الذين انتهت شهرتهم بانتهاء حياتهم أو بعد ذلك بقليل ، وبين العبقرية التى خلقت لا لعصر واحد ولكن لكل العصور • لقد استمعت الى أعمال تبشر بالخير من مبتدئين حديثى التخرج ، لكنهم لم يكونوا يعرفون قيمة ما قد تعلموه ولذلك انحط انتاجهم وأصبح مبتذلا بعد ما رفعت عنهم الوصاية التعليمية • ومن خلال هذه التجارب وأمثالها يستطيع الناقد أن يصبح بارعا فى تحليل ما يتناوله من أعمال • والناقد الذى لا يملك المقدرة على التحليل يسهل استغفاله بمنتهى البساطة •

اننى مازلت أتعلم وأنا فى الثانية والتسعين من عمرى •

أما عن اللغات والرياضيات فلم أعد نفسى فيها اعدادا كافيا اننى أستطيع قراءة اللغة الفرنسية بنفس السهولة التى أقرأ بها الانجليزية • وفى ايطاليا وأسبانيا أستطيع أن التقط الأخبار من الصحف المحلية ، كما أعرف من الألمانية ما يكفينى لفهم أغلب الخطابات التى تأتينى ، ولا أستطيع القول بأننى ناجح من الناحية اللغوية فى المحادثة • أما عن الرياضيات فقد أجدت الحساب ككاتب سابق (لست معصوما من الخطأ حاليا) ، لكن المستويات العليا منها تفوق طاقتى • اننى أستطيع أن أفهمها وأتخيلها فقط ولا أدعى أية براعة فيما يختص بها • أننى بليد من الناحية

الفنية لكننى كنت فى أيامى أبدو اذا ما قورنت بغيرى وكأننـــى طاقة خارقة .

واذا كنت فى تعليمى مدينا بالكثير للكتب الشهيرة والصور العظيمة والموسيقى الرفيعة ، الا أنه كان من الممكن أن أصبح أكثر جهلا مما أنا عليه لولا انتقالى وأنا فى سن العاشرة من الشارع الذى ولدت فيه حيث كان منتصفه يواجه حقلا لا تروق رؤيته ، سرعان ما حجبته عنا لوحات الاعلانات . لقد انتقلنا من هذا الشارع الى « توركا كوتدج » : بيت صغير فوق تل دوكى يطل على خليج دبلن من جزيرة دوكى الى هيد هاوث ، وعلى خليج كلينى من الجزيرة الى براى هيد . وفى أسفل التل كان البحر ينبسط شاسعا متقلبا ومن فوقه كانت السماء تمتد بلا حدود .

لم تكن السعادة يوما هدفا من أهداف حياتى ، فأنا مثل اينشتين لست سعيدا ولا أريد أن أكون سعيدا ، كما أننى لا أملك الوقت أو حاسة التذوق التى تمكننى من الاستمتاع بغيبوبة يمكن الحصول عليها بقليل من الأفيون أو بكأس من الخمر ، رغم أننى جربت أفضل أنواعها مرتين أو ثلاث مرات فى الأحلام . لكنى انتشيت فى طفولتى بلحظة سعادة غامرة عندما أخبرتنى أمى أننا سوف ننتقل الى دوكى . وهناك كان على أن أفتح عينى فقط لأرى صورا يعجز أى مصور عن ابداع مثلها . ولم أكن لأصدق أن هذه السماء قد وجدت من قبل فى أى مكان آخر فى العالم حتى قرأت كلمات شكسبير : « هذه السماء المهيبة المنقوشة

باللهب الذهبى » • وعندها تساءلت فى دهشة : أين أمكنـــــه أن يرى مثل هذا المنظر ان لم يكن قد رآه من توركا كوتيدج ؟

لقد أشاع هذا المكان فى نفسى بهجة لا زمتنى طوال حياتى •

أيوت سانت لورانس
٣ أغســـطس ١٩٤٧

(١٣)

ما هى عقيدتى الدينية

لقد أصبحت بحكم تعميدى فى طفولتى واحدا من أعضاء الأسقفية البروتستانتية لكنيسة أيرلندا • لكنى لا أستطيع أن أومن بأكثر من مذهبين من مذاهب تلك العقيدة (عشاء القديسين الربانى والخلود ما بعد الموت) وايمانى بهذين المذهبين ايمان غير تقليدى • كما أننى لا أومن ببنودها التسعة والثلاثين التى وضعت لضمان السلام والهدوء السياسى كنقطة تلاق بين كل من الروم الكاثوليك والمتطهرين ، اذ أن الآراء التى تحتويها هذه البنود تتضارب مع بعضها البعض تضاربا يجعلها غير مقبولة لمن يملكون المقدرة على التفكير بطريقة منطقية • لكنى أوافق على قانون الايمان المنسوب الى القديس أثناسيوس والذى عارضه بعض معاصرى من رجال الكنيسة المتحررين معتقدين أن الفقرة الخاصة باللعنة فيه تتضمن الايمان بجحيم مادى • اننى اوافق على هذا البند اذ أرى أنه يعنى فيما يعنيه ان العالم فى حاجة الى الادراك أكثر من حاجته الى الايمان ، وأن الذين لا يملكون الادراك الكافى لقبول متناقضاته الظاهرة على أنها تعبير صحيح لحقيقة بيولوجية قد يوصفون بلاغيا بأنهم ملعونون فكريا •

ولو منحت التثبيت الدينى لامكن اتهامى بالردة بناء على مثل هذه الشكوك وطبقا لمـــا يسمى بقانون التجديف • وبما أننى لم أثبت دينيا فانه يمكننى اذا ما وجه الى الاتهام أن أدافع عن نفسى على أساس أن الذنب ليس ذنبى أنا ، بل هو ذنب أمهاتى وآبائى الروحيين (وقد ماتوا جميعا) •

وهذا يترك مجالا للسؤال : اذا لم تكن من رجال الكنيسة البروتستانتية فماذا تكون ؟

لقد تعـــودت فى البداية أن أرد على هـــذا السؤال بقولى : « انى ملحد » • ولم تكن الاجابة شافية ، اذ أن ما يحتاجـــه عقلاء الناس هو أن يعرفوا ما يؤمن به الآخرون لا ما لا يؤمنون به • وعلى أية حال لقد كانت هناك موجة اضطهاد وحشية فى ذلك الوقت ضد المـــلحدين الذين لا يخفون الحادهم ، الا اذا كانوا من أصحاب الثروات الطائلة • ولقد استخدم هذا العنف الوحشى فى طرد برادلف من مجلس العموم مما أثار الرعب قلب جون برايت الذى ما كاد يصل حتى رأى ستة من رجال البوليس وهم يجرون برادالف الى خارج المبنى • كما سجن ج•و•فوت ـــ خليفة برادلف فى رئاسة الجمعية العلمانية القومية ـــ لمدة عام لأنه نشر صورة لصمويل وهو يمرخ شاؤول فى ملابس عصرية • ولقد كانت مسألة شرف بالنسبة لزملائهم من المرتدين أن يمنحوهم تأييدا كاملا ومؤكدا وذلك بأن يعلنوا أنهـــم اما ملحـــدون أو

لاأدريون(١) • وفضلت القول بأنى ملحد لأن الايمان بالله فى ذلك الوقت كان يعنى الايمان بالمعبود قبلى المسمى « يهوه » • ولم يكن من الممكن أن أدعى أننى « لا أدرى » متظاهرا بأننى لا أعرف شيئا عن وجود أو عدم وجود ذلك الا له • وما زلت أقول وأنا أتعامل مع المحافظين من أصحاب مذهب « العصمة الحرفية » أننى لا أومن بمعبودهم هذا ، وعلى ذلك فان بامكانهم وفقا لأغراضهم أن يستبعدونى كملحد •

ماذا كنت اذن ؟ عندما أصبح ج • و • فوت عاجزا عن الوفاء بديونه وأثارت عريضة افلاسه مسألة من يخلفه لو استقال من رئاسة الجمعية العلمانية القومية ، وضعنى بعض الأعضاء وعلى رأسهم جورج ستاندرينج ضمن قائمة المرشحين ، ودعونى لألقى كلمة فى الجمعية حتى يمكن الحكم على مقدار صلاحيتى ولقد برهنت الأحداث فيما بعد أننى لم أكن أسوأ من رشحوا لشغل هذا المنصب • ولكن بعد أن ألقيت كلمة عن « التقدم فى الفكر الحر » بدا الغضب واضحا فى وجوه أصحاب مبدأ العصمة الحرفية (وهم موجودون فى الجمعية العلمانية القومية بنفس الكثرة التى يوجدون بها فى جيش الخلاص) مما جعلهم يوحون الى ستاندرينج أن فرصتى فى النجاح أقل بكثير من فرصة رئيس أساقفة كنتربرى لو رشح نفسه • لقد سرت الرعدة فى أجسادهم وأنا أعلن أن الثالوث الأقدس ليس استحالة

(١) يعتقدون بعدم كفاية العقل لفهم الوحى الالهى .

رياضية ، لكنه التوحيد المتعارف عليه بين الأب والابن والروح فى ذات فرد واحد ، وأن عقيدة الحمل بلا دنس هى جزء من الحقيقة المقدسة التى تقول بأن كل حمل طاهر ، وأن تقديس الروم الكاثوليك لمريم هو ، نتيجة لهذا ، اضافة ضرورية تضع الأم الى جوار الاب فى الثالوث الاعظم،وأن أى يسوعى ماهر يستطيع أن يحول أى علمانى عادى الى الكاثوليكية الرومانية • ولم يكن تحول مسز بيسانت الى الثيوصوفية (١) آنذاك قد صدمهم وهزهم •

لقد أعلن تشارلز واتس ، وهو من أقدر القادة العلمانيين ، انه ليس ملحدا أو لاأدريا ، ولكنه عقلانى • وكان هذا الموقف لايجابيته أكثر قوة من موقف براداف • الا أن شخصية براداف البطولية جعلته يحتفظ بمكان الصدارة وسط خضم الأحداث حتى أدى انتصاره على مجلس العموم الى تحطيمه ثم الى قتله فى النهاية • لكن العقلانية تتطلب ايمانا بأن العقل ليس مجرد وسيلة فقط لكنه دافع • ولقد جنبنى ما أتمتع به من فكر نقدى مغبة الوقوع فى مثل هذا الخطأ • كنت أعلم أن روبسبيير عندما أقام آلهة للعقل ، اكتشف بعد ذلك أن العقل مجرد أداة للفكر وكان عليه أن يوافق على ما قال به فولتير من أنه اذا لم يكن هناك اله فانه من الضرورى أن نخترع واحدا •

---

(١) حركة حديثة نشأت فى الولايات المتحدة الامريكية عام ١٨٧٥ وبنيت فى المقام الأول على أساس من التعاليم البوذية والبراهمية .

ان الحكام المتمرسين فى حكمهم للجماهير لابد وأن يقيموا حسابا للشرف والضمير والروح الجماهيرية ومحاسبة النفس فى السلوك تجاه الآخرين ، والوطنية والتضحية بالذات فى متابعة العلم والانتصار على الظروف : باختصار كل الفضائل الظاهرة وكذا ما يقابلها من رذائل ، وكلها حتمية لكنها لا عقلانية • وبما تعودته من أسلوب واقعى أقول أن العقل يستطيع أن يد لك على أفضل الوسائل — أتوبيس أو ترام أو نفق أو تاكسى — للذها بمن بيكاديللى الى « بتنى » ، لكنه لا يستطيع أن يفسر لك لماذا تريد الذهاب الى « بتنى » بدلا من البقاء فى بيكاديللى• ولقد ارتبطت العقلانية أيضا بالمـادية • وكنت وما أزال من المؤمنين بالمذهب الحيوى — واحد من هؤلاء الذين يعتبرون الحيوية سرا غامضا تمام الغموض بالرغم من أنها أكثر الحقائق تجسيدا وثباتا • اننى دائما ما أستخدم المادة والعقل لكننـى لست من أتباع المذهب العقلانى أو المذهب المـادى •

ولربما قيل على الأقل أنه كان من الممكن أن أعلن أننى تطورى ، لكن الفكرة السائدة فى ذلك الوقت كانت تفترض أن داروين اخترع نظرية التطور • لقد فعل العكس تماما عندما أظهر أن كثيرا من التطور والنمو الذى يعزى لاله خالق ، كان من الممكن أن يوجد صدفة دون هدف أو وعى • وسمى هذه العملية عملية الاختيار الطبيعى • وكان رد الفعل ضد الكنيسة والكتاب المقدس حينذاك قويا بين المتشككين من أصحاب الفكر

مما دعاهم الى قبول نظرية الاختيار الطبيعى قبولا كاملا دون سؤال أو اعتراض • ولقد أصر فايسمان — أعظم أتباع الدارونية فى تلك الاونة — على أن كل حركاتنا وأفعالنا لا تزيد عن كونها مجرد انعكاسات لا ارادية •

ولقد ظل هذا الفكر مقبولا الى أن أدرك ساموبل بتلر فجأة — وكان التيار الجديد قد جرفه بعيدا لمدة ستة أسابيع — أن داروين قد نفى وجود العقل من العالم عندما ألغى وجود الهدف فى التاريخ الطبيعى • و فى الحال بدأ يظهر أنه قد نفى الفضيلة أيضا ذلك لأن العلم ، كبديل للدين ، يطالب باعفاء الأفراد من كل الاعتبارات الانسانية الكريمة • لقد رفع العلم بعض المعتوهين من أمثال ليستر وبافلوف الى مرتبة التقديس واعتبر أن تشريح الحيوان الحى هو الطريق الوحيد لفهم علم الاحياء وتبجح باحصائيات ساذجة لا قيمة لها بنفس التهور الذى تبجح به المؤمنون بالعصمة الحرفية وهم يتحدثون ما سموه بالبيئة المسيحية ، وأعلن أنه لا يوجد على وجه الاطلاق أى اختلاف علمى بين الجسد الحى والجسد الميت حيث أنه لا يوجد بين الاثنين أى أختلاف كيميائى ، ونبذ طقس المعمودية بكل وداعته وشاعريته كخرافة بربرية وأحل محله خمسين تلقيحا ساما ، بهدف تلقيحنا ضد المرض ، وتنبأ بانتهاء الحياة من فوق الأرض بعد أن تفقد الشمس حرارتها وتبرد • وعموما اندفع فى عربدة تتميز بالسذاجة والتعصب الأعمى ، كان من نتيجتها أن ارتفعت أصوات

تنادى بالعودة الى المسيحية أو الى أى عقيدة تتضمن مبادىء ميخا فى العدالة والرحمة والتواضع أمام فداحة قصور وجهل عملياتنا العقلية • وبالرغم من أن اتباع داروين كانوا يفضلون مواجهة الاستشهاد على انكار ايمانهم بداروين أو اعلان ايمانهم بالله ، الا أنهم كانوا سفلة وبلا ضمير فيما يختص بأمور المال والنساء •

ماذا أقول اذن وأنا الفنان البيولوجى عندما يطلب منى تعريف عقيدتى ؟ أنا كاثوليكى لأننى شيوعى (والكلمتان تعنيان نفس الشىء) وأتمتع بقدر كاف من الذكاء يمكننى من أن أدرك أن حضارتنا بحالتها الراهنة لا يمكن أن تحافظ على وجودها دون قاعدة شيوعية عريضة توفر الحراسة للجسور والطرق وامدادات المياه واضاءة الشوارع وتقيم محاكم العدالة والمدارس والكنائس والسلطة التشريعية والادارية والقانون الدستورى والجيوش والأساطيل والقوات الجوية الى آخره • وكلها قضايا بارزة على نحو صارخ فى مواجهة الاغلبية العظمى الجاهلة التى تعتبر أن كلمة شيوعى ما هى الا تعبير سوقى بذىء وأن الشيوعية لا تزيد عن كونها مجرد تجسيد لكل ما هو شائن وشرير • ولكن اذا قلت بأننى كاثوليكى فسوف ينظر الى على أننى عضو فى احدى الكنائس المسيحية الرسمية ، وكلها كاثوليكية فى نظامها الداخلى سواء كانت رومانية أو انجليكانية أو رومية أو غير ذلك ، وكلها أيضا حافلة بأوهام وخيالات تستخدم لتخدير

مشاعـــر تابعيها مثل وهم التكفير عن الذنوب الذى يتمســـك به الفسقة خوفا من عذاب الجحيم ولذا فهم لا يجرؤون على اقتراف الاثم طوال ستة أيام دون أن يتطهروا بدم المسيح فى اليوم السابع • وكلهم يتعلقون بأكذوبة خلود الذات التى تفقـــد الانسان العادى احساسه بالخوف من الموت • وكما يقول مارك توين : « الانسان العادى جبان بطبعه » •

وفيما يختص بالوصية الرئيسية فى الدين المسيحى : « ليحب كل منكم أخاه » ، فاننى لا أتبعها ، وذلك لأننى عندما أتأمل البشرية فى أشخاص أقلية من السيدات والسادة الأثرياء الذين يمجدون الحرب وينغمسون فى الخرافة دون مبالاة بجماهير الطبقة العاملة الفقيرة ، فاننى لا أجد نفسى مدفوعا لانكار حبهم فقط ، بل والى كراهيتهم أيضا • وأرى أنه من الضرورى أن تحل محلهم مجموعة من الحيوانات الأكثر ادراكا ، لو قدر لهذه الحضارة أن تنقذ من الخطر الذى يتهددها • اننى فى الواقع لا أستطيع أن أحب هتلر وبافلوف وأتباعهما • وحبى لهم لايزيد عن حبى لنيرون وتركويمادا ، محقق محاكم التفتيش الأسبانى •

ولو قلت بأننى من أتباع المذهب الحيوى لوضعنى العلماء الذين يعترفون بوجود القوة الحيوية فى صـــفوف الماديين ، ذلك لأنهم يرونها كمجرد شىء آلى تماما مثل البخار أو الكهرباء •

ولو قلت ببساطة أننى تطورى لوضعت فى قائمة الداونيين • ولو رفضت داروين لافترض البعض أننى لا أعلق أهمية علـــى

الدور الذى يلعبه العقل والاختيار الطبيعى فى مصير البشرية ، اذ أن العرف السائد لا يألف الا كل ما هو متطرف : سناج أو كلس ، يمين أو يسار أبيض أو أسود • ولست أبيض ولا أسود ، ولكنى رمادى عتيق لأننى شديد الجهل • وكل القطط تبدو رمادية فى الظلام •

كما أننى لا أقبل حتى ذلك المنطق المسلم به والذى يقول بتسلسل العلة والمعلول ، اذ أرى أن العكس هو الصحيح • ان الهدف أو الغرض أو التأثير المقصود هو الذى يتسبب فى ابراز ما يسمى بالسبب ، هذا اذا ما استثنينا الحالات التى تلعب فيها الصدفة المحضة دورا خارجا عن ارادة الانسان • فاذا ما أطلقت النار على جارى فان الخطأ لن يكون خطأ البندقية والزناد ، كما أن الحبل لن يكون سببا فى اعدامى شنقا : كلاهما ناتج عن تصميمى على القتل وعن احساس هيئة المحكمة بالعدالة •

وعلى ذلك وبما أن برجسون هو فيلسوفى المفضل فاننى أقر بأننى تطورى خلاق • وعند هذا الحد كان يجب على أن أترك هذا الموضوع اذ قد بلغت من العمر ما لا يمكننى من اتباع أساليب جديدة فى المداورة ، لولا أننى مازلت أواجه بسؤال عن الله وعن مكانته فى عقيدتى • وعندما أرد على هذا بسؤال : «وما هى مكانة الله فى عقيدتكم ؟» يتساوى الردان فى النتيجة• ان الكنائس تسلم بوجود اله قادر ، وهو بكل وضوح اما غير قادر أو غير رحيم،ذلك لأن العالم ممتلىء بالشرقدرما هو ممتلىء

بالخير لدرجة أن أقدر مفكرية من اكلسياستس الى شكسبير كانوا متشائمين ، أما المتفائلون فقد سلموا بوجود شيطان كما سلموا بوجوداله•وكانعلىكلاالفريقين أنيقدرا فعالية قوة طبيعية تطل عليها الكنيسة اسم « الله » ويطلق عليها العلماء « التكيف الوظيفى » أو « الاختيار الطبيعى » أو « قوة الطبيعة الخلاقة » أو «الأسطورة الجبرية » أو « المخطط الكونى » وأطلقت عليها اسم « القوة الحيوية والرغبة فى التطور » ، كما ســماها برجسون « الحيوية الجوهرية » ، وقال كانت بأنها « الأمر الحتمى » وأطلق عليها شكسبير عبارة « الاله الذى يشكل أقدارنا مهما بلغت ارادتنا فى صنعها » • وهم جميعا يصلون الى نفس النتيجة:اندفاعة غامضةتجاهقوة أعظم تسيطر على أحوالنا، وفهم أعمق للحقيقة والطبيعة • وفى سبيل هذه الاندفاعة وهذا الفهم يغامر رجال ونساء بحياتهم مواجهين الموت الذى يتعرض له المستكشفون والشهداء ومضحين براحتهم وأمنهم دون مراعاة لمختلف الاحتمالات •

وبما أن هذه القوة التى لا يمكن تعليلها ، رغم ما يطلق عليها من أسماء مختلفة ، تواجه كل الأديان كحقيقة لا سبيل الى انكارها فلربما يكون من الأفضل تسميتها « الله » وهذه أفضل كلمة دارجة ، للتعبير عن هذه القوة • وعلى ذلك فان الكثير من الخلاف بين الانجليكية فى أبسط صورها والتطورية الخلاقة يكمن فى المقدرة على التحليل والتخيل • ومن المؤكد أن

آلهه الكتاب المقدس وهم خمسة على الأقل يوصفون على الورق بأنهم أقوياء لا يعتريهم ضعف ، قادرون على كل شيء ويحيطون بكل شيء علما ، بينما تستمر القوة الحيوية عن طريق التجربة والخطأ ، ومهما كانت خيرة فانها تخلق مشكلة الشر بأخطائها وتجاربها الفاشلة • ولا تستطيع أى سلطة ادارية أن تقوم بواجباتها من الناحية العملية على افتراض أنه توجد أو وجدت على وجه الاطلاق أو ستوجد قوة قادرة منزهة عن الخطأ وعليمة بكل شيء • وعندما يتحول الملحد الى آخ مؤمن أو العكس فان التعليق النهائى فى هذه الحالة يكون : «لاجديد،انهنفس الشيء» • ان فكرة الاله المنزه عن الخطأ خيال ربما استدعته ضرورة سياسية كما هو معهود فى حالة البابا أو اللجنة التشريعية لمجلس اللوردات لكنها رغم ذلك خيال •

ان مسمياتنا ليست بذات أهمية على الاطلاق ، وأنا أنفى وجود أى هدف لى لفرض مسمياتى على الآخرين • اننى لا أنسى تحذير المسيح وهو يقول : « اذا حاولنا أن نزيل ما تعلق بالديانات القائمة من شوائم فاننا نقضى على الطيب والخبيث معا ونترك الناس بلا دين » • اننى أرفض مبدأ التكفير • انه من غير اللائق أن يسمح السادة والسيدات لشخص آخر أن يكفر عنهم خطاياهم بأن يقدم نفسه قربانا ويعانى عذاب ميته قاسية • لكنى أعرف كحقيقة مسلم بها أن طائفة « النظامية » التى تؤمن ايمانا كاملا بهذه الخرافة البغيضة قد حولت عمالنا وزوجاتهم

وأمهاتهم من مخلوقات همجية الى مخلوقات متحضرة نسبيا ، وأن أية محاولة لاقناعهم باعتناق التطورية الخلاقة قد تجعلهم أشد خطورة وأكثر همجية مما كانوا عليه ، بلا خشية من الله فرد وبلا خوف من عذاب النار • ان تحويل القرويين السذج من الايمان الى الشك بواسطة أفكار الحادية سلبية وعلم يفوق مستوى ادراكهم قد يضع نهاية للحضارة — رغم أنها لن تكون المرة الأولى التى يقضى فيها الانسان على حضارته — وربما وضع نهاية للبشرية كما وضع من قبل نهاية الدينوصور والماموث والمستودون • ان بامكان عملية النشوء والارتقاء الخلاق أن تحل محلنا خلقا آخر ، لكن علينا فى نفس الوقت أن نعمل من أجل بقائنا وتطورنا كما لو كنا آخر ما وصلت وما ستصل اليه الخليقة •

ان الانهزامية هى أسوأ ما يصيب الانسان •

(١٤)

تصحيح أخطاء كتاب السيرة

المحافظ المبجل ونستون تشرشل يقرر :

« اننى اقتدت الى معبد وكنيسة انجيلية لاتقيم وزنا للأساقفة أو طقوس الدين » .

أبدا ، ان الكنيسة فى الدوائر الأيرلندية البروتستانتية لا تقيم وزنا كبيرا للأساقفة أو الطقوس الدينية (أو ربما بدت شعائرية فى اشعالها الشموع فوق المذبح) : ويطلق لفظ معبد على الكنيسة الرومانية الكاثوليكية والفـــرق بين الكاثوليكية الرومانية والبروتستانية يفوق كل الفروق الموجودة بين أتباع الكنيسة الانجليزية والخارجين عليها فى كل من انجلترا وويلز ، ففى أيرلندا اما أن تكون بروتستانتيا أو لا تكون . ولا يهم مطلقا اذا كنت بروتستانتيا ، أن تذهب الى الكنيسة الرسمية أو الى مقر « جمعية النظاميين » أو الى الكنيسة المشيخية : وقد يشترك الشريف أو نائب الحاكم فى صلاة المنشقين على الكنيسة لو حلا له ذلك ، أما اذا خطى خطوة واحدة داخل المعبد الكاثوليكى فعليه أن يتوقع شرورا لا حصر لها .

والرأى الذى يقول بأننى نشأت منذ الصغر كأحد الخوارج

الويسلين رأى خاطىء الى حد كبير • لقد كان جو الأسرة التى نشأت فيها يتميز بحرية فكرية ساخرة • وأذكر عندما بلغت العاشرة أن أبوى أهملا حتى مجرد التظاهر بالذهاب الى الكنيسة من باب المحافظة على احترام الآخرين لهما • أما عن نفسى فقد توقفت ، بعد أن فكرت مليا ، عن اقامة صلواتى على أساس أننى ملحد • وبما أن صلواتى كانت موضوعات مطورة من تأليفى فقد شعرت أننى بتركها أقدم تضحية عادلة فى سبيل المبـــدأ • ولم يحدث مطلقا أن أكترث أبواى بحقيقة أن « الابن شو » قد غدا كافرا •

« انه يخطب فى الفنادق وعلى قارعة الطريق » •

ولمـــاذا فى الفنادق ؟ لقد خطبت فى كل مكان آخر من أول المجمع البريطانى الى أرصفة الميناء والاسواق وفى كل بقعة من بقاع المدينة ، لكن نادرا ما خطبت فى الفنادق • لقد عاملنى هنرى جيمز فى رهبة تمتزج بالدهشة لأن شخصا أخبره أننى وقفت يوما على جسر النهر وخطبت فى المـــارة حتى اجتمع حولى جمهور لا بأس به • وسألنى جيمز عما اذا كان هذا صحيحا حقا وعندما أجبته بأن هذا هو ما حدث فعلا ، صاح فى استغراب : « اننى لا أستطيع أن أفعل ذلك اننى لا أستطيع أن أقنع نفسى بفعل ذلك » • ودائما ما كنت أؤكد أن الهواء الطلق هو أفضـــل مدرسة للخطيب الجماهيرى •

لقد بلغت القمة كخطيب معروف أثناء الانتخابات العامة التى تلت حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ • وقد تملكتنى الدهشـــة عندما سدت الطرق القريبة بالجماهير التي لم تستطيع الدخول •

وكان وداعى لمنصة الخطابة بكل أضوائها فى دار أوبرا المتربوليتان بنيويورك بعد خطبة ناجحة تماما استمرت تســعين دقيقة وكان لها تأثير السحر ، لكنى ظللت بعدها متعبا لمدة ثلاثة أيام متتالية ــ وعندها عرفت أننى قد أصبحت بسبب كبر سنى غير قادر على ممارسة هذه اللعبة •

وبجانب هذا فان جريدة الأخبار الاذاعية قد نحت المنصة جانبا ومازال باستطاعتى أن أنفذ الى قلوب المستمعين وقلوبهم وأنا أتحدث لعدة دقائق فى الاذاعة • ومن ذا الذى يفضل الحديث الى عدة مئات من الناس فى حين يمكنه بنصف المجهود أن يوصل صوته للملايين ؟

« فى عام ١٨٨٩ يظهر عليه لاول مرة قليل من التــأثير المــاركسى »

هذا التاريخ متأخر ، فروايتى **الاشتراكى المنعزل** التى كتبتها عام ١٨٨٣ تمتلىء بالماركسية الخالصة وعنــدما أسست الجمعية الفابية ١٨٨٤ واخترتها مسرحا لنشــاطى كنت قــد استوعبت من كتابات ماركس ما اســتطعت أن أجــده باللغة

الفرنسية ، ففى ذلك الحين لم يكن قد نقل الى الانجليزية من تلك الكتابات ما يستحق الذكر .

«وفيما بعد ألقى بماركس جانبا وتحول الى سيدنى ويب» .

أبدأ ، ما ألقيت بماركس جانبا فما زلت كما كنت دائما ماركسيا فيما يتعلق بالجوهريات . عندما هاجم فيليب وكستد — أحد أتباع جفونز — نظرية القيمة الشهيرة لماركس ، كان على أن أدافع عنها حيث أنه لم يكن هناك من هو أفضل منى للقيام بهذه المهمة . لكننى لم أكن حتى ذلك الحين أعرف شيئا عن الاقتصاد النظرى .

واستمرت دراستى لهذا الموضوع عدة سنين وأنا أحضر الاجتماعات الخاصة التى كان وكستد يحاضر فيها عن نظرية جيفونز . ولقد وجدت بعد أن تمت سيطرتى على النواحى الايجابية فى سياسة الاقتصاد الرأسمالى أن أعضاء الحركة الاشتراكية جميعا بما فيهم ماركس لم يستطيعوا فهمها ، كما وجدت أن وكستد قد أصاب حيث أخطأ ماركس فيما يختص بنظرية القيمة المجردة . ولقد كان ماركس — كما يثبت فى تذييل له عن ريكاردو — لا يعرف شيئا مطلقا عن قانون الايجارات رغم أنه قانون أساسى فى الاشتراكية . كما أن نقص تجربته الادارية وكذا اتصاله الشخصى بالمجتمع الانجليزى سواء بالطبقة العاملة أو الرأسمالية قد سبب له عجزا خطيرا كسياسى واقعى بالرغم من أنه هز العالم كله بازاحة النقاب عن مساوىء

الرأسمالية التى حدد مصيرها فى الميثاق الشيوعى • ولم يكن سيدنى ويب ــ وقد اتخذ جون ستيورات ميل رائدا له ــ يهتم بشىء من هذا على وجه الاطلاق • لقد اتبع ميل حتى آخر مراحله فى الاشتراكية وعلى ذلك فلم يكن هناك ما يدعوه الى اعتناق المبادىء الماركسية • لقد كان ويب ــ ككل ــ رجلا فذا فى قدراته وبساطته ، ولقد قال أسكويث فى وصفه له : انه قديس • وربما أصبحت بدونه مجرد واحد من ظرفاء الأدب •

« كان يدعو دائما الى أن تسيطر الدولة على كل أنواع الثروات ومع ذلك فعندما قرر لويد جورج ــ لاول مرة فى تاريخ الميزانية ــ أن يفرض ضريبة تصاعدية على أصحاب الدخول الكبيرة ، لم يرتفع صوت بالاحتجاج أعلى من صوت هذا الفابى الغنى » •

كان من الواجب على وزير سابق لوزارة المالية أن يكون ملما بما هو أفضل من ذلك • وهذه هى الحقائق : عندما زادت حدة غضب النساء المطالبات بحقهن الانتخابى،طلبتمسز جاكوب برايت من كل ذات يسار من النساء أن ترفض الابانة لزوجها عن دخلها حتى لا يعلن عنه لمصلحة الدخل القومى • وعند ملئى لكشف الضريبة الذى وصلنى بعد أن انتشر نداء مسز جاكوب ، كتبت فى المساحة المخصصة لدخل زوجتى أننى لا أعرف عنه شيئا ولا أملك أى سلطة قانونية لاجبارها على أن تظهرنى عليه • ولقد هزت هذه الكلمات جباة الضرائب وأفقدتهم توازنهم •

وعندما ظنوا فى البداية أننى أثير المتاعب بمحاولة التهرب من دفع الضريبة ، بينت لهم أن باستطاعتهم فرض أى تقدير وأخبرتهم بالرقم الذى أعتقد أنه قريب من الحقيقة ، وأخبرتهم بالاضافة الى ذلك أننى كنت دائم الاصرار على أن يكون لزوجتى محاميها وصيرفيها الخاصين (اذ أنها تزوجت مغامرا فى ميدان الأدب) وعلى ذلك فأنا لا أعرف فى الواقع كم يكون دخلها • كما شرحت لهم موضوع مسز جاكوب برايت ، وتحدثت عن الاحتمالات التى قد يواجهونها اذا لم يجدوا حلا للموقف وكانت النتيجة أن صدر قانون الانصاف الذى نسب الى والذى يمكن الزوج وزوجته من أن يكون لكل منهما ايراده الخاص • وكلما أعلن بطريقة غامضة أننى اشتكيت من شىء ما تكون النتيجة أن يقال أننى أثير أحقادا قديمة لأنهم لم يعفونى تماما من دفع ضريبة الدخل •

لقد عارضت أيضا كل أنواع الضرائب المفروضة على العقار الثابت (ضريبة التركات) وأصررت على أن الدخل فقط هو الذى يمكن أن تفرض عليه ضريبة • صحيح أنه لو كان دخلك خمسة جنيهات سنويا فان السمسار الذى تتعامل معه قد يجد من يدفع لك فى مقابله سبعين أو مائة جنيها نقدا من رصيده السائل • وعلى هذا الأساس يفترض البعض بطريقة تبعد كل البعد عن المنطق أن وزير المالية يستطيع أن يحصل دائما على أى مبلغ يريده من المال وذلك بمضاعفة الدخل القومى على الورق عشرين مرة ثم يفترض بعدها أنه بامكان جامعى الضرائب تحصيل المبلغ

الكلى فى أية لحظة • هذه سفسطة مدمرة • ان رأس المال والرصيد الدائن هما حالتان افتراضيتان فيما يختص بالأغراض الحكومية • وكم أتمنى أن يرتفع صوتى أكثر وأكثر معلنا تذمرى وسخطى فى حالة حدوث شىء كهذا ، ذلك لأن أى غبى فى وزارة العمال قد يخدع بسهولة ويسلك مثل هذا المسلك وتكون النتيجة لا شىء سوى مجموعة من سندات البورصة يعرضها أصحابها للبيع ولا يجدون من يشتريها ، حيث أنها فقدت قيمتها بعد أن أصبحت بلا رصيد •

« ان هذا المفكر وهو من ألمع المفكرين الاشتراكيين يصف الشيوعية على أنها : لحن جنائزى يعزف لموت قرد » •

هذا القول غير دقيق تماما • لقد سميتها « اللحن الجنائزى لدفن ثعبان سمك مقلى » •

وتشير الكلمات التالية الى زيارتى لروسيا عام ١٩٣١ :

« خرجت جماهير غفيرة جيدة التدريب لتعلن عن ترحيبها وقد كانت أوشحتها حمراء وكذا لون أعلامها • دوى صوت الموسيقى وارتفعت هتافات الطبقة العاملة تشق عنان السماء » •

مجرد خيال ● لم تكن هناك أية فرقة موسيقية أو أى علم أو أى وشاح أحمر أو أى هتافات فى شارع من أول الرحلة الى آخرها ، بالرغم من أننى عوملت ، بلا ريب ، كما لو كنت كارل

ماركس نفسه وبالرغم أيضا من أننى استقبلت استقبالا فخما (كان من الغريب أن يتضـــمن اجتماعا عاما ووجبـــة خفيفة وموسيقى) فى قاعة النبلاء التى تتسع لأربعة آلاف شـــخص وقد امتلأت عن آخرها • كانت الكلمات قصيرة • ارتدى أحد المعازفين ملابس السهرة وقد بدا هذا مضحكا ، ارتدى أحد الخطباء قميصا وبنطلونا وكان هذا يبدو طبيعيا للغاية • تحدث أنكارسكى ولقد أمضى هو وليتنوف وقتا طويلا فى صحبتى ، ذلك لأنهما ـــ كما اكتشفت فيما بعد ـــ كانا يريدان رؤية روائع الانجازات السوفيتية التى لم يرياها أبدا من قبل بسبب ضيق الوقت • لقد قوبلت بكل ما هو ممكن من حفاوة وترحاب دون أية رسميات • وكان لغياب الرسميات وهراء الخطابيات أثر رائع فى نفسى •

وبلغت الرحلة ذروتها عندما التقينا بستالين • وكان حارس الكرملين الذى سألنا عمن تكون هو الجندى الوحيد الذى رأيته فى روسيا • وأجاد ستالين القيام بدوره ، وهو يستقبلنا كما لو كنا أصدقاء قدامى وتركنا نفرغ ما فى جعبتنا من حديث قبل أن يأخذ دوره بكل تواضع • وكانت مجموعتنا تتكون من لورد آستر وزوجته وفل كير (الذى حصل قبل وفاته على لقب مركيز لوثيان) وأنا • كما حضر ليتفنوف وقلة من الروس • وفى طريق دخولنا مررنا بثلاث أو أربع حجرات جلس فى كل منها موظف أمام مكتب،

وجالت بخاطرنا فكرة وجود مسدس يمكن تناوله بسهوله من أحد الأدراج •

بدأت المقابلة بهجوم عاصف شنته ليدى آستر التى أخبرت ستالين أن البلاشفة لا يعرفون كيف يعاملون الاطفال • وأخـذ ستالين لحظة ثم أوما باحتقار وهو يقول : « انكم تضربون الاطفال فى انجلترا » • وفى الحال طلبت منه ليدى آسـتر أن يكف عن هذا الحمق وأن يرسل سيدة على قدر معقول من الذكاء كى تتعلم فى « معسكر مارجريت ماكميلان » الطريقة المثلى فى معاملة الأطفال وتهذيبهم وتعليمهم وهم فى سن الخامسة • ولم يتوان ستالين عن أخذ مذكرة بالعنوان واعتقدنا أن ما فعله لا يزيد عن كونه مجرد مجاملة • لكن ما كدنا نصل الى انجلترا حتى فوجئنا بوصول « المرأة الذكية » تصحبها ست أخريات ، والكل متعطشات للتعلم ولقد أرسلوا كما ينبغى الى دبتفورد حيث أنفقت عليهن ليدى آستر الكثير من المـال •

تحدثنا بعد ذلك فى السياسة التى وجد فيها « فيل » مجاله كرجل قرأ كارل ماركس وألم بكل ما يمكن معرفته عن الشيوعية العلمية • ولقد شرح كيف انقسم حزب الأحرار الانجليزى وانحاز أغلب أعضائه الى اليمين ، تاركين بقية الأعضاء بلا راع • ولم يكن بامكان تلك البقية أن تنضم الى حزب العمال لأن حزب العمال كان فى ذلك الحين فى مرحلة التكوين من الناحية السياسية• ولقد كانت الحاجة تدعو الى أن أن تنضم مجموعة من دارسى

الشيوعية العلمية الى الجناح اليسارى من حزب العمال تحت قيادة لويد جورج • واقترح فيل أن يوجه ستالين دعوة رسمية للويد جورج كى يزور موسكو ويرى عظمة روسيا السوفيتية •

قابل ستالين الاقتراح بمرح بالغ ، كان من الواضح أن الاقتراح قد أطربه كما أطربنى • وكانت اجابته طويلة مهذبة لكن تغلب عليها روح الفكاهة والمرح • وعلمنا من الترجمة أنه من غير الممكن توجيه دعوة رسمية الى شريك « رانجل » فى الغزوة التى قام بها الجيش الابيض • ولكن اذا ذهب لويد جورج الى روسيا بصفته الشخصية فسيلقى كل التسهيلات وسيقابل بكل ما هو جدير به من احترام •

ولقد حاول لورد آستر أن يقنع ستالين أن انجلترا تكن الكثير من مشاعر الود تجاه السوفيت وأنه لا يوجد فى المستقبل ما يمنع من اقامة صداقة على أساس من الفهم المتبادل • ولقد بلغ حماس آستر حدا جعلنى أرى أنه من اللازم أن ألفت نظر ستالين الى أن لويد جورج ، رغم عدائه العنيد للبلشفية ، يمكن أن يلعب دورا فى هذا المجال • وسألت ستالين عما اذا كان قد سمع على وجه الاطلاق عن أليفر كرمويل ومبدئه المحفوظ فى مقطع أحدى الأغنيات الشائعة فى أيرلندا :

« ثقوا فى الله يا أبنائى ولا تستخدموا البارود » •

وعندما استوعب ستالين هذه الكلمات أشار الى أنه لن يستخدم البارود بالتأكيد وتجاهل الاشارة الى الله • وسألته بعد

ذلك عما اذا كان من الممكن توجيه دعوة الى مستر تشرشل لزيارة روسيا واعتقد أن مزاحه قد امتزج بشيء من التهكم وهو يقول انه سيكون سعيدا برؤية مستر تشرشل فى موسكو •

كانت روح المرح تشع فى كل أحاديثه • ان باستطاعته أن يضحك • وعندما خرجنا (بعد منتصف الليل) كنا نظن أن المقابلة لم تزد عن النصف ساعة الا قليلا ، وعندما نظرنا الى ساعاتنا وجدنا ان المقابلة استمرت ساعتين وخمسا وثلاثين دقيقة •

سيدموث

سبتمبر ١٩٣٧

المرحوم الأستاذ أبلجر :

كان الأستاذ أبلجر ابن مفتش بوليس أيرلندى وكان أحد المعجبين بأعمالى لدرجة أنه كرس الكثير من الوقت ، الذى استطاع قدر الامكان أن يقتطعه من عمله الرسمى ، كى يكتب سيرتى • ولقد كتبت له الكثير من الخطابات ردا على ما طلبه من معلومات وعندما انتهى من الكتاب الذى أرخ فيه لحياتى وعرضه على ناشر أمريكى وجد الناشر أنه يحتوى على بعض العبارات المهينة • ورغم أنه قبل الكتاب لميزاته الأدبية ، الا أنه طلب شهادة بتصديقى وموافقتى وكان من المستحيل ــ كما سأوضح فى الصفحات التالية ــ أن أكتب مثل هذه الشهادة وعلى ذلك

فلم ينشر الكتاب ولكن بما أن المخطوط ما يزال فى أيدى القائمين على تنفيذ وصية المؤلف وبما أننى لا أستبعد احتمال نشره بعد موتى تحت عنوان الحقيقة عن برنارد شو ، أ وأى عنوان مماثل لذلك أر ىأنه من الأفضل أن أعلن اجابتى عليه •

بالرغم من أن الاستاذ أبلجر اتخذ الأدب مهنة له ، الا أنه ورث سلوك أبيه ووسائله البوليسية فى تقييم عبارات وأدلة المتهمين أو المشكوك فى أمرهم وقدبيت النية على محاكمتهم بتهمة الخروج على القانون • كما أخذ عن أبيه أسلوبه فى جمع القرائن الدالة على الحياة الشخصية لمن يتعامل معهم من أفراد •

ولم يكن النقد الفنى هو ما يهدف اليه الأستاذ : كان هدفه الوحيد هو البحث عما يسىء الى سمعة أو ما يتسم بالخروج على القانون • باختصار لم يقم الأستاذ بعمل الناقد أو عمل كاتب السيرة ، لكنه ببساطة قام بعمل رجل البوليس السرى دون أن يكلفه بذلك مفتش رسمى أو مدع عام •

وأسجل هنا ما أنا بحاجة اليه من تعليق •

باركنا سيللا كنمار •

٧ أغسطس ١٩١٩ •

عزيزى أبلجر ،

انك بالتأكيد ستكون السبب فى موتى • تقول فى تصويرك

لقصتى انها قصة يجد فيها البطل الطيب ــ أبى ــ نفسه مدفوعا الى ادمان الخمر بعد أن يكتشف خيانة زوجته ، ويترك فى النهاية كى كموت وحيدا فى أحد المــلاجىء •

أمن الواجب على أن أبدى لك الحقائق مرة أخرى ، واذا فعلت فهل روايتى الثانية ستكون أكثر فاعلية من روايتى الأولى ــ التى لا يتطرق اليها الشك ــ فى أن تخرج من رأسك المأفون هذه المادة الزائفة التى تتضمنها أخبارك البوليسية ؟

أبعد عن تفكيرك لحظة « ج • ج • لى » الرجل الذى علم أمى الغناء ثم أصبح زميلا لها ، انه لم يكن قد ظهر بعد على مسرح الأحداث • كان أبى فى تلك الآونة رجلا أعزب متوسط العمر ، ليس له من عدو سوى نفسه ولا يكرهه أحد لأنه لا يخيف أحــدا •

كان ظريفا فكه الكلمات ، يكتب الشعر من آن لآخر كى يسلى به الناس وكان ثانى أبناء عمومته هو السير روبرت الذى اتخذ من « بوشى بارك » مقرا له • وعليه فقد اعتبر أبى نفسه من عائلة اقطاعية ، لكنه كابن أصغر لم يكن على شىء من الثراء ومازال أكثر اخوته يعيشون فى ظروف طيبة ويتمتعون بمراكز اجتماعية عالية • كان يشرب الخمر لكن ادمانه لم يكن ناتجا عن ضعفه أمام الشراب بل كان نتيجة لاضطراب عصبى : حالة مرضية تعيسه وضحاياها هم أشد المتحمسين لمحاربة الادمان •

انهم يحتجون ويدعون الى القضاء على اللعنة التى أصابتهم • لقد ظهرت هذه الحالة فى الاسرة من قبل ، ومقدر لها أن تظهر مرة أخرى بين أبناء عمومتى وأولادهم • ولا يذكر أحد هذه الحقيقة للعذارى من سيدات الأسرة اللائى يبعدن عن كل الموضوعات الكريهة حتى يتزوجون •

أما عن أمى فقد ربتها عمتها التى كان يبدو أنها قد قررت أن تورثها أملاكها ولقد نشأت نشأة صارمة لم تتح لها الفرصة فى أن تعرف شيئا عن ادارة المنزل أو أى شىء لا يليق بسيدة • ولقد كانت لبعض الوقت محل ترحيب من آل شو الذين يعيشون فى رغد من العيش : أحبها سير روبرت واعتبرها الآخرون مكسبا اجتماعيا ، لكن أبى كان يشرب حتى الثمالة فى حفلاتهم وكلما دعوه للعشاء حتى أصبح من المستحيل دعوته أو دعوة زوجته دونه • افلاس ونبذ وثلاثة أطفال ومنزل يبلغ ايجاره خمسا وثلاثين جنيها سنويا ، وزوج سكير كان يبدو بوضوح أنه لن يستطيع النجاح فى تجارته : كانت هذه حالة أمى عندما اكتشف « لى » صوتها وتعهده بالتدريب أثناء تجواله بحثا عن مغنين وممثلين وكل ما يصلح مادة لنشاطه الموسيقى • لقد أخبرتك بكل هذا وبتفصيل أكثر ، وكان استنتاجك هو أن أمى ارتكبت جريمة الزنا مع موسيقى محتال • وبذلك دفعت زوجها الطيب الوقور الصامد ببطولة الى أن يدمن الخمر حتى يستطيع النسيان •

لم يمت أبى فى ملجأ • لقد تركته زوجته وأولاده فى آخر

سنين حياته ليعيش وحيدا فى دبلن قبل وفاته بعدة سنوات وذلك لسبب هام جدا وهو أنه كان قد فقد المقدرة على اعالتهم ، ولأن الحياة معه خلت تماما بالنسبة لهم من كل أمل أو تطلع لما هو أفضل ، وبفعلهم هذا أزاحوا عن كاهله عبئا عجز عن أن يتحمله ، كما سره أن يتخلص منه ، رغم أنه كان قد امتنع عن شرب الخمر وغدى من أفضل خلق الله • لقد فعل كل ما يستطيع أن يفعله من أجلهم : استمر حتى موته يرسل لهم جنيها كل أسبوع • وفى نفس الوقت عاش عيشة مريحة جدا فى مسكن محترم حيث قدرته صاحبة البيت حق قدره حتى حانت منيته ودفن مع آبائه فى مقابر مونت جيروم • وقد سار فى جنازته كل سادة آل شو • وأعتقد أن الفترة التى عاشها وحيدا كانت من أسعد فترات حياته ، اذ لم يعد هناك « لى » أو زوجة أو أبناء كبار • وفى أخريات حياته أقنعته بعض المقالات وبعض ما أرسل اليه من قصاصات الصحف أن ولده سيصبح « رجلا عظيما » وسيحقق كل ما فشل الأب فى أن يحققه •

هذه هى حقيقة الأحداث التى تعرض لها أبى وهى كما ترى خالية من البطولة • لكنك حر فى أن تتعاطف معه كما تشاء وأنت تكتب عنه • كان فى الواقع عطوفا ومحبوبا كأى رجل عادى • أخبرنى ذات مرة كيف وجد فى صباه قطا ضالا وكيف أخذه الى البيت وأطعمه ، لكنه فى اليوم التالى تركه فريسة لكلبه الذى طادره ثم قتله • ولقد ظل ضميره يؤنبه حتى تلك

اللحظة التى كان يقص فيها قصته على • ولقد قال لى محذرا بأن من يستطيع الاقدام على مثل هذه الفعلة الشنعاء لا يستحق ولا يمكن أن يحظى بأى سعادة أو حظ طيب فى مستقبل أيامه • وكثيرا ما أنب نفسه وشعر بالهوان • وعندما لم يكن هناك ما يضحكه كان يتشاغل اما بقرض شاربه والهمس بلعنات يصبها من أعماق فؤاده واما بالاستسلام لموجات من الضحك المكتوم • كان شريك أبى فى العمل يتميز بشىء من حدة الطبع • واعتقد أبى أن الذوق والطيبة والرقة التى كان يهدىء بها مشاعر من ساءهم سلوك شريكه هى التى جعلت العمل يستمر • ولقد ساعدت على ذلك بالتأكيد •

أما حديثك عن الوراثة فلا معنى له ذلك لأن أمى كانت هى الأخرى عطوفة جدا • كانت أعجز من أن تؤذى طفلا أو حيوانا ، كما كانت تكره أن ترى زهرة مقطوعة أو ملقاة على الأرض • ولو عانت أى أمرأة ما عانته أمى لما ترددت فى كراهية أبى ، لكنها لم تشعر تجاهه بأى احساس بالمرارة • لم تكن تحترمه بكل ما تعنيه كلمة الاحترام لانه كان عاجزا عن القيام بما يكسبه احترامها • لكنها — طبقا للسلوك الأيرلندى الطيب — أخذته على علاته دون تأنيب ودون أن تثير ضده أية قضية أخلاقية • وكنا جميعا على وجه التقريب نعامله بنفس الأسلوب : كان وضعه فى البيت هو تماما الوضع الذى لا يستطيع الا أن يشغله — وضع الأب بكل ما تمثله هذه الكلمة من معان •

ولم يكن باستطاعة « لى » رغم نشاطه وحيويته أن يستحوذ على شيء من مشاعرنا تجاه أبينا •

وكـــان فشـــل « لى » فى لندن يرجع كلية الى الظروف الاجتماعية التى أرغمته على أن يختار بين الدجل أو الموت جوعا ، رغم أن هذا الفشل كان مسبوقا بعدة سنوات من النجـــاح • وتبعته أمى الى لندن لتتخذ من الموسيقى مهنة لها ولتقدم أختى لوسى الى مجتمع لندن كمغنية أولى • ولقد تعاونت معه فى لندن كما فعلت من قبل فى دبلن • لكنها هجرته فى الحال عندما وجدت أنه قد تخلى عن منهجه التعليمى وادعى أنه قادر على أن يمكن تلامذته من الغناء مثل « باتى » بعد اثنتى عشر درسا • وامتنعت عن رؤيته لعدة سنين قبل موته • ولم تكترث مطلقا عندما بلغها خبر وفاته ، وبنفس الطريقة لم يثر فيها موت أبى أى أحساس بالاكتراث • لقد كان موت أختى أجنز هو مبعث حزنها الوحيد فى هذا المجال وأذكر بهذه المناسبة أن أبى كان يجد فى مشـــهد الجنازة ما يثير احساسه بالمرح ولقد ورثت عنه هذه الصفة • اننى لا أحزن أبدا لكنى لا أنسى •

أعتقد أن فى هذا ما يكفى عن تقديرك لفضائل أمى كزوجة ! أما عن تعليقك على آرائى فى الاقتصاد فهو لا يعتبر نقدا • انك تعترض باستمرار وعن قصد على أشياء لم أقلها أبدا ، كمـــا تشتكى من افتراضات لم أناد بها اطلاقا ، ولو ناديت بها لا نتهى الأمر بحجزى فى احدى مستشفيات الأمراض العقلية • ان

مسرحياتى ليست مقالات فى الاقتصاد الا اذا كانت هذه نفس نظرتك الى مسرحيات شكسبير •

صحيح أنه من المستحيل على جاهل بالاقتصاد أن يكتب مسرحية **بيوت الارامل أو ماجور باربرا وصحيح أن** مهنة **مسز وارن** هى عرض اقتصادى لتجارة الرقيق الأبيض • كما أنها أيضا ميلودراما • ان هناك صلة اقتصادية بين كاشل بيرون وسرتريوس ، ومسز وارن وأندرشافت اذ تزدهر أحوال كل منهم نتيجة لنشاط مشكوك فيه • لكن هل باستطاعة أى انسان — الا اذا كان أستاذا جامعيا مغفلا ، فارغ الرأس ، مخبولا بتصحيح أوراق الامتحانات — أن يستنتج أن كل مسرحياتى لا تزيد عن كونها مجرد مقالات فى الاقتصاد وأنها ليست مسرحيات شخصية وحدث وقدر حياة تماما كمسرحيات شكسبير ويربيديز ؟

أما عن آرائى فى التعليم فلا جديد فيها ولا شذوذ • لكنى أشرت الى أن المدارس كما هى عليه الآن لا تصلح كمدارس ، وكذلك الأمر بالنسبة للمدرسين : انها ليست مدارس وليسوا مدرسين ، بل على الاصح سجون ومساجين وسجانين حيث يحتفظ بالتلاميذ لمنعهم من اقعاد آبائهم واقلاقهم •

كما أشرت أيضا الى أن علم التربية والدين يجب أن يوضعا فى مرتبة التعليم الفنى كضرورة من ضرورات الحياة المتحضرة ،

بدلا من اعتبارهما مجرد ثقافة حرة غير الزامية وأرى أن يكون تدريسهما اجباريا وجدليا فى نفس الوقت• ان الثقافة الحرة يجب أن تكون اختيارية كما يجب أن تدار بواسطة مؤسسات تتطوع للقيام بها • هذه الاقتراحات مطروحة للمناقشة أما عن الاقتراح الخاص بالمدارس والمدرسين فلا صلة له بالسياسة التعليمية على وجه الاطلاق وعليك ألا تخلط بين الاثنين والا اعتراك الاضطراب والهذيان الى حد الجنون •

انك على خطأ تماما وأنت تكتب فى هذرك الجامعى عن الفتى البارع الطموح • لم أكن طموحا يوما ما ، لأننى مثل هاملت أفتقر الى الطموح • كما أننى لم أكن يوما بارعا بطريقة غير عادية • لقد ارتفعت بمجرد الجاذبية وصدفة التمتع بموهبة مربحة • لقد ظللت عالة على أبوى المرهقين حتى قاربت الثلاثين وأنا مفلس وذلك بسبب خجلى وعدم طموحى • ان قصتك الخيالية عن الشاب الذكى الطموح المتشبع بكارليل وامرسون (لم أقرأ لأى منهما كلمة واحدة) والذى يضيق بضآلته كموظف كتابى ، تبعد كل البعد عن الحقيقة • ان الكتبة هم أكثر خلق الله تعاليا وكبرا • انهم يحتقرون أساتذة الجامعات ويعتبرونهم مجرد تلاميذ يجهلون حياة الواقع بطريقة مزرية — لا دراية لهم بالعمل ولا يقدرون أبدا على تحمل المسئولية التى يتحملها أى انسان راشد • وللحق أقول اننى لم أكن مرتاحا لعملى فى

مكتب ، لاننى كنت كوتد مستدير فى حفرة مربعة ، ولكن لم يحدث اطلاقا أن خجلت من عملى •

واذا لم يناسب قصتك أن تؤمن بأن « لى » فيما يختص بعمله كان عبقريا ، فمن الأفضل أن تغير قصتك • أقول لك : لقد كان عبقريا وأنا أوسع منك معرفة وأكثر دراية ، ذلك لأننى كناقد موسيقى خبير استمعت الى كل موسيقيى العصر العظام كما استمعت الى تلامذة كل أساتذة الغناء الكبار • تقول بأنك لا تملك الدليل — هل بحثت ؟ قد يستطيع أى ألمانى أن يملأ عدة صفحات بقائمة بعدد الحفلات الموسيقية التى أقامها « لى » فى دبلن وبعدد المقطوعات التى عزفت فيها • ذلك ميسر وموجود فى أعمدة الصحف • وباستطاعتك أن تفعل ذلك اذا أردت أن تضيع وقتك وألا يقرأ لك أحد • أى آثار أخرى يستطيع أن يتركها قائد فرقة موسيقية ؟

وعندما تقول ان الفقر لا تسببه الحاجة ولكن يسببه سوء التوزيع ، فانك تعنى أن الفقر لا يرجع الى عدم وجود ثروة تكفى الجميع ، ولكنه يرجع الى ان هذه الثروة لا توزع بالعدل • أنت على خطأ • اننا لا نملك من الثروة ما يكفى الجميع • لكننا قد نملك منها ما يكفى اذا ما سادت المبادىء الاشتراكية •

والآن تقبل لعناتى القلبية لأنك أجبرتنى على أن أخبرك ثانية بما أخبرتك به من قبل بكل دقة وتفصيل •

انطلق واستجم • ان عقلك مضطرب بسبب ما تقوم به من عمل غير طبيعى • اننى ألفت نظرك الى أنه من السهل أن تقضى على انسان باعطائه مادة أدبية أكثر مما يستطيع أن يستثمر • وهضمك للمادة حاليا مضطرب وغير طبيعى •

المرحوم ابن عمى الاسترالى تشارلز شو :

ابن العم العزيز تشارلز :

ان مجتمع استراليا أكثر هرجلة مما كـــان عليه المجتمع الايرلندى فى القرن التاسع عشر • وككل البرتستانت فى أيرلندا كان من الضرورى أن يتمسك ال شو بادعاءاتهم الطبقية • ولكن يجب عليك أن تفرق بين الانواع المختلفة لهذا الادعاء • عندما طلب منى أبى ألا ألعب مع زملائى فى المدرسة من أبناء أصحاب المتاجر أو الورش كالحداد مثلا ، كان لا يطالب بأكثر مما طالب به كل أمثاله من الآباء كى يبعدنى عن التعرف على أناس غير مرغوب فيهم • وعندما أخبرونى أن مصير الكاثوليك جميعـــا هو الزج فى نار جهنم ، كان من المستحيل على ألا أستنتج أنهم نوع منحط من الناس وأنه ليس من المناسب أو المرغوب فيه أن يختلط بهم بروتســـتانتى من آل شـــو • كان هناك خطـــان اجتماعيان فاصلان : الأول بين بائع الجملة وبائع القطاعى والثانى بين كنيسة روما وكنيسة أيرلنداوكانتالكنيسة الرسمية حينذاك• ولم يكن بامكان أى فرد من آل شو أن يقيم علاقة اجتماعية مع

صاحب متجر كاثوليكى • وكان من الطبيعى أن يفرض الآباء من آل شو هذه الحقيقة على أبنائهم • وكانت النتيجة أن بثوا فيهم روح الادعاء والتعاظم وثبتوها •

لكن هناك نوعا آخر من الادعاء أقل الزاما من سابقة • وبهذا النوع امتلأ كتابك مما جعله مسليا • انه الادعاء القائم على تمجيد العشيرة : الاعتقاد بأن « آل شو » عائلة مترفعة ذات نفوذ وأنها تنتهى أو ترجع فى أصلها الى طبقة السادة من ملاك الأرض • وبالنسبة لكل أفراد عائلة شو المقيمين فى أيرلندا يبدو هذا الأمر وكأنه حقيقة من حقائق التاريخ الطبيعى •

اننا ما زلنا نستاء اذا ما قيل أننا طبقة متوسطة • وهـذا ما حدث فى حالة أحد أفراد العائلة عندما أصبح رئيسا للبوليس فى « هوبارت » • ولقد لازم هذا النوع من الادعاء عمى الأكبر عندما هاجر الى استراليا وكل ما تستطيع أن تفعله هو أن تلهو به وتسخر منه فلا جدوى منه فى عصر ما بعد الماركسية •

أما عن قولك بأن أبى لم يحطم حياته الزوجية بـادمانه الشراب ، فهو أكثر محاولاتك يأسا فى الكتاب كله • ولقد قادتك هذه المحاولة الى الاساءة اليه بطريقة شنيعة عندما عقدت مقارنة بينه وبين والد « اروين بتلر » • كان بتلر يخاف أباه ويكن لـه كراهية شديدة • وكان على حق ، اذ أن فكرة أبيه عن التربية الورعة التى أرادها لولده كانت لا تزيد عن حشو رأسه بقواعد

اللغة اللاتينية والآن لا يستطيع أحد أن يكره أبى • وعندما أستعيد بذاكرتى بعض المناسبات التى أهملته فيها أدرك السبب فى وقوف د • جونسون تحت ماء المطر فى ليتشفيلد ليكفر عن نفس الخطيئة • كان أبى سيء الحظ ، غير مدرب وغير ناجح ، لكنه تغلب على ادمان الشراب (وهو حالة مرضية تعسة ، اذ سبب له الكثير من الشقاء) عندما سقط يوم أحد على عتبة الباب وهو فى حالة سكر شديد ، مما أثار فزعه وجعله يدرك أنه بفعله هذا يقضى على نفسه • ولقد امتنع عن شرب الخمر منذ ذلك الحين •

ورغم ذلك فلا بد وأنه أصبح أكثر سعادة بعد أن هجرناه جميعا • وأنا مدين لك لأنك وفرت لى الدليل على هذا : لقد استطاع أن يجدد علاقته بأخوته وأخواته بعد أن أبعده عنهم عاملان : أولهما حالة الادمان التى وصلت حد المرض العصبى ، ولقد أجمع كل أفراد عائلة شو على أنه قد أصبح صعبا لا يطاق من الناحية الاجتماعية بعد أن عب فى احدى حفلات بوشى بارك مقدارا هائلا من الخمر مما جعله يتخلى عن وقاره تماما • ومنذ ذلك الحين انقطعت الصلة بيننا وبين اخوته وأخواته •

وكان وقع هذه الجفوة قاسيا على أبى ، لكن الأكثر قسوة من ذلك كان احساسه بأن أفراد أسرته أنفسهم قد ابتعدوا عنه • وعندما أقمنا فى مسكن مشترك مع جورج لى زميل أمى الموسيقى ، غدى أبى مجرد لا شيء وذلك بسبب نشاط « لى »

وشدة جاذبيته • كما أنه لم يجد أى راحة حقيقية فى مصاحبة أبنائه بعدما كبروا وأصبحوا فى سن لا تمكنه من اللعب معهم • هذا بجانب شكهم الدائم فيما اذا كان سيعود متزنا أو سكرانا • لم يكن أقاربه فى حاجة الى رؤيته ، كما أن أمى لم تكن فى حاجة الى رؤية أقاربه : كانت تركز كل اهتمامها فيمن يجيدون الغناء ، وكان معظمهم من الكاثوليك الذين لا يصلحون لمصاحبة أى بروتستانتى من آل شو ، بالرغم من أنهم كانوا أفضل كمواطنين وأكثر لطفا كأصدقاء •

وأدعك لتتخيل الأثر الذى خلفته فى كلماتك وأنت تؤكد بكل قوة أن أى فرد من آل شو لا يمكن أن يهبط الى مرتبة الغوغاء ويصبح سكيرا وعلى ذلك فلا بد وأن أكون ماجنا كذابا • ولو كنت معى فى تلك الآونة لاقتنعت بما أقول • لكن لا تندفع الى النقيض وتستنتج أن كل آل شو كانوا سكيرين • لقد أدمن الشراب ثلاثة فقط من بين أحد عشر فردا ، كف اثنان منهم — أبى ووليم بارنى — فجأة عن الشراب فى نفس الوقت الذى أعتقد فيه الجميع أنه من المستحيل عليهما أن يقدما على فعل ذلك •

والآن فكر فى نتيجة هجرى له وأنا فى العشرين من عمرى • كنت آخر من عاش معه من أفراد الاسرة • لكنى حذوت حذو الآخرين : تركته ، وهربت الى لندن • وكان فى رحيلى منتهى اسعاده وراحته • لقد رحلت زوجته من قبل • هل كان هناك ما

يمنعه من العودة الى ألى أسرته وقد هجره أيضا ابنه الذى كتب خطابا للرأى العام يعلن فيه أنه ملحد وذلك أثنـــاء الاجتماعات الدينية التى عقدها المبشران مودى وسانكى لايقاظ الروح الدينية فى دبلن ؟ تقول لى انهم استردوه وجعلوه سعيدا بقدر ما جعلناه تعسا • انه ليبهجنى أن أسمع ذلك •

أما عن وجبات الغذاء التى تصفها والتى كان يتناولها مع أخيه هنرى أيام الآحاد فقد كانت مستحيلة أيام كنا معه • ولقد استقبلته أخته اميلى كارول ووجـــدت فيه انســـانا فطنا خفيف الدم • وعندما قابلت فى ايستبورن آخر الأحياء من نسل العمة اميلى حدثتنى عن بعض النوادر اللطيفة التى اعتاد أن يقولها • لا أعتقد أنه كان يريد أبدا أن يرانا ثانية ــ لكن هذا لا يعنى أنه كان بيننا أى شعور بالعداء • ولقد كان الود بينه وبين أختى لوسى كاملا عندما حدث وزارت دبلن فى الفترة التى مات فيها • ولقد مات وهو فى أسعد حالاته •

ان عدم اكتراث أى منا لموت الآخر جعلنا نبدو فى صورة الاسرة الغير متعاطفة • وتصميمك على أن قلوبنا كانت تجيش بالأحاسيس الفيكتورية ــ وما يتضمنه هذا القول من جمال خيالى بالنسبة لكل النساء وشجاعة فذة فى كل الرجال ــ يبلغ ذروته فى تصويرك لحياة أختى لوسى وشخصيتها • ان الصورة التى تقدمها ليست فقط غير صادقة ، لكنها تتعارض أيضا مع الواقع تعارضا كاملا • كانت لوسى خارج البيت محبوبة من الجميع :

لقد حطمت الكثير من القلوب ، لكن قلبها لم يتحطم أبدا • ولسبب لا أعرفه تزوجت وهى فى منتصف العمر • وأفضل ما أقدر على تخمينه هو أنها أحبت أسرة زوجها وقد كانوا من أعمدة كنيسة ارفنج وعلى قدر كبير من الاحترام • ولقد اكتشفت أم زوجها أن الفراش هو أفضل مكان للمعيشة • ولقد مكثت فى الفراش خمسة عشر عاما أو ما يقاربها حتى ماتت • ولم تغتنم لوسى أيا من الفرص التى هيأها لها جمالها وغناؤها كى تندمج فى المجتمع الاقطاعى : كانت تعلم أنها لن تستريح فى وسط كهذا بسبب قلة المال وضعف مركزها الاجتماعى كمغنية محترفة • وعلى ذلك فقد وجدت أنه من الأكرم لها أن تظل بين أناس يحترمونها ويدللونها بدلا من أن تعيش بين أولئك الذين ينظرون اليها فى استخفاف وعدم احترام • لم تكن فى حاجة الى أن تتظاهر بما تظاهر به آل شو أو الى التمسك بعراقة أسرة أمها • ورغم ذلك كانت تكره الحياة البوهيمية وتخجل منها • ولقد أحست أم زوجها — طريحة الفراش — بهذا الأمر وأخذت على عاتقها مهمة تدريبها على كيفية التعامل مع المجتمع • ولقد كانت لوسى فى أشد الحاجة الى ذلك ، اذ أن أمى التى تدربت بما فيه الكفاية تركتنا جميعا كى ندرب أنفسنا • ولقد كانت لوسى دائمة الاحتجاج على ذلك لكنها تنفست الصعداء ، عندما بدأت أمها الجديدة تعلمها كيف تتعامل مع المجتمع ، وبذلك استحقت شكر لوسى واعترافها الدائم بالجميل •

كان زوجها ـ كاتب التأمينات السابق ـ وسيم الوجه جميل المحيا وكان طموحه الوحيد هو أن يصبح مغنيا صادحا فى أوبرا خفيفة • ولقد مكنه عمله الكتابى فى المستعمرات من أن يوفر خمسين جنيها • وبهذا المبلغ تمكن من أن يرشو أحد مديرى فرق الاوبرا المتجولة كى يسمح له بالقيام بالدور الرئيسى ليلة واحدة • وأعتقد أنهم بعد تلك الليلة لم يستطيعوا الالقاء به الى قارعة الطريق • كان يغنى بصعوبة ، لكنه رغم ذلك كان يستطيع أن يقدم شيئا ، كما أن تذوقه للغناء جعله يشعر أن المسرح هو مكانه المناسب • كان مدمن قمار ونساء • وفى المسرح قابل لوسى وتزوجها ، لكنها ملته بعد فترة وأبعدته ثم استعادت طريقتها الأولى فى الحياة كعانس متحررة • ولقد استمرت هذه الحالة عدة سنين حتى علمت بالصدفة أنه أثناء زواجه منها كان على علاقة بامرأة أخرى وأتتنى فى نوبة من نوبات الغضب وقالت انها لا بد وأن تحصل على الطلاق • وأخبرتها بأن الطلاق لن يزيد عن كونه عملية شكلية حيث أنها قد سبق وطلقت من الناحية العملية • لكنها صممت أن تتخلص منه بطريقة قانونية • وكان زوجها على استعداد لأن يترك القضية دون دفاع بشرط أن تتنازل عن النفقة والتعويضات وطبقا لذلك تم الطلاق واستعادت لوسى اسمها الأول •

ثم تبدو لمحة من اللمحات التى تميز آل شو • يظهر زوجها فيما بعد وحيدا وبلا مأوى يقضى فيه أمسياته • وتفتح لوسى

باب بيتها فى الحال وتستقبله كمتشرد ضال ، رغم أنها كانت لا تطيقه كزوج • وعلى ذلك فقد داوم على زيارتها حتى مات ، وعندها حل محله أخوه الذى كان مديرا لاحدى المحلات الكبرى فى لندن • ولقد مات الاثنان قبل لوسى ولم تذرف عليهما دمعة واحدة • وكان أبوانا قد ماتا منذ فترة طويلة ولم يعد لها من أقاربها المباشرين أحد على قيد الحياة سواى • كنت أزورها فى فترات متباعدة كلما كان هناك داع للقاء • ولقد قمت بزيارتها بعد ظهر أحد الأيام للاطمئنان على صحتها التى لم تكن على ما يرام • جلست بجانبها وقد لازمت الفراش • وبعد برهة قالت : اننى أموت » وأخذت يدها بين يدى لاشجعها ونطقت الكلمات التقليدية • « لن تموتى • بعد قليل ستكونين على مايرام » • وساد الصمت — ولم يكن هناك صوت أى صوت سوى أنغام بيانو صادرة من بيت قريب (كان المساء لطيفا وكانت النوافذ مفتوحة) ، حتى سمعت حشرجة خفيفة فى حلقها • كانت ما تزال ممسكة بيدى • ثم استوت أصابعها • ماتت •

وأتى الطبيب فى الحال • كان على أن أسجل حالة الوفاة • وسألته عما سيقرره فى الشهادة عن سبب موتها ، ثم أضفت قائلا اننى أعتقد أنها ماتت بداء السل الذى قاست منه سنين طويلة بعد أن أصابها التهاب رئوى وأنهى حياتها على المسرح • وأجاب بالنفى قائلا انها قد شفيت تماما من السل ، وسألته « ما السبب اذن ؟ » وأجاب : « لقد ماتت جوعا » • واعترضت على قوله

مؤكدا له أننى كنت أمدها بما يكفل لها حياة طيبـــة • وعندئذ أخبرنى أنه لم يستطع اطلاقـــا منذ حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ أن يجعلها تأكل بما فيه الكفاية • لقد حدث أثناء الغارات الجوية أن أقيمت قاعدة مدفعية مضادة للطائرات جانب حديقتها مما نتج عنه تحطيم نوافذ البيت وما به من أوان خزفية ، كما أصابها صوت القذائف بصدمة عنيفة • ولقد أخذوها الى ديفون بعيدا عن المنطقة المعرضة للقاذفات الألمانية لكنها لم تسترد قابليتها للطعام بعد ذلك أبدا •

لم أدع أحدا لحضور مشهد حرق جسدها فى جولد زجرين لأننى لم أكن أعرف أحدا من أصدقائها • لكنى وجدت المعبـــد مزدحما بمعجبيها عندما وصلت الى هناك • لقد عبرت بصراحة فى وصيتها عن رفضها لاقامة أى قداس دينى • لكنى شعرت فى وجود كل أولئك الناس أنه من الصعب على أن أقذف بها فى النار كما لو كانت سطلا من الفحم ، لذا ألقيت خطبة جنائزية أنهيتها بترديد مرثاه من « سيمبلين » :

لا تخافى وميض البرق
ولا كل رعب الرعد القاصف

لأن هذه المرثاة كانت تتناسب تقريبا مع مـــا أخبرنى به الطبيب •

كانت لوسى تملك من المقدرة الأدبية ما يمكنها من كتابة

ونشر قصة أو قصتين على طريقة رودا بروتن • وفى منتصف حياتها ألفت رديئا نشره أحد المعجبين بها وقد تصادف أن كان ناشرا • والكتاب عبارة عن مجموعة نصائح فى صورة خطابات موجهة من امرأة عجوز الى امرأة فى مقتبل العمر • ولقد كتبته بأسلوب تهمكى فظ أثار أمى وكاد أن يصدمنى أنا شخصيا •

وعليك أن تستشف ما تبقى مستعينا بالملاحظات التى كتبتها على هامش نسختك المطبوعة على الآلة الكاتبة • وستجد فيها ما يفتح عينيك ويجعلك ترى بوضوح تلك الأسرة التى استطعت أن تشعف بها وتمجدها فى استراليا •

الى هنرى تشارلز دفين :

قرأت بزوغة صفحاتك عن « جوهر برنارد شو » (لماذا لا تقول جوهر الشيفيانية ؟) ، ولم تبعث فى نفسى من الكرب ما تبعثه عادة تلك الكتب التى تكتب عنى • وسأتناول مباشرة تلك النقاط التى تبدو لى قابلة للنقد • وسأكتب عنها بنفس الترتيب الذى وردت فيه بالكتاب دون أى محاولة للربط فيما بينها •

صفحة ٩ • تعزى الى هنا أننى أعلنت أن مسرحياتى أفضل من مسرحيات شكسبير • هذا غير صحيح • فى مقدمة **مسرحيات للتطهريين** يوجد فصل عنوانه « أفضل من شكسبير ؟ » (لاحظ علامة الاستفهام) • وفى هذا الفصل أناقش القضية التى أثارتها

حقيقة أن شخصيتين رئيسيتين من شخصياتى التاريخية قد قدمتا من قبل فى أعمال شكسبير • ومناقشتى لا تتضمن أية اشارة لما تقول أنت به • وهو فيما أعتقد يذكرنى بما كتبته فى مقدمة **عقدة اللاعقلانية** • ولكى لا أطيل عليك ان ما قلته هو أنه ليس باستطاعة أحد أن يكتب مسرحية أفضل من لير ولا أوبرا أفضل من دون **جيوفانى** • وباختصار أقول انه قد تم التوصل من قبل الى أعلى قمم النجاح الممكنة فى مجال الانتاج الفنى • ولكن ليس معنى هذا أن أى كاتب مسرحى عادى لا يمكنه أن يكتب عن قيصر شكسبير وبطريقة أفضل اذا قرأ « ممسين » و « فيريرو » بالاضافة الى أعمال « بلوتارك » • وليس معنى هذا أيضا أن « ابسن » لا يستطيع فى مجاله الخاص أن يبز شكسبير فى المهارة والعمق والذكاء • ان التباين الهائل بين ابسن وشكسبير هو الذى دفعنى الى أن أحمل على الجزء المزيف من شهرة شكسبير • لكن الفكرة التى تقرر أننى ادعيت صراحة أن مسرحياتى أو مسرحيات أى انسان آخر أفضل من مسرحيات شكسبير فكرة سخيفة ومنافية للعقل •

صفحة ١٥ • كل ما كتبته عن التدخين مضحك وسخيف ويعنى ببساطة أنك تدخن • هل ذهبت مرة الى محطة السكة الحديدية فى احدى القرى ودخلت عربة التدخين ؟ اذا استطعت أن تفعل ذلك دون أن تمتلىء نفسك بالاشمئزاز لحظة واحدة على الاقل فلا بد وأنك فاقد لحاسة الشم • عندما عدت من معركة « كاربنتر

ـــ بيكيت » كان على أن أغير كل قطعة من ملابسى قبل أن أستطيع الاقتراب من أى شخص دون أن أعتذر له • ما الداعى لتجاهل مثل هذه التجارب والكتابة عن « المسالم عاشق الغليون الهادىء ؟ » • اننى بالطبع أتحمل التدخين من الناحية العملية ، والا حكمت على نفسى بالنفى من المجتمع الانسانى • لكنى لا أتغافل حقيقة أن التدخين عادة كريهة وضارة • وعبارتك التى تقول بأننى « أعدل اعتراضاتى على التدخين عندما يصبح رمزا للتذمر والثورة كما هو فى حالة المرأة » عبارة خيالية محضة • اننى أكره رؤية امرأة تدخن • ولكن هذا لا يمنعنى من أن أعرض فى مسرحياتى نساء يدخن ان فيفيا وارين تدخن السيجار لأن الشخصية الحية التى أخذت عنها تفعل ذلك كما تدخن لوكا السجائر لأن فتيات بلغاريا يفعلن ذلك • انهن يدخن تماما كما تفعل برودبنت فى **الجزير الأخرى** لجون بول • لكن حتى ذلك يجب على ألا أفعله الا اذا تأكدت من أن الممثل ـــ أو الممثلة ـــ يستطيع أن يتظاهر بالتدخين دون أن يفعل ذلك حقيقة ، كما يقال عن ونستون تشرشل • تقول ان « مسألة التبغ مسألة فردية محضة » • لماذا تخصص أماكن للتدخين اذن ، ولماذا يمنع التدخين فى غير هذه الأماكن اذا لم يكن أحد يتأثر بالدخان سوى المدخن ؟ تقبل نصيحتى : اترك التدخين • حـــاول التطريز بدلا منه • ان بستـــانى حديقتى لا يدخن • انه يطرز •

صفحة ١٦ (وفى صفحات أخرى كثيرة) :

تقول اننى ألوم شكسبير وديكنز لأنهما يكتبان عن السكر والبذاءة بطريقة تثير الضحك • أنا لا ألومهما : اننى أقول ما تقاله كيجان : « ان كل دعابة لا تعتبر هزلا فى رحم الزمن » • ان أكثر آرائى جدية كانت تبدو لى فى لحظاتها الأولى وكأنها مجرد دعابات • وباستطاعتك ان ترى هذا التطور فى ديكنز نفسه • ان مسز ماكستينجر فى **دومبى وولده** تعتبر عنصرا من عناصر الاضحاك فى **توقعات عظيمة** • وفيما يختص بالسكر فى أعمال شكسبير ، عليك أن تعقد مقارنة بين سير توبى بلتش وبين كاسيو والملك فى هاملت • ان كثيرا من الاشياء التى اتخذتها مادة للهزل فى مسرحياتى سوف يستخدمها الكتاب فى المستقبل كمادة للمأساة •

صفحة ٣٤ : « يعتبر بتلر واحدا من أعظم الكتاب المحبوبين » •

لقد كتبت هذه الكلمات قبل ظهور مذكرات فستنج جونز • ولو قد تصادف وقرأت نقدى للمذكرات لأدركت لماذا أخبرك الآن بأن استخدامك لكلمة « محبوب » جرىء بعض الشىء الا اذا كنت تؤمن أن كل العباقرة محبوبون • لقد كانت أوجه الشبه بين بتلر وأبيه كبيرة جدا ، أكبر مما كان يتوهم • ولو وهب الموقر ثيوبولد بتلر عقلا قويا بدلا من عقله الضعيف لأصبح تماما مثل ولده العظيم •

صفحة ٤٣ :

هل تعتقد جديا أنـــه كان من الواجب على وليم بليك أن يكتب « زواج النعيم والجحيم » طبقا للمبادىء الأخلاقية التى تنادى بها مجلات الأديرة ؟ حاول مجرد تجربة اعادة كتابة **تلميذ الشيطان** بنفس تلك الشروط لترى أى نوع من المسرحيـــات ستصبح بعد اعادة كتابتها . اننى لم ألتق أبدا بشخص يدعى أنه وجد شيئا مميزا فى شخصية ديك دادجون . هل قابلت أنت مثل هذا الشخص ؟ ان احدى حسناتك هى أنك تكون فى قمة الذكاء حيث تكون ذكيا ، كما تكون وبوضوح أيضا فى قمة الغباء حيث تكون غبيا .

صفحة ٥٣ :

ان التسامح المذهبى عبث لا طائل من ورائه . اننى لا أستطيع أن أنظر بتسامح الى التعاليم التى سنتهـــا الكلفنيـــة للأطفال . ولو ملكت المقدرة على اضطهاد أصحاب تلك التعاليم لاضطهدتهم بنفس القدر الذى يضطهد به الحكم البريطانى هؤلاء الذين يؤمنون بحرق النساء فى الهند بعد موت أزواجهن . وعلى كل سلطة متحضرة أن توضح الخط الفاصل بين ما يمكن ومالا يمكن تحمله .

صفحة ٧٢ :

هل أدخلت فى روعك حقا أنه فيما يختص بالعلاقة بين الجنسين لا توجد أنثى سوى أنثى العنكبوت ؟ ان آن وايتفيلد فى مسرحية **الانسان والانسان الأسمى** لا تسيطر على رؤياى تماما كما تسيطر

على رؤياك • كما أن مأساة مسز « نكس » ليست مأساة عنكبوت وقد فاتها أن تدرك أن التغير الذى حدث لنكس نتيجة الحب الجسدى هو كل ما تقدسه مسز جورج فى الأسقف الذى حاولت الابتعاد عنه قدر طاقتها • وفى بعض الفقرات التالية تلاحظ أن ماجور باربرا ولسبيا جرانثام ولينا زباتوسكا أبعد ما يكن عن النحلة والعنكبوت ومثلهن فى ذلك مثل أقل رجالى حبا فى النسل • ويبدو لى أن ما تفكر فيه هو تلك القاعدة العريضة من الناس الذين يقفون من الجنس موقفا محايدا تقريبا قدر ما تسمح به ظروف الحياة ، و « آن » بالطبع لا تمثل هؤلاء • ويأتى بعد ذلك أناس — وعددهم كبير أيضا — ينظرون الى الجنس من الناحيتين الجسدية والنفسية وكأنه شىء عادى جدا ، لا يستحق منهم وعيا أو ادراكا معينا • قد يعتقد العنكبوت أنه ينسج خيطه ويصطاد فريسته لمجرد اللهو ، أو ربما كطقس دينى يؤديه لاله عنكبوتى ، وهو لا يعلم أنه ان لم يفعل ذلك يموت • لكن نوع المسرحيات الذى أكتبه يصبح مستحيلا تماما اذا لم أمنح شخصياتى مقدرة الادراك والتعبير الذاتى التى لا يمتلكونها فى واقع الحياة • ولو لم تتكلم الحيوانات لاستحالت كتابة قصص ايسوب الخرافية •

على أية حال قد يكون بيننا خلاف جوهرى فيما يختص بهذه النقطة • فلست متأكدا من أننى لن أقدم للمسرح يوما امرأة لا تحب الامومة ولا تنقصنى معرفة هذا النوع من النساء • اننى

لم أقابل أبدا ما تسميه بالمرأة التى تشبه الدجاجة فى احتضان بيضها والتى تعتبر نفسها أولا وأخيرا جهاز تفريخ للاطفـــال • ولكنى من جهة أخرى لم أقابل مطلقا امرأة أصابها الأسى لأنها وضعت طفلا • ولقد وجهت هذا السؤال لكثيرات ممن لا يحببن انجاب الأطفال وكانت اجاباتهن هى ما أقول به • وبخصوص هـــذا الموضوع تقول (صفحة ٨٤) « سيقول شو بالطبع ان هـــذا ضرب من ضروب النفاق الخبيث » اننى لا أحلم بقول شيء يتميز بكل هذا السخف والجهل •

فى حديثك عن الغيرة أقدمت على ســـهو غريب مما يجعلنى أشك فيما اذا كانت لك أية تجربة شخصية فى هـــذا المضار • ان جوليا فى **زير النســـاء** تعتبر دراســـة فى الغيرة تماما مثل ليونتيز فى **حكاية شـــتاء** • ومع ذلك فلا يبدو أنك لاحظت أنها غيور • ان الغيرة هى التى تجعلها غير محتملة وبطريق لا تطاق • وفيما يختص بهـــذه النقطة أحب أن أضيف أنه لا يبدو أنك تقيم وزنا للدور الكبير الذى يقـــوم به الكاتب المسرحى فى تقـــديم شخوصه المسرحية ، هـــذا الدور الذى يقـــوم على دراســـة للنماذج الحية • ان بعض شخصياتى صـــور طبق الأصل من النماذج الموجودة فى واقع الحيـــاة : ولقد استخدمت النماذج بالنسبة للبعض الآخر تماما كما يستخدمها المصور • انك تكتب عن شخوص مسرحياتى وكأنهم ليســـوا بشرا ، بل مجرد تجسيد لأفكار تجريدية •

صفحة ٩٣ : انك تفترض هنا أننى مثل ماكولى ، فى زمن ماركس ، أرى التاريخ فى حركة التنوير الشاملة • أنا لا أرى ذلك • اقرأ التعليق الذى كتبته فى **قيصر وكليوباترا** أو **دليل للثوار** • وسترى أننى أعتبر التضليل الماكولى أخطر أنواع التضليل •

صفحة ١٠٢ : انك تنسى أن « جريجورى لن » كان فى الواقع بين ذراعى مسز جيونو عندما وصلت زوجته فى صحبة جيونو • انه يقرر حقيقة عندما يقول انه على الرجال أن يغازلوا أغلب النساء الأن التحدث اليهن مستحيل • لكن هذه الحقيقة لا توفر ما هو فى حاجة اليه من أمان ، عندما تكون المرأة رقيقة طيبة وأنثى مغرية فى نفس الوقت • ان موضوع المسرحية هو سيطرة القوة الحيوية على أخلاقيات وضمير الطبقة العاملة • ولقد وصفها بيرون فى الفقرة التى تستشهد بها من « دون جوان » ، وهى تظهر هنا ولأول مرة فى صورة حدث مسرحى • ومع ذلك فمن الواضح أنك لا ترى فيها شيئا سوى ملحوظة تافهة بيديها جريجورى •

صفحات : ١٠٤ ــ ١٠٦ : اننى لا ألغى الاسرة ، فالمجموعة المكونة من أب وأم وأطفال هى الوحدة الاجتماعية الطبيعية ، رغم أنها فى حد ذاتها ضيقة ولا اجتماعية •

صفحة ١٠٦ : « المعنى فى بطن الشاعر » هو ما تصفه بأنه الأكثر احتمالا بمعنى أن الحياة العائلية ليست قدر الشاعر :

« الحياة أكثر نبلا من ذلك » • أن مكـــانه هو الليل المتلألىء بالنجوم وليست الحجرة المريحة ذات المصباح الزيتى • أما عن حلك البديل : « انها ستعود الى على أية حال أن آجلا أو عاجلا » فهو حل شديد السخف •

صفحة ١٤٣: عندما تقول مســز وارين ان وســيلة المرأة الوحيدة الى حياة طيبة هو أن تخلص لرجل يستطيع أن يخلص لها فان كلماتها تتضمن الزواج كما تقول ، ولكنها تشير أيضا الى أن النساء اللائى يملكن موهبة تمكنهن من الربح ، يصبحن فى غير حاجة الى الاعتماد على الزواج أو الدعارة كوسيلة للوصول الى مستوى أفضل من مستوى التسول • ولكن هذا لا يحدث الا فى حالة المواهب النادرة • انك تعلق على ما سبق بطريقة تدعو الى الحيرة عندما تقول : « لو اهتمت المرأة كمـــا يهتم الرجل باستخدام مقدرات أفضل وحصلت على مؤهلات أكثر ، فمن المؤكد أنها تستطيع أن تشق طريقها وتحيا حياة طيبة » • ويفهم من مضمون كلماتك أنه باستطاعة فتاة ولدت فى محل لبيع السمك المقلى فى أقصى الشرق أن تمارس ــ لو شـــاءت ــ كل المهن الحرة • وهذا يدل على أنك لا تدرك الحالة الحقيقية لحيـــــاة الفقراء • «اذا لم يكن لديهم خبز فلماذا لا يأكلون كعكا ؟ » : هذا المثل ينطبق على ما تقول • ومع ذلك فأنك تشير الى أن الرجال الذين لا يجدون بديلا للبغاء يتعرضون لنفس حـــالة الفقر والحاجة •

صـــفحة ١٤٦ : انك تظهر هنـــا ـــ ليس للمرة الأولى فى الكتاب ـــ انك تعتبرنى مجرد كاتب مسرحى ، رغم أننى ألقيت مئات الأحاديث ونشرت كتبا ضخمة عن الاشتراكية الفابية مقابل كل مسرحية أكتبها • ان وراء مسرحياتى فكرا اجتماعيا يجعلها تختلف جذريا عن تلك المسرحيات التى يكتبها مؤلفون تنحصر كل معرفتهم بالمجتمع فى مجرد المامهم بآداب المائدة واستخدام الألقاب •

الجزء الاخير من كتابك فى صفحات ١٤٦ ـــ ١٤٧ خاطـــىء تماما • اننى لم أدرك أبدا « عبث التحدث الى المقاعد الخالية » • لم تكن المقاعد أبدا خالية • ان ما تحققت منه هو عدم جدوى الحديث عندمـــا تمتلىء المقاعـــد كلها ، فلا فـــائدة ترجى من اجتماعات تزحمها الجماهير • من الواضح أنك لم تتبع أعمالى فى مجال الاشتراكية ومن الأفضل ألا تشغل بالك بها ، الا اذا كنت مستعدا للقيام بدراسة تستغرق وقتا طويلا •

أما عن مشكلة الشر ، فلست كما تقول « راضياً عن تركها دون ابداء رأى » • ان « بسنت » ـــ على العكس مما تقول ـــ يسأل : « ماذا عن الشر ؟ » ثم يجيب على السؤال • ان وراء كل أعمالى نظرية مدروسة للتطور الخلاق • ولقد عبرت عنهـــا باسهاب لأول مرة فى الفصـــل الثالث من مسرحية **الانســـان والانسان الأسمى** • انها ما يؤمن به بتلر وبرجسون • أما عن

عبارتك « التهكم الخفى من ذات الله » فهى مجرد ترديد مبتذل لما قال به بيرون ولما نادت به لا أدرية القرن التاسع عشر .

صفحة ١٥٨ : لا يمكن فرض « الاحساس بالشرف » على الأطفال بواسطة معلميهم . ان الاحساس بالشرف وهج مقدس ينبع من روح الطفل ويمكن للمعلمين افساد هذا الاحساس اذا ما وجهوه توجيها خاطئاً (مبادىء الشرف المعمول بها فى المدارس العامة على سبيل المثال) . لكن الاحساس الطبيعى دائما ما يتمرد على أى تضليل . ودائما ما يرفع العباقرة النقاب عن وجوه الأدعياء .

صفحة ١٦١ : تتحدث عما أنادى به من أنه لا بد وأن « تفسر العقائد بحيث تصبح معقولة » . لكنك تذهب الى حد الادعاء بأننى أطالب باخضاعها للحقيقة والمنطق . وهذا ما يدفعك الى تخيل أننى أعتبر الرجال والنساء جميعا مفكرين ومنطقيين ، رغم أنك توافق على أن مسرحياتى الكوميدية تثبت عكس هذا القول . وغالبا ما تكون الحقيقة أغرب من الخيال .

ان ما يشغل تفكيرك هو اصرارى على اظهار التأثير الضار الذى تحدثه المعتقدات فى نفوس من لا يستطيعون الايمان بها من أصحاب العقول المفكرة . وتكون النتيجة أنهم اما أن يديروا ظهورهم للدين والحياة العامة واما أن يتحولوا الى مجموعة من المنافقين . وليس لصحة العقيدة أية صلة بهذا الشأن . ان ما أريد قوله هو أن العقيدة الرسمية تصبح مصدر

للاذى والشقاق فى حالة عدم الايمان بها ، أما اذا آمن بهـا الناس فانها لا تسبب شيئا من ذلك ، رغم أن ما ينكره الناس من عقائد قد يكون صحيحا وما يؤمنون به قد يكون زائفا •

صفحة ١٨٦ : ان وصفك للديمقراطية على أنها « حماقة مدججة بالسـلاح » يحتول على الكثير من الصدق • لكن فاتـك أن تدرك حقيقة أننى أعتقد أن « المحامى والقس ورجل الأدب والسياسى » يشكلون فى اجمالهم خطرا أكبر مما يشكله عـامة الناس الذين لم يحولهم ما تسميه بالتعليم الثانوى الى مجموعة من السفهاء والحمقى •

لقد خططت بعض الملاحظات على هوامش الصـفحات التالية لصفحة ٢٠٠ ، حيث أعتقد أنك تبدو شكسا من حين لآخر كما حدث فى اشارتك السابقة بخصوص التدخين • ومن المحتمل أنك لم تقرأ مقدمتى للكتاب التعليمى السنوى لعام ١٩١٩ الذى حددت فيه بعض الفروق بين التعليم الفنى والتعليم النظرى وهو لا يقل عن الاول فى أهميته ، وخصوصا ذلك النوع الـذى يتضمن التعليم الدينى الذى أعتبره ضربا من ضروب التعليم الفنى •

أما فيما يختص بمسألة ضرب الأطفال ، فأنا الكـاتب الاجتماعى الوحيد الذى قال بوضوح أنه يجب ترك الأطفال كى يتعلموا عن طريق تجربة الصواب والخطأ ، وأنه يجب معاقبتهم اذا ما أساءوا بطريقة لا تحتمل • لكنى قررت فـى

اصرار أنه اذا اقتصر التعليم على ضرب الطفل بدلا من اعطائه اجابات محددة لاسئلة محددة ، فان أمثال سكويرز وكريكل يصبحون خيرة المدرسين • كما أن مهنة التدريس ذاتها لا تصبح فقط مجرد عمل يخلو من المهارة ولكنها تصبح أيضا عملا مشينا • وتدفعنى ملاحظاتك الى الشك فى أنك كنت مدرسا بلا ميل للتدريس • تقول اننى كنت تلميذا غير قابل للتعليم فى مدرسة غير صالحة • لكن ماذا تعنى بعبارة : « صبى غير قابل للتعليم » ؟ لقد كنت تواقا الى المعرفة ، مهتما بكل ما هو حولى ، لكنى لم أستطع قراءة الكتب المدرسية بالرغم من أننى كنت أستطيع تقريبا قراءة أى شىء آخر • ان المدرسة التى تعرف الآن بكلية ويسلى كانت بلا شك مدرسة غير صالحة للتعليم ، لكنها كانت وما زالت من أفضل مدارس الدولة • لقد كان شيللى فى ايتون فتى غير صالح للتعليم فى مدرسة سيئة ولكن ليس بالمعنى الذى تعنيه • من المحتمل أننى كنت من أكثر صبية أيرلندا قابلية للتعليم • واذا لم أكن قد تعلمت فى المدرسة شيئا يذكر سوى أن المدرسة سجن وليست مكانا للتعليم فان النتيجة هى أن فن التعليم لم يصبح بعد علما •

صفحات ٢٠٨ ــ ٢٠٩ : ان شخصية ديوبيدات تمثل رأيا أحبه وأعلنه وهو أنه لا يوجد انسان مكتمل الضمير • انه يتمسك بالشرف فى نطاق مصالحة واهتماماته ، لكنه لا يكترث ولا يدقق فيما لا يهمه من أمور • ومن النماذج العديدة التى ساعدت على

خلق شخصية ديوبيدات ، شخصية ذلك الانسان الذى يرتاب بصورة مروعة فى كل ما يتعلق بمعتقداته الدينية والسياسية والذى كان يفضل أن يشنق على أن ينكر حرفا واحدا ، لكنه كان يتجرد تماما من الضمير اذا ما أصبحت القضية قضية مال ونساء : كان بلا خجل فاسقا ومقترضا ، ولا أريد أن أقول انه كان لصا • واذا ما قورن برجال يسلكون سلوكا سويا فيما يختص بأسرهم وحياتهم العامة فانه كان يبدو سفيها ، بل انه كان فى الواقع سفيها • ولكن كانت هناك لحظات تتضاءل فيها الكثرة اذا ما قورنت به : عندما تحين لحظة المخاطرة والتضحية من أجل العقيدة • ان ديوبيدات جاد تماما عندما يقول وهو على فراش الموت انه خاض معركة منتصرة • وهو يعنى بذلك أنه لم يضيع وقته فى تصوير فتيات صغيرات يلهين مع كلاب الصيد كى تعرض صورهن وتباع فى الأكاديمية الملكية ، بدلا من أن يبذل قصارى جهده فى مجال فنه • لقد كتبت كثيرا عن البوهيمية الفوضوية ، قلت انها لعنة تحل بالفنانين كما أعلنت أننا لا نعانى نقصا فى شخصيات الناجحين من العاملين المتزنين الشرفاء•ودائما ما رفضت أن تكون الموهبة مهما علا شأنها ، عذرا لأى انحطاط فى السلوك • الا أننى رغم ذلك أعى تمام الوعى أن أخلاقيات الطبقة البرجوازية ما هى الا مجموعة من الفضائل الرخيصة التى تستخدم كستار لاخفاء مجموعة من الرذائل المخيفة • وعلى ذلك فليس باستطاعتى أن أتقبل رفضك لديوبيدات بحجة أنه

مجرد وغد سافل • لقد كانت له عقيدة ومبدأ • ولقد تمسك بعقيدته ومبدئه •

الصفحات ٢١١ ــ ٢١٢ : اننى لا أكن عطفا خاصا « للمجرم فى زانزنته » اننى أثور على قسوة أن يوضع أى انسان فى زانزنة • والحل البديل عندى ــ وهو قتل المجرم اذا استحالت الثقة فيه ــ قد يبدو له خاليا من أية لمسة من لمسات العطف • اننى لا أكره « العنف الجسمانى مهما كان نوعه » • لقد حصل منى المرحوم سيسل تشيسترتون على تفسير كامل لوجهة نظرى فيما يختص بهذا الموضوع • ان الأشرار والأغبياء دائما ما يستخدمون العنف الجسمانى كسلاح للقضاء على أصحاب الفضائل والفكر • ومجرد الاحساس بضرورة ترديد هذه الكلمات فى الوقت الحاضر ما هو الا دليل على أننا ما زلنا نخضع لنزعات عاطفية طائشة • ان أهم معارك الشرف فى المجتمع المتحضر هو ألا نخوض المعارك الفكرية بقبضات اليد وألا نقابل الجريمة بالتعذيب • لقد كان بول جونز على حق عندما رفض أن يجلد أحد المتمردين ، لكنه أبدى استعداده لقتله اذا دعت الضرورة •

لكن يجب على ألا أزعجك باثارة اعتراضات أخرى تافهة • أوافقك تماما على النتيجة التى وصلت اليها وهى أن شو « اللامع » ما هو الا واعظ يتمثل عمله فى أربعة أو خمسة موضوعات كان من الممكن أن تثير كثيرا من الملل ، لولا أنه يملك

شيئا من مقدرة الفنان • لقد أدركت روح المسرحيات ولبابهـا بطريقة قد تكون مستحيلة لو لم تجد لذة فى قراءتها والاستمتاع بها ، ولقد استمعت بها بطريقة كان من الممكن أن تكون مستحيلة لو لم تكن القوة الحيوية فى داخلك متوافقة مع القوة الحيوية فى داخلى • اننى لم أتوقع منك أن تناقش أعمالى حتى أدق تفصيلاتها • لكنك أثنيت عليها بطريقة مؤثرة وكافية لدفع الناس للمجىء الى والاستماع الى ما يجب على أن أقوله لهم • ولذلك أشكرك • وهذه هى المرة الأولى التى أقرأ فيها كتابا عن نفسى وأهتم بكل ما جاء به •

السيرة التى كتبها ماكمنوس فى كتاب ونستن : ج •ب• شو فى التسـعين •

صفحة ٣٣ : ليس هناك شىء أكثر زيفا من هذه الصفحة التى تصور حالتى العقلية وأنا أعبر القناة الأيرلندية • وفيمـا يختص بأغراضى وأهدافى ، لقد تركت أيرلندا لأنه لم يكن لى هناك أى مستقبل واضح المعالم ، اذ كانت دبلن قفزا جرداء فى مجـال الفن فى الفترة مـا بين هجرة « لى » وحركة البعث المسرحى التى قادهـا « و • ب • ييتس » « وليـــدى جريجورى » أما فكرة غزو لندن فلم أكن لأحلم بها أو بامكانية تحقيقها أكثر مما يحلم أى قروى مهاجر بامكانية غزو الولايات المتحدة •

صفحة ٣٣ : لم يكن شعرى الأحمر النحاسى يشبه شعر

أختى اجنز بصـــورة جلية • لكنى كنت « حيوانا أشقر » من النوع الدنيمركى •

صفحة ٣٦ : دائما مـــا كنـــا نتحدث عن بيت جدتى فى « روندتاون » وما يحيط به من مناظر أخاذة • لقد قيل لى أنه تبدل الآن : النصفمساكن والنصف الآخر محلات •

لم نتعلم بالتأكيد ــ نحن معشر آل شو ــ أن نبجل أواصر الصلة بالانجليز • لقد كنا فيما يختص بهذه الصلة نعتبر أنفسنا طرفا يتمتع بقدر كبير من الشهرة والامتياز •

لم أر أبى أبدا وفى يده كتاب • لكن لا بد وأنه كان قارئا فى صدر شبابه • لأنه كان ملما بروايات سكوت وكان يشجعنى على القراءة • قرأت له **رحلة الحاج** • وأذكر أنه صحح لى نطق احدى الكلمات •

لم تنجح العملية التى أجراها سير وليم وايلد لعلاج حول عين أبى لقد عالج الحول الطبيعى لكنه تسبب فى احداث حول أسوأ منه فى الاتجاه الآخر •

ليس هناك مبالغة كبيرة فى الحديث عن تذوق أبى للفكاهة واحساسه بها • لقد كان يحب السخرية من المواقف التى تتأزم فيها الأمور ولقد ورثت عنه هذا الحب • عندما أوشك الخراب أن يلم بشركة كليبورن وشو بسبب افلاس أحد مدينيهـــا لم يستطع كليبورن أن يمسك دموعه : أما عن أبى فقد اتجه الى

المخزن وأخذ يضحك وحده • ان الأيرلنديين الذين يتمتعون بحاسة الفكاهة يواجهون الكوارث وهم يضحكون •

لم يكن جدى صاحب ضيعة فى دبلن : كانت أملاك أجداده فى مدينة كارلو (ولقد ورثتها بعد موت ولده وأعطيتها لمجلس الحى بعد أن أديت ما عليها من ديون) • لقد عاش فى أترازد كسيد ريفى يقضى معظم وقته فى صيد الطيور والسمك وبناء القوارب وأعمال النجارة الخاصة به كأى هاو بارع •

صفحة ٣٧ : لم تكن العمة الين فى حجم الأقزام بالرغم من أنها كانت جدباء • ولم تكن سانت برايد بالقرب من شارع سينج • لقد كانت فى منطقة الأكواخ وأزيلت مبانيها منذ زمن طويل حيث لم يكن يقطن هناك سوى فقراء الكاثوليك • ان تاريخ تعميدى مدون فى سجلاتها • لكنى لا أعرف على وجه التحديد ما اذاكانت هذه السجلات قد حرقت فى قصر العدالة أثناء الحرب الأهلية أم أنها محفوظة فى مكتبة كلية ترينتى •

صفحة ٣٩ : لم يكن باستطاعة أى فرد ممن يشتغلون بالأعمال الكتابية فى المدينة أن يعيش فى شارع سينج ، فأغلب سكانه كانوا تجارا من أمثال أبى • لم يكونوا موسرين • لكنهم من الناحية الاجتماعية كانوا أرفع مقاما وأعلى منزلة من أصحاب الدكاكين •

كان « بوشى بارك » وما زال بيتا ريفيا فى رثفارنهام خارج مدينة دبلن تماما ، بالرغم من أن عنوان البريد هو ترينور •

صفحة ٤١ : لم يضحك أبى أبدا وهو سكران • وعندما حدث أن اتجه الى حائط كوخ دوكى معتقدا أنه الباب ومحولا قبعته الطويلة الى آلة موسيقية وهو يضرب الحائط برأسه ، لم يصدر الضحك عنه هو — كان ولده وأخو زوجته هما اللذان يضحكان •

صفحة ٤٢ : لا بد وأن الآنسة كارولين هيل قد علمتنى الكثير من الأشياء التى لا أذكر متى تعلمتها ، وقد اعتقدت أننى قد قد وهبت العلم بها ولم أتلقاه عن أحد • لقد لازمنى هذا الاعتقاد عدة سنين بعد أن بلغت سن الرشد ، لكنى تحققت ذات يوم فجأة أن هذا الاعتقاد باطل • وحيث أن مسز هيل كانت قد ماتت منذ زمن طويل ، لذا سارعت بالاسهام فى المعهد الخيرى للمربيات • لا أستطيع أن أذكر متى تعلمت القراءة ، لكنى أذكر جيدا احدى الأمسيات الممطرة على أرصفة الميناء عندما احتميت وأبى من المطر فى أحد الأروقة التى غطيت جدرانها بالاعلانات • وبما أننى كنت صغيرا بدرجة تمكن أبى من حملى بين ذراعيه ، لذا كانت دهشة الجمهور بالغة عندما قرأت الاعلانات كلها بصوت مرتفع •

صفحة ٤٣ : لم يكن فى بيتنا « وفرة من الآلات الموسيقية » ، فبعدما حطمت بورى أبى لاعرف ما بداخله ، لم لم يتبق لنا سوى البيانو •

صفحة ٤٤ : هذه مجموعة من المغالطات • كان « لى » كقائد

فرقة يتمتع بمقدرة فذة • لقد جمع فرقة أوركسترا من الهواة ، يدعمها من وقت لآخر عازف منفرد من احدى الفرق العسكرية • والرأى الذى يقول ان بروفات الأوركسترا كانت تقام فى منزلنا ، رأى سخيف • لقد كانت تقام فى القاعة القديمة للحفلات الموسيقة فى شارع برنزويك : البروفات فى قاعة اللواء والاداء فى قاعة الحفلات • أما البروفات التى أقيمت فى منزلنا فقد كانت بمصاحبة البيانو فقط • لم يشتك الجيران أبدا : كان العزف على قدر كبير من الاجادة ولم تكن هناك ضوضاء .

وبعد موت أخيه عاش « لى » فى شارع هارينجتون مع مديرة بيت عجوز اشتهرت بفظاعتها مما دعى « لى » الى التخلص منها بطريقة ما وبعدها عشنا معه فى المنزل رقم ١ بشارع هانتس •

وباستثناء العم وليم الذى كان يعزف على آلة الأفكليد فى فرقة « لى » لم يكن هناك أى صلة موسيقية بالأقارب من آل شو • وقد كان باستطاعتهم جميعا — دون أن يحظوا بأى قدر من الدراسة الكلاسيكية — أن يعزفوا النغمات الشائعة سماعا على مختلف الآلات •

أما عن بنت العم ايميلى — عازفة آلة الشيللو — فقد كانت أخت أبى وزوجة كاهن أبرشية سانت برايد • كانت تكره أمى ولم تأت أبدا الى شارع سينج • وفى أحد الأيام قامت

أمى بزيارتها ، وعندما أخبروها بمقدمها ، سمعتها أمى وهى تصيح « العاهرة » • وأنهى هذا الحادث كل ما بينهما من علاقة •

صفحة ٤٥ : يوجد حذف فى هذه الصفحة • لقد كان أغلب المطربين المجيدين فى فرقة « لمى » من الكاثوليك ونتيجة لصلتنا بهم تلاشى من تفكيرى ذلك الرأى القائل بأن الكاثوليك أناس متحطون منبوذون ، وجميعهم الى الأبد ملعونون • ان حبى واحترامى لهم مازال يفوق حبى واحترامى للمتعالين عليهم من البروتستانت •

كان كوخ دوكى يطل على تل توركا وكل من دبلن وخليج كيلينى وكان خارج مدينة دوكى الصغيرة ويعلوها بكثير • لم يكن شاطىء كيلينى مليئا بالحصباء ، كان رمليا من أوله حتى آخره • ان بكوخ توركا حاليا لوحة جميلة أزيح عنها الستار فى يناير ١٩٤٨ لاحياء ذكرى اقامتى هناك • ولقد أرضتنى الى حد كبير •

صفحة ٤٦ : فى ذلك الحين كان مرض السل يسمى التدهور أو الهزال ولم يكن يعتبر معديا • لقد أصيبت به أختى آجنز نتيجة عدوى من احدى الخادمات • وبعد تدهور سريع فى قواها ماتت فى جزيرة وايت ولم تمت فى مصحة •

كان بيتنا فى طريق فلهام يقع فى عطفة تجاه مكتب بريد وست برمبتون على وجه التقريب • وكانت تسمى آنذاك أيكة

فيكتوريا ، ثم أعيدت تسميتها وأصبحت حاليا تعرف باسم أيكة نثرتون • ولقد أزيلت الفيللا رقم ١٣ وحلت محلها أبنية ضخمة ، كما حدث نفس الشيء بالنسبة لكل الفيلات على الجانب الشرقى • لكن الفيللا الأخيرة فى الجهة المقابلة تعتبر صورة طبق الأصل من رقم ١٣ •

صفحة ٤٧ : لم أحاول مجادلة أبى مطلقا ولم أسأله : لماذا ؟ لمـــاذا ؟ لمـــاذا ؟ كنت كطفل أسأل : ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا ؟ كما يسأل كل الأطفال أباءهم • ولقد حدثنى نتيجة لهذا الالحاح عن أشياء كثيرة لم يكن يعرفها مستنبطا اجاباته من وحى اللحظة • وكما وجدت فيما بعد ، كانت اجاباته صحيحة تماما • هكذا يكون سحر الأبوة •

صفحـــة ٤٩: لم أقرأ أبدا قانـــون ايمان الكنيســـة الانجليزية ولا أعرف شيئا حتى عن مجرد وجوده•أما عن مارى ولستنكرافت فلم أسمع بها مطلقا • ولقد قيل لى أن « بين » ما هو الا صانع مشدات سكير وعربيد ، كما لقنت أن فولتير وروسو كانا كافرين وأن لحظات موتهما كانت مرعبة،وذلك لتأكدهما من أنهما ذاهبان الى الجحيم • لقد كان جزءا من التعليم فى تلك الآونة التى كنت أتلقى فيها العلم يدور حول اقناع الشباب بأن هؤلاء الثلاثة ــ وقد كانوا من أعظم المتدينين فى أوربا ــ ما هم الا أوغاد كفرة زج بهم فى نار جهنم يصلونها أبدا • ولقد أزال شيللى كل هذه الأفكار من رأسى بعد أن قرأت جميع أعماله

شعرا ونثرا • ولقد انتهيت منها وأنا أودع مرحلة المراهقة وأقف على أبواب مرحلة الشباب •

صفحة ٥١ : لم أكن أدرك « أننى موهوب » • ولقد أحسست بالعجز سنين عدة وذلك لأننى كنت أتخيل أن الجميع يتساوون معى فى المعرفة بل ويتفوقون على فى تأدية مختلف الأعمال • وكان عدم الثقة دائما هو العقبة • وكنت أنسحق كلما فكرت فى مقدار جهلى • ولقد بلغت بى السذاجة حدا جعلنى أتخيل أننى الجاهل الوحيد فى هذا العالم • كنت جبانا حتى جعل منى ماركس شيوعيا وأعطانى عقيدة أومن بها • وعندما ذاع فيما بعد أننى ولدت بعبقرية شكسبيرية هنأت نفسى على أن الطبيعة أو ما يطلق عليه اسم الذات العلية أو القوة الحيوية قد منحتنى فى صباى مقدرة فائقة على الاحتفاظ بذاتى خشية أن أبعثر عبقريتى فى مخاطرة عربيدة • وعلى أية حال لقد كنت جبانا فى صباى ولقد شعرت لذلك بخزى مرير •

أيوت ، سانت لورانس

١٩٤٧ — ١٩٤٨

(١٥)

أصل كورنودى بأسيتو

لم أوافق على الجلبة التى أثارتها جريدة « ســـتار » فى عددها الخمسين ذلك لأنها ذكرتنى بأننى فوق الثمانين • ان ميلادها يبدو لى وكأنه حدث من أحداث أمس الأول •

لقد اتخذت لنفسها الآن مقرا محترما فى نطاق شارع فليت ، لكن نشأتها الأولى كانت فى قفار فارنجتون فى شـــارع ستونكتر وفى مبنى أقيم خصيصا لهذا الغرض • وكان المبنى يبدو فى ذلك الحين مرتفعا بدرجة تفوق الحد المـــألوف • وكان له فناء مربع يمثل هوة مخيفة لسكان الدور العلوى فى حالـــة اذا ما اشتعل المبنى وأمسكت به النيران •

ورتبت الأمور بحيث يعيش « تاى باى » فى نفس المبنى (تاى باى هو الاسم الذى أطلقه ادمند بيتس على الايرلندى المرحوم ت • ب • أوكونر ، عضو مجلس العموم ومؤســـس « ستار » ورئيس تحريرها) ، لكن مسز ت • ب اعترضـــت عندما أطلت على تلك الهوةالمتمثلة فى فناء المبنى • وعلى ذلك فقد ثبتوا فى نافذة حجرتها أنبوبا من القماش المتين كى تهرب عن طريقه فى حالة نشوب حريق • وصممت مسز ت • ب • على

أن تجربه قبل أن يترك البائعون المبنى • ولم يخبرها أحد بضرورة استخدام مرفقيها للتقليل من سرعة اندفاعها ذلك لأنه لم يكن فى انجلترا فى ذلك الحين ، كما أنه لا يوجد الآن ، من البائعين من لديه أدنى فكرة عن طريقة استخدام الأدوات التى يبيعونها •

كل ما فعلته مسز ت • ب • هو أن وضعت نفسها فى الأنبوب وانزلقت وهكذا اندفعت مثل البرق خارجة من الجزء السفلى الذى كان يمسك به الرجال فى شكل مخروطى ينتهى عند الحائط المقابل • وكان من الممكن أن يقتل أى انسان آخر فى مكان مسز ت • ب • ، لكنها دون أن تهتز منها شعرة واحدة لم تفعل شيئا سوى أن قالت رأيها فى سلم النجاة للممسكين به وقد استولى عليهم الفزع •

ووجدت مسز ت • ب • مجالها فى أحد أبواب « ستار » وكان هذا الباب مدعاة لفخر ت • ب • لقد خلق ارمند بيتس لجريدته الأسبوعية شعبية كبيرة فى « وست اند » وذلك عن طريق الثرثرة الاجتماعية التى كانت يملأ بها عدة أعمدة تحت عنوان « ما يقوله العالم » • ولم يسمع بمثل هذا الشىء فى فى جريدة تباع بنصف بنس وتهدف الى « وضع قطعتين من السكر بدلا من قطعة واحدة فى فنجان الشاى الذى تتناوله الغسالة » (تعديل ت • ب • لعبارة سويفت الشهيرة : « حبتين من القمح بدلا من حبة واحدة » • لكن ت • ب • كان على حق فى زعمه أن

المغسالات شغوفات بالثرثرة الاجتماعية تماما مثل الدوقات • ولقد ترك لمسز ت • ب • العنان فى عامود بعنوان « عن الناس على الأخص » ولقد افتتحته بعبارة : « ان ليدى كولين كامبل هى المرأة الوحيدة فى لندن التى تدرم أصابع قدميها » •

كانت مسز ت • ب • سيدة أمريكية على قدر كبير من الجاذبية ، لكن ت • ب • لم يستطيع أن يرتفع الى مستوى حسن حظه • لم ينجح الزواج ، وهجرت مسز ت • ب • شقتها العلوية وافترق الاثنان تاركين « عن الناس على الاخص » كـــى يفقد ـــ عن غير عمد ـــ الكثير من جاذبيته •

كان حظ ت • ب • كرئيس للتحرير يكاد يتشابه مع حظه فى الزواج • لقد بدأ الجريدة بكل ما أمكنه من قوة وبهاء • لكن نظرته السياسية كانت عائقا فى سبيل استمرارها ، اذ أن هذه النظرية توقفت عند الستينات من القرن الثامن عشر ، ولم تتخطى هذه الفترة ، وبالرغم من أننى أعتقد أنه لم يكن كراهية لأى شخصية انجليزية باستثناء جوزيف تشامبرلين ، الذى كان يسميه يهوذا ، الا أنه كأحد خريجى كلية جالواى المخلصين كان يكره الانجليز ككل •

وعندما ســـيطرت الجمعية الفابية على أول مجلس فى مقاطعة لندن ودفعته الى الاشتراكية المحلية تحت ستار التقدمية، أحس ت • ب • بالضياع • وعندما حاول مساعده الأول هـ • و •

ماسنجهام ـ الذى كان يلقب بالفتى ـ بالاشتراك مع ارنست بارك ، أن يدفها فى طريق التقدمية ، احتج جون مورلى بكل ماله من سلطة المقاعد الامامية ، مما أثار فزع ت•ب• وجعله يعود الى ما كان ينادى به قديما من ضرورة الربط بين سياسة حزب الأحرار وحرية التجارة من جهة وبين الفنيانية الأيرلندية فى صورة حكم محلى من جهة أخرى •

وفى الحال وصله على عنوانه بشارع ستونكتر عشرون خطابا تحتج بكل حدة على تراجعه • وكان تأثيرها عليه كتأثير ثورة عارمة لأمة بأكملها • وبالرغم من أن ماسنجهام أكد لرئيسه أننى كاتب الخطابات (وكان هذا الرأى ، قريبا جدا من الحقيقة ، اذ أننى طلبت من عشرين غابيا أن يهاجموه) الا أنها تركت فى نفسه أثرا لم يستطع أن يتخلص منه • وتلك هى طبيعة رؤساء التحرير •

وبناء على توصية من ماسنجهام التحقت بهيئة تحرير «ستار» ككاتب افتتاحية ، فى اليوم الثانى من صدورها ، ذلك لأنه فى اليوم الأول أعطيت أوامر مشددة للبواب كى يمنع من الدخول أى شخصية مشكوك فى أمرها ، وبناء على ذلك فقد رفض أن يسمح بالدخول لأى ممن يعملون بمهنة الادب • ولم يجرؤ ت • ب • على نشر أى من مقالاتى الافتتاحية حيث أن الجريدة بدأت مشايعة لحزب الأحرار • ورغم أننى كنت دستوريا الا أننى كنت اشتراكيا جريئا ، وكان كل هدفى من العمل فى الجريدة

هو أن أسير بها فى اتجاه الاشتراكية المحلية التى تنادى بهـا الفابية •

لكن لندن اعترضت بحزم على البرنامج الفابى الذى حورب ودحر فى أول معركة انتخابية للمجلس الاقليمى • لقد أثار البرنامج ثائرة قدامى الأحرار من أتباع جلادستون واعتبروه من أخطر أنواع الكفر • وعليه فقد أرغمونى على أن أعتزل هيئة تحرير الافتتاحيات وأطلب عملا متواضعا لا يزيد فى مضمونه عن مجرد الاسهام بعامود أسبوعى عن الموسيقى • ولقد وافق ت • ب • على طلبى بارتياح حيث بدا له اننى لن أسبب مشاكل فى هذا المجال ، ومن هنا بدأت كتابة العامود الأسبوعى الموقع عليه باسم كورنو باسيتو • ولم يعره ت • ب • أى اهتمام، ذلك لأن جهل رؤساء تحرير الجرائد اليومية بالفنون الجميلة فى ذلك الحين بلغ حدا يصعب تصديقه حاليا • لقـد حالت واجبات عملهم اليومى بينهم وبين الذهاب الى المسارح وحضور الحفلات الموسيقية • وكان من الممكن أن يأخذوا أى كلام تافه أو غير مفهوم على أنه نقد فنى • ولقد وضعت الاذاعة حدا لهذا •

وبدا فى الحال أننى قد استخدمت كلمة « موسيقى » بالمفهوم الأفلاطونى ، حيث أننى كنت أكتب عن كل ما أود الكتابة عنه • ولقد حرصت أول ما حرصت على أن يكون كورنو

باسيتو مسليا • ثانيا استخدمت معرفتى بالموسيقى ودرايتى بالاقتصاد السياسى — ولم يكن أحد يشك فى أننى على درايـة بأيهما — كأساس متين لنقد أصيل أتناول به شطحات باستيو وطيشه • وأخيرا ، بعيدا كل البعد عن أن يتفوق على أحد ، تفوقت أنا على ت • ب • الذى أصبحت مقالاته لا تتناسب أبدا وروح العصر بعد أن سبقها وتقدم عليها عمود باسيتو •

(١٦)

الى فرانك هاريس عن الجنس

فى تاريخ الســـيرة

أولا ، ضع نصب عينيك أيها المؤرخ الذى استحوذ الجنس على تفكيره ، أنك لن تستطيع أن تعرف شيئا عمن تؤرخ لهم عن طريق استقصاء الدور الذى يلعبه الجنس فى حياتهم • أن العلاقة الجنسية ليست علاقة شخصية ، فمن الممكن أن تسور وتتم فى نشوة بين أشخاص قد لا يطيق أحدهم الآخر لمدة يوم واحد لو قامت بينهم أية علاقة أخرى ولو أخبرتك بكل ما تمتعت به من أمثال هذه التجارب المثيرة ما زاد هذا فى معرفتك عنى شيئا • لن تعرف الا ما عرفته من قبل : وهو أننى بشر • ابعد عن ذهنك أى شكوك قد تساورك فيما يختص بمقدرتى الجنسية : لم أكن عنينا ولم تنقصنى الخصوبة ولم أكن مصابا بشذوذ جنسى • كنت حساسا سريع الاستجابة ، رغم أننى لم أبلغ حد الاستهتار والعبث •

كما أننى لم أكن مصابا اطلاقا بعقدة الخطيئة الأولى (هذا هو مفهومى لها) • فلم أكن لأربط أبدا بين الاثم والجنس ، كما أنه لم تساورنى أية شكوك أو أى ندم أو تأنيب ضمير فيما

يختص باثارة المتاعب للنساء أو بتدبيث الأصدقاء • كما أننى أرى أن الطهر عاطفة ، تماما كما أرى أن الذكاء عاطفة ، لكن موقف سانت بول من الجنس كان يمثل لى دائما حالة من الحالات المرضية • ان التجربة الجنسية تبدو رغبة طبيعية واشباعها يعتبر تكملة للتجربة الانسانية التى لا غنى عنها فى حالة الابداع الفنى • لم أكن أميل الى العذراوات ، لكنى كنت أفضل النساء المكتملات النضج اللائى يعرفن معنى ما يفعلن •

لقد أصابتك الدهشة واعتراك عدم التصديق عندما أخبرتك أن تجربتى الأولى لم تحدث الا بعد أن بلغت التاسعة والعشرين لكنك تقع فى خطأ كبير لو اعتقدت أن حياتى الجنسية تبدأ منذ هذا التاريخ • لا تسىء فهم هذا : لقد كنت عفيفا تماما ، باستثناء لحظات الغلمة التى كانت نادرا ما تحدث لا ارداديا فى عالم الخيال • أما عن موقفى بين أوسكار وايلد الذى يحدد السادسة عشر كبداية للجنس وروسو الذى أعلن أن دمه اشتعل بالجنس منذ لحظة ميلاده ، فان تجربتى الشخصية تؤكد ما قاله روسو وتدحض رأى وايلد • وتماما كما أننى لا أستطيع أن أتذكر متى لم أستطيع القراءة والكتابة ، فأنا لا ستطيع أن أتذكر متى لم أستخدم خيالى فى تصوير النساء فى أحلام اليقظة •

أرى أنه من الواجب على الشباب أن يتعبدوا فى محراب

الربة فينوس كى تحفظهم أطهارا • وهذا ما يجعل الفن مهما غاية الاهمية • لقد تعمقت منذ طفولتى فى الاوبرا الرومانسية وعرفت كل العصور والتماثيل الاغريقية القديمة الموجودة فى معرض أيرلندا القومى • قرأت بيرون وكل ما استطعت أن أحصل من قصص رومانسى • كما جعلنى دوماس الاب أحس بالتاريخ الفرنسى وكأنه احدى الأوبرات • وكنت أتمتع وأنا أطل من كوخنا فوق تل دوكى بمنظر ساحر للبحر والسماء والجبل • لقد أتخمت بالمن وكانت الربة فينوس كريمة فى عطائها •

وبالرغم من أن الربة فينوس تستطيع انقاذنا من الانحرافات المبكرة ، وتمكننا من أن نطيل عذريتنا الجسدية بعد بزوغ فترة المراهقة ، الا أن المشكلة هى أن باستطاعتها أيضا أن تعقمنا وذلك بأن تحبونا بغرام خيالى لا تسعه الا آفاق السماء ويبلغ سحره درجة تفسد معها علاقتنا بالنساء والرجال فى عالم الواقع • وقد يقودنا الافراط فى عشق الجمال واشتهائه الى حياة بلا زواج • وقد ينتهى بنا المطاف كرهبان أو قديسين أو عجائز بلا زوجات أو عوانس ، ذلك لأننا لا نملك مقدرة أبطال العشق الاسطوريين • ان قصائد العشق التى نكتبها لا تثير سوى الاحساس بالضيق فى نفوس أولئك الذين لا يعرفون من الغريزة الا ما هو مألوف والذين يدركون فى الحال أننا لا نحب سوى أطيافنا وأننا نتظاهر فقط بتصويرهم على أنهم مخلوقات

أنسى وأفضل ، وبالكتابة عنهم بطريقة تبعد بهم كل البعد عن الحقيقة وعن كل ما يرغبون فيه أو يأملوا أن يكونوه •

انك تعرف الآن كيف عشت عذريا عفيفا — لكن فى حالة غزل دائم — حتى بلغت التاسعة والعشرين ، وعندها هربت من أول فرصة سنحت لى ، ذلك لأننى كنت أريد أن أحب دون أن يمتلكنى أحد ودون أن أفقد حريتى الارانوسية الكاملة • لكن حياتى لم تخل أبد من امرأة خلال الأربعة عشر عاما التى سبقت زواجى وأنا فى الثالثة والأربعين • ولقد تمرست بكل التجارب وتعلمت منها كل ما يمكن تعلمه • لم أكن أدفع للنساء فلم يكن لدى فائض من النقود ، ولم أكن أكسب من المال سوى ما يكفى لسد الرمق ودفع ايجار حجرة بالطابق الثانى • أما بقية ما أكسبه فلم يكن نقودا ، بل كان حرية : الحرية فى أن أنادى بالاشتراكية • ولقد صادفت الكثير من العاهرات ، لكنى لم أجد فى نفسى أى ميل اليهن • لقد تعودت — بعد أن استطعت أن أرتدى ما يناسبنى من ثياب — أن تفتتن النساء بى • لم أطارد النســـاء : كن يطاردننى •

هنا أقول لك ثانية لا تتسرع فى الوصول الى استنتاجات فكل من طاردننى لم يكن الجنس هدفهن • وبعضهن كن سعيدات فى زواجهن وكن يدركن أن الجنس مستبعد فيما بيننا • كن يردن رفاقا — كثرة من الرفاق • وبعضهن كن مستعدات لشراء الصداقة باللذة بعد أن علمتهن التجارب أن الرجال يفضـــلن

المرأة هكذا • وبعضهن كن فاتنات وغـير محتمـلات مطلقـا كزوجات • لم تكن هناك حالتان متشابهتان • وكما يرى لنجفيلو فان قول وليم موريس : « كلهن سواء فى المذاق » لا يعبـر عن الحقيقة •

لم أنخدع يوما بالجنس كأساس لروابط وثيقة أو علاقات دائمة • ولم أحلم بالزواج وسيلة اليه • كنت أفضل كل شىء عليه ، ولم أرفض مطلقا ، أو أرجىء ارتباطا للحديث عن الاشتراكية كى أتمتع بأمسية غرامية • ان أهمية التجربة الجنسية تكمن فى مقدرتها على انتاج فيضان من العاطفة السامية والامتا عالذى يمدنى — مهما كان مؤقتا — بنشوة قد تصبح يوما ما حالة طبيعية من حالا تالنشاط الفكرى •

لم أستطع أن أكسب ما يعيننى على الزواج دون أن أبدو وكأننى أتزوج من أجل المـال الا بعد ن تخطيت الأربعين • كما أن زوجتى — وهى فى نفس السن — كانت بعيدة كل البعد عن التفكير فى أنها قد دفعتالىالزواج بسبب الحرمان من الجنس• وكزوج وزوجة قامت بيننا علاقة لا مجال فيها للجنس • ولقد وضع الزواج حدا لمـا ألفه كل منا من مغازلات وملاطفات ومطاردات ، وحتى تلك لم يتبق منها سوى ذكريات ما لم يكتمل•

لا تنس أن كل الزيجات مختلفات • وأن الزواج بين

الشباب وما يتبعه من انجاب يجب ألا يقاس بالمشاركة بين أناس متوسطى الأعمار وبلا أطفال ذلك لأنهم تخطوا المرحلة التى يمكن فيها للعروس أن تضع طفلها الأول دون أن تعرض حياتها للخطر •

وهكذا • الآن : لا قصص رومانسى •

وفوق كل شىء : لا صور داعرة •

(١٧)

هذا ما كان على فرانك أن يفعله

كان المرحوم فرانك هاريس شخصية مرموقة فى القسم الأدبى بمجلة « لندن » فى الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر • وكرئيس تحرير لمجلة « فورتنيتلى ريفيو » وما تلاها من مجلات وعلى الأخص « ستر داى رفيو » ، كان يحيط نفسه بكوكبه من اللامعين اختارهم بشجاعة وحكمة نادرة • وكنت بين من اختارهم من كتاب •

وتتضمن أعماله مجموعة من القصص القصيرة من النوع الذى روجت له كتابات دى موباسان ، وتاريخ لحياة أوسكار وايلد ، وكتاب عن شكسبير ، (وفيما بعد) تأريخ صريح لحياته هو نفسه ، وسلسلة حادة لاذعة نشرت تحت عنوان « صور معاصرة » •

وفى احدى هذه الصور ، ويفهم منها أنها صورة لى ، لم يكن حادا ولا لاذعا ، ذلك لأنه عندما أقدم على الكتابة عنى تملكته الحيرة والعجز لاحساسه بأنه مدين لى بسبب اخلاصى لصلتنا القديمة فى فترة فقد فيها نجاحه وشعبيته ، وانتهت به أخيرا الى أن يقضى بقية حياته فى المنفى • وكانت النتيجة ثناء مخلصا يمتلىء بالتقدير والاعتراف بالجميل ، مما جعلنى أضحك • وعلى ذلك

فقد أمسكت بقلمى وأرسلت اليه بالسطور التالية كمثل لما كان يجب عليه أن يفعله فى تصويره لى .

ولقد نشرها هاريس فى مجلده الأخير من « صور معاصرة » لكنى أعتقد أنه لم يقرأها على وجه الاطلاق . انه لم يعرف شيئا عن مجرى حياتى فى الفترة التى تلت أيام عملنا سويا فى «سترداى رفيو » . وقبل موته طلب منه ناشر أمريكى أن يكتب سيرة حياتى ، ودفعته متطلبات الحياة الى محاولة يائسة للقيام بهذا العمل ، لكن جانبه الصواب فى الكثير من ظنونه وتلفيقاته . ولقد وجدت أنه من الضرورى — بعد موته — أن أعيد كتابة الكتاب على أساس من الحقيقة حتى يصبح نشره ممكنا . وهكذا قدمت بكل جدية ما أقدمه فى السطور التالية بطريقة مازحة .

لقد أنتهزت هذه الفرصة لأضيف بعض الجمل التى لم يكن من الممكن أن يكتبها الاشبح هاريس فقط ، ذلك لأنها تذكر ملابسات حدثت بعد وفاته .

ولقد مكنتنى الكتابة عن نفسى بطريقة موضوعية (الطريقة التى ألفتها) من أن أقو لأشياء لم يكن من الممكن أن أقولها بلباقة من وجهة النظر الذاتية ، لكنها ترغمنى على أن أضيف أنه لا مجال للزلل أو المخادعة :

قبل أن أحاول ضم برنارد شو الى مجموعتى « صور معاصرة » ، أجد أنه لزاما على أن اعترف مقدما بفضائله الرائعة وأعلن فى الحال دون أى مماحكة أن شو رجل بلغ من الكمال أعلى

درجاته • وأعترف أنه فى كل خلاف معى أو مع أى انسان آخر ، كان دائما على حق وسيظل دائما على حق • أننى أدرك أن العادة الشائعة فى تناوله بالسباب لا تدل — ان دلت على شىء — الا على جهل وغباء أصحابها • كما أن الادعاء بعدم جدوى التعامل معه بطريقة جدية ، ما هو الا تغطية سخيفة تخفى وراءها تقهقرا فوريا واحجاما عن ملاقاته وجها لوجه • ولو كان باستطاعتى أن أقدم أى اعتراف آخر أو أى بينة أخرى لقدمتها مع اعتذارى عن عدم نشرها من قبل • ولن أتردد لحظة فى أن أقول أن شو هو أعظم من عاش من الرجال ، لو ساعد هذا على بسط الأمور • ان كل الاتهامات التى تثار ضده تنهار اذا ما تعمقنا فى بحثها • ان كل نبوءاته تتحقق ، وكل شخصيـــاته الخيالية تبعث فيها الحياة خلال جيل واحد • يعترينى احساس — حتى وأنا أكتب الآن — بأننى لا أقدره وأننى ذمام غير مخلص وناكر للجميل • وكل ما أستطيع قوله هو أن أكرر أنه اذا ما فاتنى شىء ، فانه من الواجب أن يلفت نظرى وسأعالج السهو فى الحال • واذا لم يكن باستطاعتى أن أقول ان شو يزين كل ما يلمسه ، فان باستطاعتى على الأقل أن أشهد أنه يفضل أى رجل آخر فى تناوله لأى شىء •

سأحكى بعض الطرائف عن شو • قال عنه أوسكار وايلد :

« لا يعاديه فى الدنيا أحد ، ولا يحبه من أصدقائه أحد » •

وذات مرة أثناء حفلة عشاء أقامتها جمعية المسرح كان على

شو أن يحيى النقاد المسرحيين • وكان على ماكس بيربوم أن يرد التحية • وقبل بداية الحديث ذهب ماكس الى شو وقال : « ألن تقول انك أنت نفسك ناقد ؟ » وقال شو : « اننى لا أعرف ما سأقول لكن من الممكن أن أقول ذلك فى عرض الحديث » • وقال ماكس : « عدنى بأنك سوف تفعل ذلك » • وأجاب شو : « سأفعل ما يرضيك » ، وقال ذلك بالفعل • وبعدها بدأ ماكس حديثه هكذا : « التحقت مرة بمدرسة تعود المدرس فيها أن يقول : تذكروا يا أولاد اننى واحد منكم » • وانفجر الحاضرون فى عاصفة من الضحك وفرت على ماكس مهمة التوضيح •

قال روبرت ليند عن **مفهوم الحرب** لبرنارد شو ، انه بالرغم من عدم استطاعة أى شخص أن يقدم اعتراضا معقولا عليه الا أن الكتابة عن الحرب منذ اللحظة التى ظهر فيها تصور الحرب على أنها حرب بين الحلفاء من جانب وبين ألمانيا والنمسا وتركيا وبرنارد شو من جانب آخر •

وعندما خاض شو كتقدمى معركة الحصول على مقعد فى انتخابات مجلس مقاطعة لندن ، بعد ست سنوات من العمل التقدمى المضنى فى المجلس المحلى — وقد كان له فضل السبق فى المناداة بالتقدمية الذاتية — تخلى الجميع عنه باستثناء القلة القليلة من الأحرار ودعاة الاعتدال فى معاقرة الخمر • لكنه هزم أيضا لأن أكبر الصحف التقدمية دعت علانية لهزيمته كأفضل وسيلة للتخلص منه • ولم يرشحه بالاضافة لمن سبق ذكرهم

سوى أولئك الذين لم يخوضوا مطلقا تجربة الادلاء بأصواتهم من قبل • ولقد ثبت ذلك من الزيادة التى طرأت على جدول الانتخابات التالية التى فاز فيهـا الممثل المحبوب جـورج الاسكندر •

هذه هى الأشياء التى تحدث له فى لحظات حياته العادية عندما لا يعارض ولا يصطرع مع تيار الرأى العام • وكما يحدث دائما عندما تسنح الفرصة للنيل منه ــ عندما يعلن عن بعض الحقائق البغيضة ــ فان العديد من الأشخاص الذين لم يكونوا يجرؤن على مجاهرته بالعداء يعتقدون أن الفرصة قد سنحت لهم أخيرا كى يصبوا عليه جام غضب عنيف مرير • وتكون النتيجة أن كل من لم يقابل شو يعتقد أنه رجل سيء المظهر جاف السلوك ، كريه الشخصية • أن شو يدرك ذلك ويقول : « دائما ما أثير دهشة الغرباء بلطفى ورقتى ، ذلك لأنهـم يتوقعـون أن يرونني على درجة من السوء لم يبلغها بشر • وما على فى هذه الحالة الا أن أكون مهذبا بطريقة عـادية كى أبدو لهم على قـدر كبير من الجاذبية » •

ان أى تصوير معاصر صادق لا يمكن أن يتجاهل هـذه القوة فى اثارة العداء الشرس أو أن يقول بعدم وجود أسباب واضحة لها • لقد قيل ان شو يضايق الناس لأنه يقف دائما على رأسه ويدعى أن الاسود أبيض وان الابيض أسود • لكن البلهاء فقط هم الذين يقولون بهذا الرأى أو يوافقون عليه • وشهرة كشهرة

شو لا يمكن أن يكسبها الرجال بمجرد السخرية وآثارة العدوات • ان ما يجير حقا هو أن شو يضايقنا بحدة عندما يقف على قدميه ويقول لنا ان الاسود أسود وان الابيض أبيض • وبذلك يضع علينا لذة جنوحنا الى الاعتراض •

ومما يثير الجنون أن تجد نفسك مرغما على الأخذ برأى رجل يرفضه وجودك كله ، لا لأنه يتفوق عليك فى التعبير عن وجهة نظرك ، ولكن لأنك لا تستطيع تحمل أن يقاسمك أعمق معتقداتك رجل ترى أنه بشع فاسد الطبع • وتبدو هذه الحالة كما لو عرض عليك أحدهم أن يصحبك بعض الطريق لأنك تسير تجاه بيته ، وأنت تعرف أن ذلك البيت هو الهاوية •

وفى الحقيقة لا يوجد فى برنامج شو السياسى أو الاجتماعى ولا حتى فى اصراره على المساواة الأساسية فى الدخل وعدم خلطه بأى ميزة أو فضيلة شخصية ، ما يثير ثائرة أى مفكر على قدر معقول من الثقافة الحديثة • وهو رجل جدير بالثقة فيما يختص بأى عمل من أعمال اللجان : رجل لبق وحذر ، رأس الجمعية الفابية لمدة سبع وعشرين عاما وابتعد بها عن المشـــاحنات التى تسببت فى القضاء على المنظمات الاشـــتراكية الأخرى •

ومع ذلك فالبشاعة موجودة ، اذ أن شو يعمل فى السياسة بروح رجل يساعد كلبا أعرج فى القفز فوق جدار وهو يؤمن بأن هذا الجدار لا يمكن تخطيه • ولقد أعلن عندما تخطى هو نفسه الأربعين من عمره أن « كل من تجاوز الأربعين يعتبر وغدا »

وهو لا يخفى اعتقاده بأننا قد لا نتمكن من حل مشكلات الحضارة الحديثة المتشبعة ، ذلك لأنها تفوق كل مقدارتنا السياسية • كما أنه لا يقيم وزنا كبيرا لمجرد التجربة ، اذ يرى أن ما يحـــدد السلوك هو توقع ما ستأتى به الحياة • ويذكرنا المرة تلو المرة أن عملية التطور الخلاق ما زالت مستمرة وقد تأتى لحظة يباد فيها الانسان كمخلوق غريزى منحط ، ليحل محله نوع جديـــد من الخلق الأكثر سموا ورفعة ، تماما كما خلق الانسان نفسه ليكمل نقص الحيوانات الأكثر انحطاطا •

ومن المستحيل أن نستاء من هذا ، لأن شو يعامل نفسه بنفس القسوة التى يعاملنا بها • انه لا يقذف بنا فى عرض البحر ليبقى هو فى كبرياء فوق ظهر السفينة • انه يتعلق بنافى حب وبكل طيب خاطر ويلقى بنفسه معنا • وحتى فى هذه الحالة لا يلقى بنفسه وبنا فى أطلسى مهيب حيث نلقى حتفنا بطريقة مأساوية ، ولكنه يقفز معنا فى بحر من السخرية وسط موجات من الضحك الهازىء • وهو يقوم بهذه الخدعة الغير محتملة على غير انتظار وفى لحظات يصعب توقعها !! وفى هـــذا المجـــال يقول هنرى نورمان : « لا يوجد من هو أفضل من شو فى معالجته للزلل الأخلاقى » • وهكذا تصبح مناجدة شو أكثر اثارة للفزع من أى هجوم يقوم به آخرون مهما بلغت درجة الايذاء والحقد فى ذلك الهجوم • لقد اعتزم شو ـــ أثناء أول نجاح لاقته أعمال ابسن فى لندن ـــ أن يساعد ممثلة أمريكية مشتركة فى العرض وذلك

باجراء حديث صحفى معها ، ومما أثار دهشته أن السيدة أخبرته بكل جدية وأنفعال أنها ستطلق عليه الرصاص لو كتب عنها كلمة واحدة • قالت له : « قد تعتقد أن مثل هذه الأشياء غير ممكنة فى انجلترا ، لكننا فى أمريكا نفكر بطريقة أخرى • وسأفعل ذلك : اننى أملك مسدسا جاهزا للاستعمال » • وفى ثبات علق شو على كلماتها قائلا « مسدس الجنرال جبلر » • لكنه أدرك مدى نفور السيدة وعدم رغبتها فى أن يكتب عنها شيئا • ولم يكتب التحقيق الصحفى • ويعترف بعض أصدقائه المقربين أنهم قبل أن يتعودوا أسلوبه ، كانت مجرد خطاباته الودودة ، تدفعهم أحيانا الى سبه سبا مقذعا • ويحكى شو ما حدث له يوما مع أحد العلماء بفراسة الدماغ وقد قابله فى بداية حياته فى أحد مطاعم النباتيين وأخذ يتحدث معه • اتهم الرجل شو فى الحال بأنه ملحد • وسأله شو : « لماذا ؟ ألا يوجد نتوء يدل على التبجيل والاحترام ؟ » وصاح العالم : « نتوء!انه ثقب لا نتوء» •واذاكان فى سلوك شو ما يثير الاستياء فان باستطاعة الانسان على الاقل أن يلكمه فى رأسه • لكن اشفاقه على قصورك وقصوره هو نفسه يتميز بالعطف وبمراعاة غير عادية لما أنت أهل له من احترام كامل ، مما يجعلك تشعر تجاهه بالعجز : لا يوجد أى مبرر للشكوى ، أو أى اتهام ، أو أى عذر لاختطاف سكين وغرسه فى أمعائه •

كنت أنا ــ فرانك هاريس ــ رئيسا لتحرير « فورتنيتلى

رفيو » عندما قابلت شو لاول مرة بشأن مقالة • وبدا أن اهتمامه بى يفوق بكثير اهتمامه بالمقالة • ولكى لا أتظاهر بتواضع زائف • أقول اننى كنت بالتأكيد أكثر استثارة للانتباه من المقالة ذاتها • ولم أكن بالطبع على استعداد للشجار مع شو لأنه أظهر لى ذلك • اذ يملك المقدرة على اجتذابك بسرعة وسهولة وبطريقة مرضية • ولقد وجدت نفسى بعد خمس دقائق من لقائى به أشرح كيف توعكت صحتى عندما اندفعت بسرعة هائلة فى قارب فوق مياه النهر مما أصابنى بالاعياء • ولقد استمع الى بنفس التعاطف الذى يصغى به الى طبيبى الخاص وأنا أقص عليه هذا الحدث السيء ، ثم وجه الى بعض الأسئلة عن مدى رعايتى لنفس • وكان أحد أسئلته : « هل تشرب الخمر ؟ » وكنت فى مستوى الموقف • لم تهتز منى شعرة واحدة وأنا أؤكد له أنه من الصعب الشفاء من هذا المرض • وأدركت فجأة أننى أتوقع دائما أن يدعى الآخرون أنهم لا يعرفون شيئا عن ادمانى للخمر • وأننى أواجه رجلا لا يقول بمثل ما يقولون • كان سؤاله شديد الشبة بتلك الأسئلة الموجودة فى كتاب بتلراروين وهى أسئلة لا يستصيغها الضعف الانسانى • فى مسرحية شو مداولة كابتن براسبوند ، يقدم الكابتن ضابطه الاول بهذه الكلمات (أو ما يقاربها) : «هذا هو أعظم وغد وأعظم لص وأعظم أفاق على الشاطىء الغربى » ويرد الضابط على ذلك بقوله : « اسمع يا كابتن : اذا أردت أن تظهر تواضعك فليكن ذلك على حسابك أنت ، لا على حسابى أنا » •

ان شو يظهر تواضعه على حساب ذاته ويفضح نفسه بطريقة لا تسمح له أخلاقه الطيبة أن يفضح بها أصدقاءه • وهذه الحقيقة تثير فى نفوس ضحايا سلوك شو احساسا بعدم الرضا ، انها تسلبهم لذة الانتقام وترغمهم على أن يقابلوا سلوكه الطيب بالمثل وهم يتميزون ضيقا وغضبا •

ومن الصعب أن نضع فى مصاف المغرورين رجلا يفضح نفسه بزلاقة لسانه الى حد أن يصبح مثارا للسخرية • لكن كل أصدقاء شو يتفقون على أنه مغرور بطريقة مضحكة • لكنه حتى فى هذه النقطة يجعلنا نرتبك ونتردد فى اصدار حكم عليه ، عندما يشاركنا بالاطناب فى الحديث عن عظمته الفكرية ، وهو يعلن أنه يسلك هذا السلوك لأن الناس يحبون منه ذلك • وهو على حق تماما عندما يقول انهم يحبون « سيرانو » ويكرهون السعال المتواضع للشعراء الأقل شهرة • ان أولئك الذين يمتدحون كتب شو يذهلهم حماسه وهو يشاركهم فى تمجيد ذاته • ولذلك فهم فى حاجة الى يقظة كاملة حتى لا تثيرهم كلماته وترغمهم على التراجع وسحب أغلب ما قالوه • ويصعب علينا نتيجة لهذا التصرف أن نقول بما وراءه من تواضع حقيقى • ان شو نفسه ينكر أنه مغرور : « لا يمكن لأى انسان أن يكون مغرورا لو أنه قضى حياته مثلما قضيت حياتى فى محاولة لم تنجح أبدا للعزف على البيانو • » وعندما طلبت منه أن يعدد لى فضائله ومزاياه

ومآثره كى أوفيه حقه بعدم نسيان أى منها • أجابنى : « هذا غير ضرورى • انها جميعا فى واجهة المعرض » •

ولا يلعب شو دور الانسان المتواضع الا فيما يتعلق بالفنون التى تعتبر منافسا خطيرا للأدب • انه لم يدع أبدا أنه أفضل من شكسبير ، رغم ادعائه أنه خليفته • ويجب مراعاة ان هناك علامة استفهام بعد هذه العبارة التى عنون بها احدى مقدماته • ويجيب هو نفسه على السؤال بالنفى عندما يقـــول : ان شكسبير فى الدراما مثل موزار فى الاوبرا ومايكل أنجلوا فى التصوير لقد وصل الى قمة فنه • ولا يستطيع أحد أن يتفوق على شكسبير بالرغم من وجود وجهات نظر فى الشخصية والحياة لم تكن لتخطر له على بال •

وبالرغم من ذلك فانا مقتنع تماما أن شو لا يمانع فى أن تقارن مسرحياته بمسرحيات شكسبير ، كما قبل تيرنر أن تعلق صورة بجانب صور كلود • ورغم ذلك فعندما دعى لاحدى حفلات العشاء التى أقيمت فى باريس تكريما لرودين كتب يقول انه قد تشرف بالجلوس أمام المثال رودين وأنه بذلك قد ضمن لنفسه مكانا فى القواميس المعنية بالسير ولمدة ألف سنة قادمة على أنه « شو ، برنارد : موضوعا لتمثال نصفى من صنع رودين : ولولا ذلك لابتلعه النسيان » • ولقد عزف على نفس النغمة وهو يهدى رودين نسخة من أعمال تشوسر عندما وجد أن رودين ، رغم أنه فنان فذ فى مجال النحت ، لا يملك

فى مكتبته سوى مجموعة عادية من المجلدات الرخيصة التى تعد تجاريا للاهداء • وفى نسخة تشوسر ، كتب شو هذه الكلمات : « لقد رأيت أستاذين يعملان : موريس الذى أخرج هذا الكتاب ، والآخر هو رودين العظيم الذى صور رأسى بالصلصال • اننى أعطى الكتاب لرودين واضعا اسمى فى أحد أركان المحراب الذى ستباركه أعمالهما عندما تتحول أعمالى الى تراب » •

ويتبع نفس الأسلوب فيما كتبه على قاعدة التمثال الذى صنعته له ليدى كينيث وهو موجود الآن فى متحف بلدية بورتموث : لا تبك على جورج برنارد العجوز : لقد مات • وكل أصدقائه يصيحون : « حد ثطيب الى أقصى حد ! » رغم أنهم يرفعون رأس جورج المبجلة عاليا لتطاول أعلى الرؤوس • وفى مثابرة انكبت كاثلين طويلا على عمل صورة منها • وعندها قال الرب « ما هكذا يخلق العمل العظيم • كفى عن المحاكاة ولتكن روحك هى الدليل • انحتى له تمثالا يقربه من الخلود كى يشاركك خلودك عندما تندثر أعماله كلها فى جب النسيان » •

وبعدها طلبت منه جريدة « ايفنج نيوز » أن يكتب الكلمات التى ستنقش على ضريحه ، فما كان منه استجابة لهذا الطلب الا أن رسم شاهد قبر غطاه العشب وكتب عليه السطور التالية :

هنا يرقد

برنارد شو

والآن أعترف بأننى لست مقتنعا بكل هذه الأدلة التى تظهر تواضع شو ، كما أننى لست متأكدا من أنها ليست آخر لمسات شو الفنية اظهارا لعظمته ، اذ ما أصل التمثال الذى قام بصنعه رودين ؟ لم يكن رودين يعرف شيئا عن شو ، لقد رفض فى البداية أن يقوم بهذا العمل • ونتيجة لهذا الرفض كتبت مسز شو الى رودين معبرة عن رغبتها فى أن يكون لديها تذكارا لزوجها وأضافت أن زوجها قد أعلن أن الأجيال التالية كلها ستتهم أى معاصر لرودين بالجهل لو سمح لأى شخص آخر غير رودين أن يقيم له تمثالا • ولقد تزحزح رودين عن رفضه ، عندما علم أنه يتعامل مع رجل يقدره حق قدره • وبعد ذلك تحققت مسز شو من الأجر الذى يتقاضاه رودين ثمنا للتمثال النصفى وذلك عن طريق « ريلكا » الشاعر النمساوى الذى كان يعمل حينذاك سكرتيرا لردين • وفى الحال أودعت النقود (ألف جنيه) لحساب رودين مع احاطته علما بأن هذا المبلغ لن يجبره على شىء ، فليصنع التمثال أو لا يصنعه ، وليبدأه ويتركه حسب رغبته ومشيئته • باختصار عليه أن يعتبر المبلغ مجرد اسهام ، يعبر عن التقدير لعمله ككل ويظل سيد الموقف تماما • وكانت النتيجة بالطبع أن أرسل رودين الى شو يطلب منه الحضور الى باريس فى الحال • واعتبره وزوجته زوارا دائمين بفيللته فى

ميودن ، ثم أخذ يعمل يوميا وبانتظام لمدة شهر حتى انتهى من صنع التمثال • ولقد أعطى شو قوالب للتمثال زيادة على ما هو متفق عليـــه •

وهنا نرى شو دبلوماسيا لبقا فى مسايرته للآخرين ، وناقدا فنيا نافذ البصيرة • أنا لا أحاول الايحاء أبدا بأن أحاسيسه كانت غير صادقة • ولو كان الأمر كذلك لامتنع رودين عن الاقدام على عمل أى شىء • ولكن ألا يتسم هذا العمل بشىء من الغرور ؟ هل من عادة شخص شديد الانشغال كشو أن يترك عمله ويذهب الى باريس كى يجلس كأى موديل محترف ولمدة شهر كامل ، الا اذا كان يعتقد أن تمثاله يبلغ نفس أهمية تماثيل أفلاطون التى تعتبر الآن ثروة بالنسبة للمتاحف التى تقتنيها ؟

ان شو ممثل عات دائم التمثيل ، وهو يستخدم مهارته تلك عن عمد فى حياته الاجتماعية كما يستخدمها فى عمله عند اخراج مسرحياته وهو لا ينكر هذا ، بل يقول : « ان ج • ب • شو • ليس شخصا حقيقيا • انه أسطورة خلقتها بنفسى : وضع ومكانة اجتماعية • أما شو الحقيقى فلا يشبهه أبدا » •

وهذا ما يقوله الآن كل معارفه عن التمثال الذى صنعه رودين • يقولون انه لا يشبهه أبدا • لكن شو يؤكد أن تمثال رودين هو التمثال الوحيد الذى يصوره على حقيقته • وعندما بدأ رودين عمله فى الاستوديو عبرت له مسز شو عن شكواها من أن كل الفنانين ورسامى الكاريكاتير وحتى المصورين دائما

ما يهدفون الى ابراز شو كما تخيلوه فى صورة شيطانية ، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء النظر اليه • وأجابها رودين : « اننى لا أعرف شيئا عن شهرة مستر شو ، لكنى سأعطيك ما أراه أمامى » • ويؤكد شو أن رودين وفى بوعده • ولقد أعلن بول تربتسكوى عندما رأى التمثال أن العينين تفتقدان الحياة ، وبعد ثلاث ساعات من العمل المتواصل فى حماس كاد يصل الى حد الجنون ، انتهى من صنع أول تمثال نصفى يقيمه لشو (موجود حاليا فى أمريكا) • وهو عمل رائع لو أخذ على أنه اظهار للبراعة والقدرة لكنه رغم الأرستقراطية التى تميزه لا يخلو من لمحة شيطانية • ولقد أحب شو تربتسكوى وأعجب بالتمثال ، لكن زوجته رفضته كما رفضت الصورة الغريبة التى رسمها نفيل ليتون والتى جاءت طبقا للفكرة التى اقترحها جرانفيل باركر عندما قال ان صورة البابا (الطاهر) التى رسمها فيلاسكوى ما هى الا تصوير رائع لشو• وبناء على ذلك قام ليتون بتصوير شو فى ثياب ووضع البابا • وبالرغم من أن الصورة تظهر ما قد يصبح عليه شو لو اعتلى كرسى البابوية ، الا أنه من المستحيل على أى باحث آثار أن يتحقق من أن البابا برنارد هو نفس الشخص الذى كان موضوعا لتمثال رودين •

وحتى صور شو الثلاث التى رسمها أجستس جون لا يوجد بينها وبين تمثال رودين أى وجه من أوجه الشبه • لقد أظهر

جون ثقة شو وقوته الخطابية بكل مافيهما من عمق ، لكنه فى الواقع عبر عنهما بأسلوب يفوق الواقع • ويقول شو وهو يرى الصورة لأصدقائه : « هذا هو أنا دون أى تحوير » • وفى الصورة التى رسمها دى سميث يبدو شو هادئا رقيقا متقدما فى السن ويحب شو ما فيها من شبه بأبيه • أما التمثال الذى أقامته ليدى سكوت فيتميز بالود والبساطة ، والتمثال النصفى الذى أقامته ليدى كنيت (نفس السيدة) ، موضوع بجانب تمثال شكسبير فى كنيسة سترانفورد • ويبلغ التمثال الذى صنعه سيجموند ستروبل نفس مرتبة التمثالين اللذين صنعهما رودين وتربتسكوى ، ولقد صنع تربتسكوى أخيرا تمثالا كاملا بالحجم الطبيعى لشو وهو فوق منصة الخطابة • وهذا التمثال البرونزى اللطيف موجود حاليا فى معرض أيرلندا القومى الذى يضم أيضا صورة شو التى رسمها جون تولير وهى صورة عادية ، لكنها ممتلئة بالحياة لدرجة أن مسز شو اعتقدت وهى تنظر اليها أنها تنظر الى شو نفسه • وكان من الصعب ارضاء مسز شو فيما يختص بصور زوجها • قالت لجورج برنارد شو عن الصورة التى رسمتها لورا نايت : « لقد أعطتك لورا كل ما تملكه من اخلاص وصدق ، لكنك دائم التمثيل» •وعندما رأت صورة للتمثال الشهير (آخر ما أقيم لشو) الذى صنعه ابستين ، قالت : « اذا دخل ذلك الشىء هذا البيت فاننى أغادره » • ولم يدخل التمثال البيت أبدا • ولقد أعجب شو بمهارة صنعته ، لكنه اعترف

به فقط ، كتصوير لأحد أجداده القدامى • أما عن التمثال الذى صنعه دافيدسن فهو رشيق ، لكنه أنجز بعجلة فى صورة اجمالية •

لا عجب اذن أن يشتكى هـ • ج • ويلز من أنه لا يستطيع أن يتحرك خطوة واحدة دون أن يواجهه تمثالا لشو • ربما كان شو متواضعا • لكنه جلس أمام أعظم أساتذة عصره كى يصنعوا له ما يذكر الناس به فهل من الممكن تبرير مثل هذا التواضع قبل مرور ما لا يقل عن خمسمائة عام على وفاته ؟

ان شو هو أعظم المتحذلقين الأحياء • والشخصية التى ابتدعها ديكنز وجعلها تأكل الكعك فى حذلقة بالغة ، لا تساوى شيئا فى هذا المجال اذا ما قورنت بشخصية شو • ويقول المراسلون فى وصف شو انه يرتدى فلانيله بالرغم من أنه لم يرتد طوال حياته قميصا من الفلانيله ، بل انه لا يرتدى قميصا على وجه الاطلاق ، اذ يرى أنه من الخطأ أن يقمط الانسان وسطه بضعف ما هو فى حاجة اليه من ملابس • وعلى ذلك فهو يلبس رداء داخليا — غير معروف لصانعى القمصان — يحتوى جسده كله • ولقد بدأت قصة القميص الفلانيله فى وقت كان من المستحيل فيه اجتماعيا على أى فرد من المشتغلين بالثقافة أو العلم أن يظهر فى مجتمعات لندن العامة دون أن يرتدى ياقة منشاة • وأصر شو على أنه من الصعب أن يتحمل أى انسان مثقف رؤية النشا المكوى فوق جسد أوربى ، فهذه الياقة المنشأة لا تناسب الا افريقيا لامعا شديد السواد • ولقد اشترى بناء على ذلك

ياقات رمادية وارتداها • وبما أن قواعد الزى قد تغيرت فانه يرتدى الآن ياقات متعددة الألوان ، لكنه دائما ما يختار درجتين مختلفتين من لون واحد حتى يكون لتناسق ثيابه أفضل تأثير • ان سترته تبلغ أقصى درجات الأناقة فى تفصيلها ــ لكنها غير مبطنة ــ طبقا لمـــا هو متبع فى وستاند • ولقد كان فيما مضى يكتب عناوين خطاباته فى الركن الأيسر من الظروف • وقد تقول ان هذا مجرد تظاهر بالتفرد • ليس الأمر كذلك على وجه الاطلاق انه على استعداد لأن يحدثك لمدة ساعة كاملة عن جمال نظام هوامش الصفحة الذى أرسى قواعده كتاب العصور الوسطى والذى تبناه وليم موريس ، وكيف أن هذا النظام يترك فراغا مناسبا لابهام رجل البريد • ولقد عاد شو الى النظام الطبيعى فى الكتابة عندما اشتكى ساعى البريد من أن الختم يمحو العنوان •

وهو يبرر رفضه اســـتخدام الفواصـــل العليا وعلامات الاضافة أو الحذف أو الاختصار فى طبع كتبه ، بأنها تفسد مظهر الصفحة معلنا أن الكتاب المقدس ما كان ليصل أبدا الى المرتبة السامية التى وصل اليها فى عالم الأدب لو أنه قد شـــوه بمثل تلك العلامات البشعة • وهو يهتم بالصوتيات وطرق الاختزال ، بل ان شهرته كخطيب فى أكبر القاعـــات ترجع الى أســـلوبه المتحذلق فى نطق كل كلمة بوضوح مثير • وينادى شو بالوصل مـــا بين النظام العشرى والاثنـــا عشرى وذلك بوضع عددين آحديين جديدين فى طريقتنا للعـــد • وهو يحب الآلات كمـــا

يحب الطفل دميته • ولقد أوشك يوما أن يشترى آلة لعد النقود دون أن يكون فى أدنى الحاجة اليها • ولقد افتتن ، وهو يقترب من الستين من عمره ، بدراجة بخارية ودفعه هذا الافتتان الى شراء واحدة ، قادها من المصنع لمسافة سبع وسبعين ميلا ، لكنه أخذ ملفا سريعا ، بالقرب من باب بيته ، كان من نتيجته أن انبطح أرضا • ولقد اتهم بأنه ينتمى الى مجموعة من المخبولين الذين يواظبون على الاستحمام فى البحيرة الثعبانية على مدار العام سواء كان الجو مطيرا أو مشرقا • لكن هذا مجرد افتراء يرجع فى أساسه الى عادة شو فى أن يسبح كل صباح قبل الافطار — صيفا كان الوقت أم شتاء — فى حمام سباحة نادى السيارات الملكى • والسبب الذى يدعيه هو أنه كأى أيرلندى يكره الاستحمام ، لكنه لا يستطيع أن يبدأ يومه دون أن ينعش حواسه بغطسة فى الماء البارد • وشو كما يعرف العالم أجمع ، نباتى يقدر الصحة حق قدرها • لكنه يعلن أن أولئك الذين يقومون بجلائل الأعمال انما يفعلون ذلك على حساب صحتهم التى يرهقونها الى أقصى حد ، ولذا فهم يعيشون دائما على حافة الانهيار • ويرى أنه على كل من يقوم بعمل مخلص جاد أن يلزم الفراش لمدة ثمانية عشر شهرا كل أربعين عاما كى يسترد قواه • وباستطاعتى أن أملأصفحة أخرى بأهواء ونقاليع شو ، لكن كفى •

أما عن غزوات شو النسائية فلا وجود لها على وجه

التقريب • ويقول شو ، وفى قوله شىء من الحقيقة ، ان أى انسان يقوم بعمل حقيقى فى هذه الدنيا لا يملك الوقت ولا المال لمطاردة طويلة وباهظة التكاليف كمطاردة النساء • وكان من الممكن أن يكون من أول المحتجين على مغالاة الجميلات من النساء وكثرة مطالبهن ، وهو الموضوع الرئيسى الذى يتناوله هارلى جرانفيل باركر فى **الخراب وبيت مدراس** • وتاريخ شو فى هذا المجال غير معروف • حيث أنه فيما يختص بعلاقته بالنساء كتوم لا يبوح • وتدل كل الشواهد على أنه زوج نموذجى ولم تثر حوله أى فضيحة أخلاقية طوال تحركاته السياسية المتعددة والتى استغرقت كل أيام شبابه • ومع ذلك فهناك نادرة شائعة تصف ممثلا ومديرا مشهورا لأحد المسارح وهو يقول أثناء البروفة لممثلة بارعة الجمال : « لندع شو الى وجبه من لحم البقر حتى يجرى فى عروقه شىء من الدم الأحمر » • وتصيح الممثلة : « أستحلفك بالله ألا تفعل • انه بحالته الراهنة سىء بما فيه الكفاية • ولن تأمن امراة فى لندن على نفسها اذا ما أعطيته لحما » •

وعلى أية حال فان تعاليم شو تشد الانتباه بطريقة أكثر مما تثيره مغامراته الشخصية لو كانت له أية مغامرات • وفى تلك التعاليم — بلا جدال — رد فعل قوى ضد ما يسميه بعشق القرن التاسع عشر • انه ليس واحدا من هؤلاء الذين يقولون فى تعصب أن الحب هو كل شىء • وذلك لأنه يدرك مقدار ما

للعفة من قوة قد يؤدى انكارها والقضاء عليها الى هدم أى كيان حضارى ، كما أنه يصر على أن الادراك عاطفة وعلى أن الفكرة الحديثة التى تقصر العاطفة على الجنس ما هى الا فكرة بدائية فجة تماثل فى بدائيتها وفجاجتها فكرة القروى الذى يرى بكل بساطه أن الفن دعارة • ويشير شو الى امكانية ازدهار الفن وتألقه فى حالة استثناء الجنس استثناء كليا كما حدث على سبيل المثال فى الأدب الفيكتورى الذى أبرز ديكنز • ويقارن ما بين جوليليو رومانو [1] وهو مصور بلا حياء فى رسمه للصور الداعرة وبين رافائيل نفسه ، ذلك الفنان الذى بلغ من الحساسية قدرا جعله ينفر من رسم العذراء المقدسة — فى دراسته لها — مجردة من ثيابها ، رغم أنه لم يقدم على رسم انسان مغطى بالثياب دون أن يبدأ برسمه أولا فى حالة عرى كامل ، كما كان يجنح الى تزيين الأعمال التى تمثل الشهوة بومضات من قصة حب كيوبيد والأميرة الفاتنة ، دون أن ينفر من صراحته الكاملة ودون أن يفقد فى نفس الوقت وقاره وطهارته •

ويؤكد شو أنه عندما انتقل الفن من رافائيل الى جوليليو لم يعد مثيرا للاشمئزاز فقط بل أصبح أيضا أربد كئيبا ، بعد أن انهار وسقط فى الهاوية •

وهو يرفض المثلث الغرامى فى المسرح الفرنسى مستشهدا

---

(١) أحد تلامذة رافائيل .

به كدليل على أن الدعارة ليست أنسب ما يقدم على المسرح • ولقد كتب **مسرحيات للتطهريين** كى يظهر استقلاله وعدم اعتماده على أمثال تلك الموضوعات • ويتساءل شو فى احتقار عما اذا كان من الممكن ارضاء الفحولة الحقة عن طريق القصة والصورة ، ثم يعلن أن المدرسة الشهوانية فى الفن هى عزاء العاجزين •

ورغم ذلك فبعض فقرات مسرحياته تدفع الى الاعتقاد بأن الحب التخيلى يلعب دورا هاما فى الحياة المتحضرة • يقول البطل الوسيم فى احدى المسرحيات لرجل يغار منه : « لا تصب على غيرتك : ان المنافس المتخيل هو المنافس الخطر » • وعندما تتزوج السيدة التى كانت ترفض الزواج لأنها لا تستطيع تحمل رائحة التبغ وعدم أناقة الرجال ، تلمح الى أن خيالها يزودها بسلسلة من المغامرات التى تجل عن الوصف • ويقول شو ان مغامرات دون جوان ، التى تعد بألف مغامرة وثلاث ، لا تزيد فى حقيقتها عن علاقتين غراميتين قذرتين أو ثلاث ، أما الألف الباقية فهى من وهم الخيال • ويقول ان أى محاولة لتحقيق مثل هذا الخيال لابد وأن تبوء بالفشل • ولربما قيل بالاضافة الى ذلك أن الفصل الثالث من مسرحية **الانسان والانسان الأسمى** ما كان ليكتبه الا انسان قام فعلا بالمحاولة ، وفى الفصل الثالث من هذه المسرحية أيضا منظر يتمرد فيه البطل على الزواج ويدفعه عن نفسه دون أى أمل فى الخلاص • وهذا المنظر فى صراحة تعبيره واثارته لابد وأن يكون نتاج تجربة شخصية • ومن الممكن

أن نتصور أن شكسبير كان يسخر من شخص آخر وهو يقوم بتقديم نفس الموضوع من خلال شخصية « بنديك » ، ولكن « تانر » بكل تطرفه وغلوائه يعكس شخصية المؤلف • وقد ينكر شو هذه الحقيقة • ولو أنكر ما صدقه أحد •

أما عن حملة شو على شكسبير فقد كانت غير متوقعة الى حد كبير ، ذلك لأننى كنت واحدا من رؤساء التحرير القلائل فى لندن الذين يؤمنون بأن شكسبير يعنى الكثير • كنت متشبعا بشكسبير • ولابد أن أعلن فى صراحة وبغير تردد أنه ما كان ليرد على خاطرى مطلقا أن أكون رئيسا لتحرير جريدة تهاجم شكسبير بضراوة لم يسمع بها من قبل • ولقد بدت المغامرة شديدة فى غرابتها لسببين : أولا ، أن شو — كاتب المقالات التى تهاجم شكسبير — كان يشاركنى ايمانى • وثانيا ، انه لم يكن باستطاعة أى منا أن يغير بأمانة كلمة واحدة من كلمات المقالات رغم ما أثارته حولنا من ضجة بسبب ما ارتكبناه من انتهاك لحرمة شكسبير • كانت المقالات مثيرة غاضبة ، ولم يكن من الممكن حذف شىء منها أو تهذيبها أو تغييرها دون أن ينهار البناء النقدى للمقالة كلها •

وبوضوح كان يمكن تفسير ما سبق • لقد أطلق شو قذيفته الأولى على شكسبير عام ١٨٩٤ • وفى عام ١٨٨٩ بدأ اجتياح ابسن للمسرح الانجليزى وفى تلك الأثناء كان شو قد انتهى من كتابة **جوهر الابسنية** وأخذ يقيس كل الاعمال المسرحية وغير

المسرحية بمقاييس هذا النرويجى الفذ • ولم تصل الكثرة الى هذا المستوى • لكن شكسبير كان أبرز الضحايا وأكثرهم شهرة • ويقول شو فى هجومه على شكسبير : « من العبث أن نتحدث الآن عن عمق شكسبير • لم يعد هناك سوى موسيقاه • وحتى تصوير الشخصيات الذى اشتهرت وتميزت به أعمال موليير وشكسبير وسكوت ودوماس الأب لم يعد سوى مجرد تقليد يبعد كل البعد عن الحقيقة • لقد عفى الزمن على شاعرنا : لم يتبق له ملمح واحد يميزه • ان هاملت يبدو فى صورة عاجزة اذا ما وضع بجانب بيرجنت ، واموجين لا تزيد عن مجرد دمية بجانب نورا هيلمر ، وعطيل مجرد شخصية عادية من شخصيات الاوبرا الايطالية اذا ما قورن بجوليان•وهذا الرأى صائب تماما، اذ لم يصل شكسبير الى العمق الذى وصل اليه ابسن الا فى قصائده الغنائية فقط •

لم يكن شو متشبعا بابسن فقط ، لكنه تشبع أيضا بفاجنر وبتهوفن وجيته • ومما يثير العجب أنه تأثر أيضا بجون بنيان• ولم يكن الأسلوب الانجليزى فى اكتساب المجد الأدبى عن طريق اللمحات العبقرية الخاطفة — دون تتبع عميق لمصدر الالهام — بخاف على أى أيرلندى فى عدم اتساقه ودوامه • وهذا هو نفس اسلوب شكسبير ، ورسكين وتشيسترسن ، الذى أشار اليه وليم موريس عندما قال : ان رسكين يستطيع أن يقول أشياء غاية فى الروعة وينساها بعد خمس دقائق • ويقول شو ان

أقل ما يوصف به الأيرلنديون رغم صفاتهم الكريهة هو أنهم بلغوا مرحلة النضج • انهم يفكرون بطرية منتظمة : لا يتركون ملعب الجولف أثناء اللعب كى يستمتعوا بجلال خـاطر معين وكأنهم يستمتعون بمنظر الغروب ، ثم يعودون بعد ذلك بكل جدية الى الملعب وكأنه عمل حياتهم الرئيسى • وهكذا يحتفظ شو بكبريائه القومى كأيرلندى رغم أنه صنع كل مستقبل حياته فى انجلترا ، ورغم تفضيله للانجليز والاسكتلنديين كأصدقاء •

وسيلاحظ أن تصويرى لشو يمس الصميم بطريقة أكثر وفى نفس الوقت بطريقة أقل من تصويرى لأى كاتب آخر : أكثر ، لأن شو يفصح للعالم بأسره عن كل ما يجول بخاطره وما يعتمل فى أعماق نفسه • وأقل ، لأننى لم أشترك قط مع شو فى أى عمل من أعمال اللجان ، وتلك هى الطريقة الوحيدة لرؤيته كثيرا • ان شو بلا ريب انسان غير اجتماعى فهو لا يزور أحدا ولا يذهب الى أى مكان الا من أجل العمل • ولقد حثه موريس بارنج ذات مرة على أن يذهب الى حفل من النوع المألوف للعزاب فى بريطانيا ، حيث يقذف الرجال بعضهم بعضا بقطع الخبز ويحكون قصصا بذيئة ويحاولون عامدين ان يعربدوا ويشاغبوا كما لو كانوا طلبة لم يتخرجوا بعد • ولم يثر سلوكهم فى نفس شو الا احساسا بالاحتقار القاتل لكل ما حاولوا القيام به ، مما دفعه الى أن يقول لهم : « ستكون متعتنا أفضل وأكبر لو كففتم عن محاولة اصطناع البهجة والطرب » • وعندما واصلوا فى

عناد نهض وتركهم • وهو يشتكى من أن سلوك الرجال لا يصبح لائقا الا فى وجود النساء فقط •

ولقد قرر عند وصوله الى لندن وبعد تناوله الغداء فى نادى سافيل ألا يعمل أبدا بالأدب وألا يشارك أمثال هؤلاء الأدباء مجلسهم • ويقول شو : « ربما قضيت حياتى كلها — لو غلبنى الغباء — أراقب هؤلاء الرفاق وهم يتناقلون ما ترسب فى عقليات بعضهم البعض دون أن أعرف شيئا ذا قيمة من أمور العالم المحيط بى » • ولقد حاولت أن أمحو هذه الفكرة من رأسه وذلك عن طريق دعوته للغداء فى « المقهى الملكى » • لكن الدعوة لم تكن مجدية • لقد حضر مرات قليلة وذلك لاهتمامه الصرف بالمقهى والنذل والأثمان وطريقة اعداد الطعام ، وباختصـــار باقتصاديات المكان • لكنه قرر أننى وهارولد فريدريك قد أكلنا الكثير من شرائح اللحم وأعلن أنه من التبذير أن ندفع مـــا يطلبونه فى « المقهى الملكى » ثمنا لطبق المكرونة الذى تناوله والذى يمكن أن يتناوله فى أى مكان آخر بما لا يزيد عن عشر بنسات • ولم تكن حقيقة أننى دفعت له ثمن ما تناوله لتغير من واقع الأمر شيئا • لقد اعترض على مبدأ التبذير سواء كانت ، النقود نقودى أو نقوده •

ولقد تمنيت فى بعض الأحيان أن يسلك الآخرون نفس سلوك شو ، ولكن سلوك شو يصل فى بعض الأحيان الى حد التدخل فى الشئون الخاصة بالآخرين • ومما يجعل هذا التدخل

أكثر اثارة للغيظ أنه يتسم بالحكمة وحب الخير لدرجة يستحيل معها رفضه أو الاعتراض عليه • ولقد باءت بالفشل كل محاولات جذبه الى علاقة اجتماعية خالية من الاغراض • ولكى أرى شو بنفس السهولة التى أرى بها أيا من رجال الأدب فى لندن كان على أن أحضر جلسات لجانه التى لا تنتهى • لقد كانت العلاقة بيننا ككاتب ورئيس تحرير غير مجدية بالمرة من الناحية الاجتماعية ، فلم يكن ليحضر الى مكتبى الا اذا وقعنا فى مشكلة قانونية ، ليعلن فى أغلب الاحيان وبوضوح مثير للاعجاب أننا بلا دعامة نستند اليها • انه لمن السهل أن يقترب أى انسان من شو ، لكن المحصلة النهائية هى أن أحدا لا يعرفه على حقيقته •

ان فى شو حدة قاطعة يخشاها الجميع ، كما أنه يملك عقلا زئبقيا ماكرا وعلى درجة كبيرة من الكفاءة مما يجعله يدرك كل ما هو حتمى ويواجهه فى الحال مكيفا نفسه حسب ما تقتضيه الظروف • ورجل لا يبكى ما افتقده ولا يعطى الآخرين فرصة الهمس بما ضاع ، رجل يصعب تحمله •

ان قلة قليلة منا هى التى تدرك كيف تخفف من وقع خسائرها وذلك بحجبها وراء ستار من التعاطف والأسى والمؤاساة وكذلك بالتعلق بأوهام صغيرة لكنها رغم ذلك حلوة اذ تقوم بدور المخدر فى تهدئة المشاعر • وفى هذا المجال يرفض شو مبدأ الأخذ والعطاء • عندما اشتعلت النار ، أثناء مأدبة غداء ، فى زوجة محبوبة لأمير هندى وحرقتها ثم حولتها الى رماد قبل أن يتمكنوا

من انقاذها ، واجه الامير الموقف فى الحا لوسيطر عليه عندما قال فى حزم لمن بيكون حوله : « آزيلو بقايا سيدتكم وأحضروا الديك المشوى » • وسلوك ذلك الأمير هو نفس سلوك شو فى طابع شرقى •

تعثر شو ذات مرة وهو يخطو على أعلى درجات سلم محطة وستمنستر التحت أرضية (مترو الانفاق) ، وانزلق على ظهره الى أسفل درجات السلم مما أثار قلق الموجودين ، لكنهم انفجروا فى موجة عارمة من الضحك عندما نهض شـــو بمنتهى البساطة ومضى فى طريقه كما لو كانت تلك طريقته المألوفة فى هبوط درجات السلم • ويظهر شو هذه السيطرة ـــ الفائقة ـــ على الذات فى مواجهة كل الظروف سواء فاته قطار أو فارقـــه بالموت أحد الاقربين وأعز الاعزاء • لم يتهمه أحد بأنه ابن عاق ومن الواضح أن علاقته بأمه كانت على أفضل ما يكون ، لكن عندما احرق جسدها لم يستطع جرانفيل باركر ، الذى اختـــاره شو ليكون النائح الآخر والوحيد ألا أن يقول : « شو • أنت بلا ريب روح مرحة » ، اذ بدا لشو أن أمه كانت تنظر من فوق كتفه مبتهجة بالفرجة على رجلين يرتديان زيا يشبه زى الطهاة وهما يلتقطان قطعا من المعدن من بين رمادها • ويلذ لشو أن يقول ان ما يحتاجه المحزونون هو قليل من التفريج الذى يثير الضحك • ولهذا تبدو له الجنائز سخيفة غاية السخف •

ويستخدم شو هذه الموهبة الزئبقية لخدمة أغراضه ، أنه

يفضل الكثرة فى سرعة ادراكه لاقتراب الخطر أو ابتعاده عنه ، مما يجعله يبدو على قدر كبير من الشجاعة ، بينما لا يواجه فى الواقع أى خطر حقيقى • وهو يملك نفس الحاسة فى تقديره لقيمة النقود ، اذ يعرف متى يجب انفاقها ومتى يجب الاحتفاظ بها • وهنا أيضا يبدو وكأنه على قدر كبير من الكرم ، بينما لا يزيد ما يفعله عن عقد صفقة رابحة•قد يدهشنا بمظاهرجرأته وشجاعته لكننا نشك فى مقدرته على مواجهة أى خطر حقيقى أو القيام بأية تضحية صادقة • ان شو بأصالة يخلو من أى احساس بالحسد وهو يشفق على كل رجل سواه لعدم كونه جورج برنارد شو •

لقد سجل المرحوم سيسل تشسرتن فى كتاباته أنه عندما ذهب لمقابلة شو ــ وكان فى ذلك الحين شابا لا قيمة له بينما بلغ شو قدرا كبيرا من الشهرة ــ قابله شو وعامله كما لو كان ندا يقف معه على قدم المساواة • وان دل هذا على شىء فانما يدل على أن شو لا يخطىء فهم أقدار الرجال وطبائعهم • وكل ما يمكن التنبؤ به عنه هو فجائية الحركة والسلوك •

وهكذا فان شو رغم سلوكه الجذاب يبدو غالبا وكأنه لا يكترث بما يقول ولا بما يحس به الآخرون ، وهذا يوضح السبب فى « أنه بلا أعداء ، ولا يحبه أحد من أصدقائه » • وعبارته التى أنطق بها قيصر « لن يعرف اليأس أبدا من لم يعرف الأمل » ، عبارة جليلة مؤثرة • ولكن من منا يستطيع أن يتأكد

من أن مصدر الالهام هنا ليس شيطانيا أكثر منه ربانيا ؟ قارن عبارة قيصر بهذه الكلمات المعبرة عن التقوى والتى بليت من كثرة استخدامها : « هذه هى البهجة الحقة : أن تخدم هدفا تقر بنفسك أنه هدف عظيم ، وأن تستخدم كل طاقاتك وأن تكون قوة من قوى الطبيعة بدلا من أن تكون مجرد جسر ترابى تافه أنانى يضج بالاوجاع والتذمر والشكوى من أن الدنيا لم تكرس نفسها لمنحه ما يرنو اليه من سعادة » . والعبارة كما هو واضح تخلو من أى فكر تجديفى لكن أنصار شو يعرفون جيدا أى العبارتين أكثر تمثيلا لوجهة النظر الشفيانية .

لن أحاول الاستمرار أكثر من ذلك فى رسم الصورة . ان الكتابة عن شو تكاد تكون ميئوسا منه ، اذ قال من قبل عن نفسه كل ما يمكن أن يقال : وما يقوله الآخرون عنه بعد ذلك لا يثير الانتباه . لكنه ترك لى نقطة واحدة — فاتته هو وكل من أرخ له — أستطيع أن أكتب عنها ، اذ لم يحاول هو أو من كتبوا عنه أن يفسروا معنى العبارة التى أطلقها عليه وايلد : « انهم يحتجون عليه ويكرهونه كل الكراهية ، ويعجبون به ويحبونه كل الحب » . لقد أرسل اليه بينرو خطابا وديا خاصا ختمه بعبارة « مع اعجابى ومقتى » .

لقد حاولت أن أصور شخصية متناسقة (وشخصية شو متناسقة بطريقة آلية تقريبا) يمكن أن يصدر عنها أمثال تلك التأثيرات المتناقضة ولم يحاول أحد حتى الآن أن يفعل

ما فعلت • لقد تجاهل المدافعون عنه عنصر الكراهية ، وأنكر خصومه طيب صفاته ووصموه بأخطاء لا وجود لها • اننى لم أقم بأية محاولة لعمل تقييم واصدار حكم ، كما أننى لم أحاول أن ألعب دور الصديق الشهم والخل الوفى • لقد رسمت ملامح شخصية كما تبدو لى • ومع أن الرجل كما صورته يخلو من أى تشويه ، الا أنه من الممكن أن يصيبنا جميعا برعدة اذا ما قال : « تصور عالما يقتصر الوجود فيه على أنماط من جورج برنارد شو ! » هذه مجرد خدعة • فالعالم المقصور على فرد واحد، عالم لا يطاق • لكنه رغم ذلك يثير شيئا ما • وأتركك لتكتشف بنفسك ذلك الشىء حيث أننى أنا نفسى لا أعرفه •

٢٤ مايو ١٩١٩

كلمة ختام

يجب الآن أن أضع نهاية لهذه الخواطر والذكريات ، فلكل شيء نهاية • لقد حاولت ، كما وعدت ، ألا أزعج القراء بتفصيلات مألوفة لى ولتسع وتسعين فى المائة من عامة الناس • لكنى ضمنت الكتاب مادة ـ رغم أنها لا تخصنى ـ ربما تفيد المبتدئين فى مختلف الأعمال التى امتهنتها أو أولئك الذين يؤرخون للفترة التى عشتها • لم أضف شيئا عن حياتى الزوجية لأنها معروفة للجميع ويستطيع أى كاتب سيرة أن يتحرى عنها الكثير ، أكثر مما أستطيع أنا نفسى أن أتـذكره • أما عن نتيجـة ما كتبت وعن كونه صالحا أو غير صالح للقراءة فهذا ما لا أستطيع أن أؤكده ذلك لأننى لا أستطيع وأنا فى هذا السن (فوق التسعين) أن أتأكد من أن أقوالى وكتاباتى ليست مجرد هذيان شيخوخة رجل ثرثار بلغ من العمر أرذله •

وعلى أية حـال ، فان الجزء الأكبر من هـذه الخواطر والذكريات قد كتب منذ سنين ، وهذا ما يشجعنى على تركه كما هو كى يأخذ فرصته فى النشر دون أن أحدث به أى تغيير •

لن أقول وداعا •

فما زلت أملك من الطاقة

ما يمكننى من الاتيان بجديد •

* * *

فهرس

الفصـــــل	الصفحة
١ ــ أول من ترجم لحياتى	٣
٢ ــ المبررات التى دفعتنى لكتابة هذه السيرة	٩
٣ ــ أمى و أقاربها	١٥
٤ ــ عار وادعاء مؤلم : سر احتفظت به لمدة ثمانين عاما	٣٣
٥ ــ عملى أثناء صباى	٥١
٦ ــ نهاية كاتب حسابات فى دبلن	٦١
٧ ــ سبع سنوات كروائى تنتهى بنجاحى كناقد	٦٧
٨ ــ فى أيام شبابى	٧٣
٩ ــ من أنا وفيما أفكر	٨٣
١٠ ــ كيف أصبحت خطيبا	٩٧
١١ ــ صداقات مثمرة	١١٣
١٢ ــ هل أنا شخص مثقف ؟	١١٩
١٣ ــ ما هى عقيدتى الدينية ؟	١٢٩
١٤ ــ تصحيح أخطاء كتاب السيرة	١٤١
١٥ ــ أصل كورنودى باسيتو	١٩٣
١٦ ــ الى فرانك هاريس : عن الجنس فى تأريخ السيرة	١٩٩
١٧ ــ هذا ما كان على فرانك أن يفعله	٢٠٥
كلمة ختـــام	٢٣٦

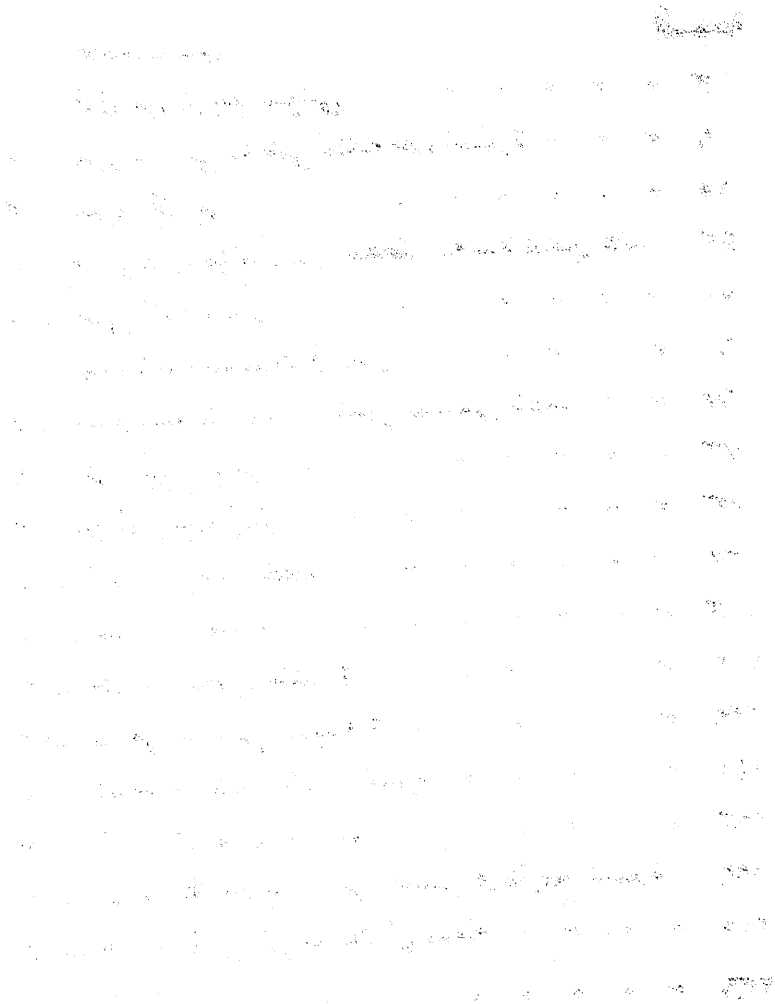

رقم الايداع بدار الكتب ١٨٧١/٨٣

دار التوفيقية النموذجية
للطباعة والجمع الآلي
الأزبكية: ٣ عرصات الموصلي
بجوار جامع الدعاء